حُرِّيَّةُ الإنسان

بين

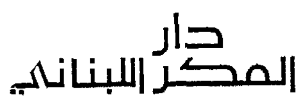
الواقع والشريعة

(سجن العمر)

د. صادق مكّي

دار الفكر اللبناني

بيروت



للطباعة والنشر

كورنيش المزرعة - تجاه غلوب بنك
هاتف: ٣١١٥٧٨ - ٨٦٣٣٩٢
ص.ب : ٤٦٩٩ أو ١٤/٥٤٩٠
تلكس : DAFKLB 23648 LE - بيروت، لبنان

الطبعة الأولى ١٩٩٢

مطابع يوسف بيضون
ذ.م.ب - هاتف ٨٣٧٦٦٧ - ٨٣٧٤٤٩ - ٤٦٠٧٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ينطلق الإنسان في حياته من بعض المبادىء والقوانين والمعطيات التي يعتبرها أساساً في الحياة ، وعقيدة يؤمن بها ويعمل بمقتضاها ، وتحد تفكيره وأعماله وحتى معتقداته . ومن هذه المبادىء فكرة « حرية الإنسان » . هذه الحرية التي صارت هاجس الفرد وهاجس الجماعة . كما صارت الغاية والأمل والهدف الذي يسعى الإنسان إلى تحقيقه ، والكنز الثمين الذي يحافظ عليه ويضحي في سبيله بكل شيء .

وصارت هذه الحرية من المُسَلَّمات التي يتمسك بها كل إنسان ، فإلى أي واحد منهم تحدثت ، وسألته عن سبب موقف وقفه ، أو عمل أقدم عليه أو أحجم عنه . . . يتذرع بالحرية فيقول لك : أنا حر ، بما تحمله هذه العبارة من معنى الاستقلالية في اتخاذ القرار ، وتحمل المسؤولية فيه ، والتحدي أيضاً الذي مبعثه الاعتداد بهذه الحرية التي ـ كما قلنا ـ صارت من المسلّمات التي يقرها الجميع ، ولا يناقش فيها أحد .

هذه الحرية التي وصلت إلى درجة القدسية ، هي منحة إلهية اقتضتها الإرادة الإلهية ، وبموجبها صار الإنسان حُراً في مواجهة أخيه الإنسان ومجتمعه ، بل هو حر برأيه أيضاً، إذ لا فرض يفرض على الإنسان ، بل هو حر في اتخاذ الموقف الذي يريد ، وأن يعتقد العقيدة التي تلائمه ، بعد أن حصّنه الله تعالى بالعقل سراجاً منيراً ، وهادياً في ظلمات الحياة .

إلاَّ أن هذه الحرية ليست مطلقة كما يظن الناس ، بل هي حرية منقوصة ، وقد تكون حرية نظرية في كثير من الأحيان ، وأما الذي يحد من هذه الحرية فهو القضاء والقدر من جهة ، وهو يمثل الإرادة الإلهية في الخليقة ، وجميع المؤمنين بالله يؤمنون بقضائه وقدره ، حتى صار الإيمان بالقضاء والقدر أول الخطوات في طريق الإيمان . وبذلك فإن الإنسان لا يستطيع أن يكون حُراً في حياته لا في ولادته ولا في وفاته ولا في اختيار والديه ولا في ما يحدث له من أحداث وما يعترض طريقه من القضايا . ومن جهة ثانية فإن كثيراً من العوامل النفسية والاجتماعية والعقيدية . . . تضع حدوداً لهذه الحريّة . . .

وبعد تأمل في معنى الحرية وحدودها وجدنا أن مفهومها نسبي ، ورأينا أن هذه الحرية نظرية أكثر منها عملية ، أو أن الإنسان يتخذ قراراته تحت تأثير كثير من المعطيات والمفاهيم والوقائع التي لا يستطيع فكاكاً منها ، بحيث لا تعود قراراته بملء إرادته . وإذا كانت هذه الحرية ـ حرية الإنسان ـ جاءت منقوصة غير كاملة أو نظرية فذلك بمقتضى ما صار معروفاً من محدودية الإنسان بحدود الزمان والمكان ومحدودية القدرات التي فيه . . . ولما كانت قواه المختلفة غير كاملة وقدرته على تخطي الواقع مستحيلة ، صارت الحرية المعطاة إليه غير كاملة أيضاً ، لأن الحرية الكاملة تقتضي كمالاً في الطاقات والملكات والقدرات . ومن هنا فالله تعالى حُر حُريّة كاملة في ما يريد وما يفعل بمقتضى كماله تعالى . والإنسان ليس إلهاً لتكون له هذه الحرية المطلقة .

على أننا نذهب أبعد من ذلك فنقول : إن الإنسان يعيش في وهمه حُريّة لا يمكن أن تكون تامّة ، ونادراً ما يستطيع أن يتخلص من القيود التي تقيده في اتخاذ قراراته في الحياة . وهذه القيود منها ما هو فعلي وواقع يكف يد الإنسان ويلجم عقله وفكره وبالتالي ينقّص حُرّيته . ومنها ما هو هواجس وأوهام وأفكار وظنون . . . وكلها من صنف المؤثرات النفسية التي تتدخل في تصرفات الإنسان وأعماله .

هذا الواقع في الإنسان جعلنا نرى في الحرية وهماً لا يمكن تحقيقه ، وهاجساً يقلقنا، وادعاءً كاذباً لا يمكن إثباته، وجعلنا نرى الإنسان أسير قيود كثيرة في حياته تبدأ

بغرائزه وميوله ورغباته وعواطفه وتمرّ بالعائلة والبيئة والمجتمع والقيم والمفاهيم الأخلاقية والدينية أحياناً ، مما يجعل الإنسان في هذه الحياة شبيهاً بطائر في قفص ، وهذه القيود وغيرها قضبانه . وهذا القفص لا باب له ، بحيث أن ساكنه سيبقى سجيناً ما دام حياً ، وإذا مات يبقى سجين ما يكون قد اتخذه من مواقف وأقدم عليه من أعمال في حياته الدنيا ، فلا حُرّية مطلقة لا في الحياة ولا بعد الموت ، بل هو سجن كبير يعيش الإنسان ضمنه . . . من هنا كانت فكرة الحديث عن « سجن العمر » .

وإذا كان واقع الإنسان يجعله سجيناً في قفص لا يمكن الإفلات منه فإن الله تعالى قد خلقه في الأصل حُراً ، وأراده أن يكون حُراً ويبقى حُراً ما عاش . . . فحدد له درب الحريّة وهو الدرب الذي يكون من يسير فيه في حصن من المؤثرات الخارجية ، والداخلية على حد سواء ، ويسير في طريق الخير ، ويقرّبه من النور والمثال ، وذلك بما حدّده له من شريعة ، وبيّن له الخير وأمره باتباعه ، وزيّنه في ناظريه ، وبيّن له الشر وقبّحه في عينيه وأمره بالابتعاد عنه . وجعل العلم والمعرفة سبيل الحرية ، كما جعل الجهل سبيل العبوديّة والضلال .

واختلفت النظريات في الحرية ، واختلفت المواقف منها ، ذلك باختلاف النظرة إلى المنطلق وإلى الواقع ، وإلى مفهوم الحريّة في معناها النظري العام الفلسفي ، أو في معناها كصفة تتصف بها أعمال الإنسان في مجتمع ماديّ محدود .

أمام هذا الاختلاف في مفهوم الحرية ، وأمام هذا الاختلاف في المنطلقات التي ينطلق منها الناس لتحديد معنى الحريّة كان هذا البحث . وقد أوردناه بصورة حوار ليكون أقرب إلى النفوس ، وأكثر فائدة . وجعلنا أطراف الحوار جيلين : جيلاً واعياً مدركاً لحقائق الأمور ، عالماً خبيراً . . . ويمثله الجَد ، وجيلاً حَدَثاً متطلعاً إلى الحياة والعلم والمعرفة معاً ، يزينه عقل راجح ورغبة في اكتشاف المجهول ، مع تأثر بجو الواقع المادي . . . ويمثله الحفيد . وبين الجد والحفيد مسافات ، قد تبعد حيناً وقد تلتقي أحياناً كثيرة ، وبينهما لقاءات ، وهذه اللقاءات تحققها الرغبة في المعرفة والمنطق السليم ، وفهم القديم للجديد ، وفهم الجديد للقديم ، وعدم طغيان

أحدهما على الآخر ، بل إنهما يتكاملان بحيث يتولد أحدهما من الآخر ، فيبقى الأصل طيباً ، ويكون الفرع طيباً ، وتأتي الثمار كذلك . ويتوافق الجميع على معنى الحريّة ولا يختلفون على شيء طالما أن الغاية واحدة ، وهي إدراك الحقيقة .

بيروت في ١٠ تموز ١٩٨٨
صادق مكي

- ١ -

خلق الإنسان

- جدّاه قل لي : لماذا خُلق الإنسان على هذه الأرض ؟ لقد أجهدني التفكير في هذا الأمر ، أقلّبه على وجوهه ، فلا أكاد أرى من فائدة في هذا الوجود ، ولا أفهم الغاية منه ؟ فهل عندك يا جد ما يشفي الغليل ، ويخفف القلق ويحمي من الضياع ؟!

● اسمع يا بني ، يا فلذة كبدي ويا نور حياتي ، وأنا ، وإن كنت يؤلمني قولك لما أرى فيه من علامات الانتقاض على الدين ، وأول خطوة في طريق الكفر بنعمة الله تعالى ، فإنه لن يثنيني ذلك عن أن أبقى أرى فيك نور حياتي وفلذة كبدي ، وإن كنت يضيق صدري بهذا الكلام أسمعه من غيرك ، فمنك أجد عندي روية أكثر وطول أناة ، ورغبة في الحديث إليك ، أُفهمك بعض ما وعاه صدري من واقع هذه الحياة في سبيل أن تسير في طريق الإيمان ، وهو طريق الخلاص . أريدك مؤمناً على ما عُرف عني وعن والدك ـ رحمه الله ـ وعن آبائنا وأجدادنا ، تحمل أخلاقنا ، وترث أمجادنا ، وتأخذ عني العلم والمعرفة ، وتستمر في حياتك سيد قومك ، دارك دارهم ، وأبوابك مشرعة لهم ، تبرّهم وقت البر ، وتنصح لهم وقت النصيحة ، وتقودهم وقت الشدائد والمسرات على حد سواء . . . وتكون عَلَماً من أعلام القوم يحسب له كل حساب ، ويؤخذ رأيه في كل أمر مهم ، وعلى هذا بك نستمر ، وتستمر معنا عاداتنا وتقاليدنا ومجدنا ، ومكانتنا بين الناس .

- أي جد ! حلماً وطول أناة ، فوالله ما أنا إلاّ ابنك ، وعلى نهجك أسير ، ولكن أفكاراً تمر بذهني فتؤرقني حيناً ، وتستنهض همتي حيناً آخر ، تؤنسني حيناً ، وتكويني بنارها مرات عديدة . . . فما وجدت ملجأ لي في هذه المعاناة غيرك ، فأنت

كهفي عند الشدائد ، وعريني في الملمات ، ومعبدي وقت التأمل والتفكر في أمور الكون . . .

● لا عليك يا بني ، قل ما بدا لك ، ووعدي إليك أن أسمع كل ما تقول ، وعهد لك عندي أن آخذ بيدك إلى شاطىء الأمان .

ـ ولكني أخشى يا جد أن يضيق صدرك بما عندي ، وأن تفهمني على غير حقيقتي ، وتفسر كلامي على غير النحو الذي أقصد إليه ، ذلك أن أفكاراً عديدة تضطرب في صدري ، وأن حماس الشباب يغلي في عروقي . . . وأن أموراً عديدة تطرق سمعي ، فأفهم منها شيئاً وأشياء عديدة لا أفهمها ، وأرى مشاهد أعرف حقيقة بعضها ، وكثيرة هي الأشياء التي لا أعرف أسرارها وأحار معها : تحار عيني ويحار عقلي وقلبي معاً ، وأقلب صفحات الماضي ، وأستطلع صفحات المستقبل ، وأربط هذا بذاك ، وأحاول تفسير هذا على ضوء ذاك ، فليس لي ـ بعد كل ذلك ـ إلاّ الخيبة ، ويبقى السر سراً ، وتبقى أمور كثيرة تؤرقني ، ويوسوس لي الشيطان فيكاد يضلني وأستخدم وسائلي ـ علمي ومعرفتي وعقلي . . . ـ فلا أكاد أصل إلى نهاية مرضية ، ووجدتني في هذا المحيط بحّاراً كادت تضيق به السبل عن إنقاذ سفينته ، فأسلم قيادها إلى ربّان قدير . فكن ذلك الرُّبان يا جد .

● أي بني ! شئتني رباناً لسفينتك في المحيط الهائج ، فسوف أحاول أن أكون كما شئت . ولكن خُذْ عنّي يا بني : صحيح أن العلماء ربابنة خيّرون صالحون ، وقادة ماهرون ذوو خبرة ومعرفة ، ومنارات هداية لهذه السفن الضالة أو التي تعصف بها الأنواء في محيطات الجهالة وظلمات الحياة ، وهم يعملون جاهدين على إنارة الطريق ، وإيصال السفن التي يقودونها إلى مأمن ، ولكن النهاية السعيدة ليست دائماً في يد البحار الماهر والقائد الحكيم ، فما يدريك ، لعلّ البحر طال هياجه ، ولعلّ الأمواج العاتية ما هدأت ، ولعلّ السفينة كانت ضعيفة أمام الأنواء ، صغيرة حقيرة ، أو عتيقة بالية . . . عندها لن يكون خلاص ، ولن تكون نهاية سعيدة .

حرية الإنسان :

ـ فما مقدار ما يملك الإنسان من أمره يا جد ؟!

● الأمر كله بيد الله يا بُنيّ ، وليس للإنسان من الأمر شيء وإنما على الإنسان في هذه الحياة أن يتصرف بما يتصرف به الإنسان العاقل ، وبما تقتضيه ظروف الحياة ، مع تغليب نزعة الخير ، والعمل الحسن ، بما يؤدي إلى إقامة المجتمع الفاضل الذي أراده الله تعالى عندما خلق الإنسان على هذه الأرض ، وكلّما كان عمله صالحاً أثابه الله تعالى على فعله وعند الله تعالى ثواب كل عمل صالح إن كان هذا العمل الصالح يفيد الناس والمجتمع ، والله عنده حسن الثواب .

ـ ولكن ما مصير هذا العمل الصالح وما هي نتائجه إن لم يكن صاحبه قد أقدم عليه بنيَّة حسنة ولكنه لم يحقق الخير الذي يرجى منه ؟

● يبقى العمل الصالح عملاً صالحاً يحاسب عليه الإنسان بالخير بصرف النظر عن نتائجه ، شرط أن يكون صاحبه قد أقدم عليه بنيّة صادقة وقلب مؤمن ، ورغبة في الخير ، سواء أنتج عنه خير للمجتمع أم لم ينتج عنه هذا الخير ، فالله تعالى لا يمكن أن يبخس الناس أشياءهم أو أن يَتِرَهُمْ أعمالهم ، وهو الحق والعدل والخير .

ـ لنعد إلى الإنسان يا جد ، فإنني أراه مخلوقاً مسلوب الحرية لا يملك منها شيئاً ، وما هو إلاّ وسيلة في يد الله يسيّرها كما يشاء ، وإلى الغاية التي يريد .

● الإنسان ـ وكل المخلوقات يا بني ـ وسيلة في يد الله يسيّرها كما يشاء نحو هدف أسمى غايته خير بني البشر جميعاً .

ـ وما هو الهدف الأسمى يا جد ؟

● هذا الهدف الأسمى غاية من غايات الله تعالى التي تدخل علم الغيب ، وهذا العلم لله وحده ، وما من مخلوق يستطيع أن يطلع على هذا الغيب أو يعرفه ، أو يعرف جزءاً منه إلاّ بإرادة الله **﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلاّ بما شاء ﴾** . وقد لا يعرف منه شيئاً مهما اجتهد في ذلك . إنما يفرض في الإنسان أن يعرف الغاية التي يرضى عنها الله تعالى ، والتي أمرنا بإتيانها من أمور العبادة من صوم وصلاة وحج وزكاة . . . وأعمال الخير ، ومساعدة الناس لتأمين عيش كريم للإنسان على هذه الأرض . ويعمل بها من عمل بمقتضى هذه الإرادة الإلهية كان له الفوز في النهاية ، ومن خالف هذه الأوامر والنواهي الإلهية حق عليه العقاب .

ـ فما قيمة هذه الحرية التي أُعطيت للإنسان على هذه الأرض ؟ وما مقدار ما يكـون الإنسان حـراً في إتيان عمله إذا كـان لا ينال الخيـر والثواب إلاَّ إذا قـام بهذه الأعمال ؟

● قيمة هذه الحرية أن الإنسان يأتي أفعاله ـ على هـذه الأرض ـ دون إكراه ، وما من شيء يكرهه على القيام بأي عمل . وما من رقابة مباشرة تسيِّره في اتجاه أو في آخر غير ما عنده من قوة داخلية تشكل فيه فطرة سليمة . تقرِّبه من الخير وتشجعه عليه وتأنس به . . . وتبعده عن الشر ، وتتـألم عنده ، وتنفعـل به . وهـذه الفطرة هي مـا يسميه الناس الضمير أو الوجدان أو مثل ذلك من التسميات .

ـ وهذا الضمير ، ألا تراه قيداً آخر من القيود التي تمنع الإنسان من التصـرف بملء حريته ؟

● بلى يا بنيّ ، ولكن استعمال كلمـة القيد يثيـر في الذهن معنى من المهـانة والزجر ليست مقصودة في كل « القيود » التي تراها تحد من حرية الإنسان في علاقته بخالقه . إذ المفهوم بالقيد ما يقيِّد حرية الإنسان ويمنعه من إتيان ما يريد ، ويحبسه عن ذلك ، ولا ينظر في هذه الأعمال إلى ما يمكن أن ينتج عنها من أعمال الخير للفرد والجماعة على حد سواء . وهذه القيود الإلهية ما هي قيود بالمعنى الحقيقي ، وإنما هي نواهٍ وزواجر من شأنها فقط أن تبعد الإنسان عن الشرّ وتقرِّبه من الخير ، وغايتها سعادة الإنسان . بل على العكس يمكن اعتبار هذه النواهي وهذه الزواجر ألطافاً إلهية بالإنسان ، ما كانت غايتها الانتقاص من حُريَّتـه بل تـوجيهه في طـريق الخير والحق والصواب . .

ـ ولك القيد يبقى قيداً ، سواء أكان مصنوعاً من حديد أو من ذهب وفضّة . ألا ترى ذلك يا جد ؟!

● أنا لا أنظر إلى الأمور في ذاتها وأتخذ منها موقفاً مسبقاً . فهذه الأشياء ـ ومنها القيود التي تتحدث عنها يا بني ـ لا تعني لي ما تعنيه لك . فأنا لا أكره القيد لأنه قيد ، ولا أرى القيد دائماً شيئاً يثير السخط والحقد والكراهية ، بل إنه لا يثيرني بمقدار ما يثيرك ، وأنا أرى فيه أيضاً وسيلة نافعة ومن الوسائـل التي لا غنى لنا عنهـا في سبيل

الوصول إلى الغاية المُثلى وهي تكوين الإنسان الأمثل في هذه الحياة الدنيا . والإنسان يا بُني مجموعة من الرغبات والميول والأهواء ، وهذه تحتاج إلى ما يقيّدها حتى لا تفسده وذلك لسببين :

أولهما : أن الإنسان على الأرض مادة إلى مادة ، وفساد إلى فساد ، والمادة تجذب مثيلتها ، وتنفر من ضدها ، فطبيعي أن تستهوي الأرض وما فيها من ملذات ورغبات وأهواء ، وعواطف دنيا ، وغرائز وميول . . . تستهوي الإنسان وتشده إليها حتى يصير جزءًا منها ، ويبعد بذلك عن عالم الخير الذي يجد الإنسان مشقة في الانتساب إليه لخلوصه من المادة. ولكونه يشكل حالة وجدانية ونفسية ووجوداً نورانياً صافياً لا يمكن له أن يعيشها ويصل إليها إلاّ ببذل كثير من الجهد ، وبكثير من الصبر والأناة ، والإنسان معوّد على الأمور السهلة ويبعد عن كل ما هو صعب ومتعب ، ولهذا فهو أميل إلى المادة واللذة ، ورغباته الدنيا ، وأبعد عن أن يتأثر بالروح الخيّرة التي فيه ، وذلك أن سيطرة المادة أقوى وهي حاجز سميك كثيف لا يفعل فيه نور ضعيف ينبعث من ظلمات المادة ، بل علينا أن نقوّي هذا النور حتى يصبح قادراً على تذويب تلك المادة ودحرها والخلاص من سيطرتها .

والثاني : أن بين الإنسان وإبليس عراك دائم ، وتحاسد مستمر ، ورغبة من إبليس ـ وطبع فيه ـ أن يخضع الإنسان إلى سيطرته . هذا العراك أو الصراع سُنّة في الكون بأن يحاول القوي إخضاع الضعيف ، نجده حتى في الجوامد، فالأقوى أكبر أثراً في الأضعف من أثر الأضعف في الأقوى . هذا إن كان للضعيف أثر في القوي . يتمثل لك ذلك في التجارب الكيماوية مثلاً بصورة واضحة ، فجسمان مختلفان يتفاعلان باقتراب أحدهما من الآخر ، والنتائج النهائية في جانب الأقوى وبفعل منه ، وتنسب إليه . وكذلك في المخلوقات من النبات إلى الحيوان فالإنسان . إذ يبدو أثر الأقوى واضحاً في المنفعل دائماً بحيث يكاد يظهر الضعيف بدون تأثير ، بل هو المنفعل دائماً بالأقوى والخاضع له . والمبدأ نفسه يصح بالنسبة للإنسان . ومبدأ سيطرة الأقوى على الضعيف وغلبة الأقوى لا جدال فيها . هذا في واقع الحال ، بصرف النظر عن الأمور والوسائل والقواعد ـ والشرائع ـ التي تعمل انطلاقاً من مبدأ الحق لا

من مبدأ القوة ، وتنصر الضعيف وتعيد إليه حقه ، وتخذل القوي في حال العدوان والميل مع الهوى والخضوع للرغائب . وبين الإنسان وبقية المخلوقات مثل هذا الصراع . ففي عالم المخلوقات التي نعرفها ونقرّ بوجودها ـ ولا نستبعد وجود غيرها من المخلوقات ـ وهي عالم الملائكة والإنس والجن ، فقد قام صراع بينها يحاول فيه « القوي » أن يسيطر على « الضعيف » ، ويحتجّ لذلك ، ويجاهر به ، ويعلن العداوة التي كانت منذ البدء ، وتبقى حتى النهاية . فإن تكريم الله تعالى للإنسان في قوله تعالى : ﴿ **ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[1] ، هذا التفضيل أثار حفيظة « المتضررين » من هذه الأفضلية ، والذين يريدون أن يكون لهم ـ وحدهم ـ المكانة الفضلى عند الله والأقرب إليه ، فكان « صراع » الملائكة مع آدم واعتراضهم عند الله عليه ، و « صراع » إبليس بصورة خاصة مع آدم ، وعدم إقرار إبليس بالأفضلية والهزيمة أمام تأييد الله تعالى لآدم ونصرته له ـ وهو أعلم بمن وبما يخلق ، وبالغاية التي من أجلها يخلق ، فانتقلت هذه العداوة لأن تصبح صراعاً يستمر في العقب ويشمل النوع ، بعد أن كان مسلطاً على الفرد حتى أخرجه من الجنة ، راح يلاحق الذريّة كلها غوايةً وتنكيلاً وإفساداً ومداخلات تعبّر عن الحقد الدفين ، وتستبيح كل المحرمات ، وتستعمل كل الوسائل في سبيل الوصول إلى غايتها .

ـ ولكن ، لماذا خلق الله تعالى إبليس يا جد ؟ أليس ليغوي الإنسان ويفسده ؟ وإفساد الإنسان أليس نتيجة لإرادة إلهية لا تريد لهذا الإنسان أن يستمر سعيداً بالجنة خالداً في النعيم ؟! .

● حاشى لله يا بُنيَّ أن يكون إفساد الناس من غاياته ، وحرمانهم من الجنة إحدى إراداته ، بل إن هذا الذي حصل من إخراج آدم من الجنة وإفساد إبليس سعادة آدم ، وملاحقة ذريته . . . هو مظهر من مظاهر الصراع بين المخلوقات هذا الصراع الذي سببه مَنْ مِن هذه المخلوقات سيكون الأقرب إلى الله ، والآثر مكانة عنده ، مع جهل هذه المخلوقات ما في نيّة الخالق والأسباب الدافعة إلى الخلق ، وتفضيل

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٧٠) .

مخلوق على مخلوق . والنظر إلى الأمور نظرة ماديّة كأن يرى إبليس النار أفضل من التراب ، فيكون بذلك ـ وهو من نار ـ أفضل من آدم وهو من تراب ، ودون أن ينظر إلى الدور الذي كلّف به ، والمقام الذي خصص له ، ودوره في إعمار الكون ، وأساس تركيبته الجسدية والنفسية والعقلية .

ولمّا كان هذا الخلل قد حصل بين مخلوقات الله وكان بسبب الغيرة والتحاسد ، فقد كان الله تعالى في منتهى العدل في حكمه على هذه المخلوقات التي خلقها . فعاقب المعتدي وعاقب المخطيء . وبما أنه يعرف أن العداوة بين « الخصمين » سوف تستمر ، وسوف يتهم كل منهما خصمه بأنه أفسد عليه حياته ، وحرمه من واقعه الممتاز وموقعه المقرّب . . . وحتى لا يطغى القوي (وهو إبليس) على الضعيف (وهو آدم) ويضطهده وهو لا يقدر أن يرد كيده عنده ، فقد حَصّن الله تعالى الضعيف في وجه القوي ، وملّكه قوى وأفعالاً يطرد بها عن نفسه أذى خصمه ويصمد له . وبهذا تكافأ الخصمان ، وتركا في هذه الدنيا يتصارعان ، ويتصارع من خلالهما الخير والشر ، والله تعالى يريد الخير ويرعاه ويفضله ، فإن انتصر الخير في الآدميين قرّبهم إليه وحماهم ووقاهم شر إبليس ، ومن كان لإبليس أسمع كان من جُنده وأصحابه وأهله ، وكان مصيره الهلاك .

ـ ولكن ألا ترى يا جد أن مجرد خلق الإنسان بما هو عليه وما أعطي له من قوى عقلية ونفسية بصورة خاصة هو من جملة القيود التي قُيِّد بها ، ولو أن الله تعالى ساوى في الخلق بينه وبين بقيّة مخلوقاته من جماد أو نبات أو حيوان . . . لما حمّله ما حمّله من المسؤوليات ولكفاه مؤونة النار ، وأبعد عنه العقاب . . . وما كان في الدنيا شر أبداً ، وما كانت الدنيا كلها لتغرق في مفارقات وخصومات ودماء وجرائم وفوضى المجتمع ؟!

● يا بُني ، فكرة قد تخطر بالبال ، ولكن عند الإنسان الذي قلّت تجربته ، أو حُدّت معرفته وقصّر عقله عن إدراك موضوع الخلق ودرجاته ومراتبه ، وما يتبع كل درجة من هذه الدرجات وكل مرتبة من مراتبها من ضرورات أو لزومات لا تنفي كلها فكرة التدرج في الخلق نحو الأسمى ، لأن الخلق في أعلى درجاته وأسمى مراتبه هو

الغاية الإلهية ، وإن لم يصل الخلق إلى هذه المرتبة لأنقص ذلك من خطة الكمال أو التكامل التي أرادها الله تعالى . فالخلق في أسفل درجاته جماد ، يندرج إلى خلق أعلى مرتبة فيكون الكائن الحي متمثلاً في النبات ، ثم يرتقي درجة أخرى فيصل إلى الحيوان ويكتمل الخلق في صورته وقواه ومواهبه عندما يصل إلى الإنسان ، هذا في ما يختص بالمخلوقات الموجودة على سطح الأرض ، ودون الولوج إلى عالم السماء والتأويل في مخلوقات السماء وسكانه وعامريه ، ودون التعرض أيضاً بالبحث إلى المخلوقات التي تشارك الإنسان عالم الأرض كالجن مثلاً ، أو التي ترقى ما بين الأرض والسماء كالملائكة ، ودون الخوض في موضوع تكوّن الحياة على الأرض ونشوء كائن من كائن . . . فلو أنه كان لك الخيار أنت كإنسان أن تختار بين الخلق ، وتحدد لنفسك مرتبة بين هذه المخلوقات ، فأية مرتبة تختار ؟ أنت لن تختار لنفسك أن تكون جماداً ، ولا نباتاً ، ولا حيواناً ، وإنما ستختار أن تكون إنساناً بصورة أكيدة، وذلك بما تعرفه من ارتقاء الإنسان في سُلَّم المخلوقات حتى يكاد أن يكون في أعلى درجات الخلق، أو هو كذلك فعلاً على الأقل في ما نعرفه من المخلوقات. وفي مثل هذا قوله تعالى : ﴿ **ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[1] . وفي قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾[2] . وإذا كان الإنسان يتمنى ، في حالات الضيق والحزن والألم . . . لو كان صخرة مثلاً أو شيئاً آخر فلا يكون هذا منه إلاَّ في ساعة اليأس وحالة الضيق ، ولا عبرة لما يتمناه الإنسان تحت تأثير الانفعال بل العبرة لما يتمناه في حالة من الوعي الكامل ، وحرّية الإرادة . أما سبب القناعة ـ قناعة الإنسان بمرتبة الإنسانية التي منّ الله تعالى عليه بها في سُلَّم المخلوقات ـ فهو لسبب رئيسي يتمثل في ما للإنسان من القدرات العقلية والفكرية والنفسية ، والتي بها يكتسب هذه المرتبة بين المخلوقات. وهنا نعود إلى مبدأ المسؤولية التي تترتب على الإنسان في مقابل ما يعطي له من قدرات وامتيازات ، ولعلّ العدالة كل العدالة تقتضي ترتيب مثل هذه المسؤولية على الإنسان ، وهذه المسؤولية ليست قيداً بالمعنى المهيمن

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٧٠) .

(٢) سورة التين ، الآية : (٤) .

للإنسان، بل هي قيد به يرتقي ويحقق الغاية السامية من وجوده وعن طريق هـذه الغايـة السـامية يكـون المجتمع المثـالي الذي أراده الله تعـالى . فلا تعـود هذه المـواهب والقدرات قيوداً ، بل هي حوافز ودوافع نحو الأفضل .

* * *

مسؤولية الإنسـان :

- ولكن هذه الحوافز والدوافـع محفوفـة بالمخـاطر . فـالإنسان فيـه ميل إلى الشر ، وإن هو ارتكب الشر في هذه الحـالة كـان مسؤولاً عنه ، ومسؤوليتـه أكبر من مسؤولية سواه ، وقد لا تُسأل بقية المخلوقات عن أفعالها . أفـلا ترى ذلـك مسؤولية وقيداً للإنسان ؟

● المسؤولية ، نعم ، أما القيد فلا ، والمسؤولية ـ كما قلت لـك ـ هي من بـاب التكريم والتميّـز والتفضيل والثقـة بشخص ما ، فـإنه لا يمكنـك أن تحمّل مسؤولية إلى إنسان لا تثق به ، ولا إلى إنسان لا يقدر على تحملها لنقص في كفاءته . يضاف إلى ذلك أن الله تعالى عندما خلق الإنسان على الصـورة التي خلقه عليهـا ، وبالقدرات التي جعلها فيه ، فقـد حصّنه ـ في جملة مـا حصّنه بـه تلك الفطرة التي جعلها فيه ، وهي ميل مغروس في نفس الإنسان بالخلق نحو الخير والسلوك السـويّ ، ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾[1] ، وهذه الفطرة هي الغالبة فيه ، وما عداها من ميل باتجاه الهوى ورغبات النفس والغرائز الشهوانية الجسدية هي عارضة ، وخلق الله تعـالى لها في الإنسـان ما كـان إلاَّ لتتم إرادة الله في الخليقة ، فتصبح هذه الرغبات في الطعام والشراب والجنس وحب المال والجاه والسلطة . . . حوافز تدفع الإنسان لتحقيق ذاته ، وليصير « الآلة » المناسبة التي بها يستمر الوجود .

- ولكن لا شيء يضمن وقـوف هذه الحـوافز عنـد حد ، وتـركها مـطلقة غيـر محدودة بحدود هو الذي يجعلها جامحة ، ويسيّر الإنسان في طريق الشر والخطيئة .

● بلى يا بنيّ ، إنها محدودة بحدود كثيرة ، وهي غير مـطلقة ، أمـا حدودهـا

---

(١) سورة الروم ، الآية : (٣٠) .

وكوابحها فالعقل أولاً ، والفطرة الخيّرة ثانياً التي تتمثل بسلامة الإحساس الداخلي الذي يسمونه الضمير والتي تستطيع أن تحدد توجهات الرغبات ومسارها ، ولا تقف منها عند درجة التحديد ، بل إنها تعلن للإنسان بصوتها الخفي الذي لا يسمعه إلاّ صاحبها ـ ويسمعها قوية صاخبة مدوّية مؤرقة تحذره من الوقوع في الخطأ ، وتنير له درب الحق والفضيلة . . . وجاءت بعد ذلك الأوامر والنواهي الإلهية ، والترغيب والترهيب والنبوات والرسالات السماوية ، وغيرها من وسائل الاتصال بين الإنسان وخالقه لتزيد في توضيح معالم الطريق الذي يجب على الإنسان أن يسلكه ، وكذلك معالم طريق الشر ليبتعد عنه الإنسان ، تأخذ الإنسان حيناً بالإشفاق والرأفة والرحمة ، وتأخذه حيناً آخر بالزجر والوعيد والتهديد حتى يعود إلى رشده ويكون مسؤولاً مسؤولية كاملة مطلقة ، وبكامل حرّيته وإرادته ، ولأنه ثبتت عليه المعصية والمخالفة ، ولأنه تحالف مع الشر المتمثل في إبليس والأبالسة أجمعين ، وفي ذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ **ليهلك من هلك عن بيّنة ، ويحيا من حيي عن بيّنة** ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ **وما ربك بظلّام للعبيد** ﴾[2] .

ـ وتبقى هذه الزواجر والنواهي قيوداً تقيّد الإنسان ، أو هي لا تثبت كثيراً أمام مغريات الحياة ، فسرعان ما تضعف مقاومة الإنسان للرغائب وينهار أمام الشهوات ، فلا ينفعه شيء ، ولا يثبت أمام الشر فيقع فيه .

● يجب أن تعرف يا بني أنه ليست كل الرغبات ولا كل الشهوات ممنوعة على الإنسان ، بل يمكن القول إن الرغبات والشهوات في أساسها غير ممنوعة ، وهي من متممات الحياة الإنسانية ومن مستلزماتها ، ولا يمكن أن تكون الحياة بدونها ، فلا يمكن أن نتصوّر إنساناً لا يأكل مثلاً ولا يشرب ولا يمارس حياته بكل جوانبها حتى الحيوانية منها . . . ولكن المحظور في هذه الرغبات أن تجمح بالإنسان وتبلغ درجة الفساد التي فيها ضرر للفرد نفسه وللإنسان الآخر شريكه في هذه الأمور ، وللمجتمع الذي لا ينتظم فيه الأمر إذا أسرف أحد أعضائه في السعي وراء اللذة ، لأن هذا الإسراف سيكون حتماً على حساب الآخرين أو على حساب النفس . وبمثل هذا كان

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٤٢) .
(٢) سورة فصّلت ، الآية : (٤٦) .

قوله تعالى : ﴿ قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الـرزق ﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾[٢] . أما عدم ثبات الإنسان أمام المغـربات فيكـون هذا لضعف في المقـاومة عنـده وضعف في الاستعداد لمجـابهة الشر . وليس هذا ضعفـاً أساسيـاً في الإنسان ، بـل هو ضعف طـاريء ، ومن فعل الإنسان نفسه ، وتقصيره في حق نفسه بعدم الاهتمام في زيادة قدراتـه الدفـاعية في وجه ما يعترضه من « الصعاب » . والله تعالى خلق في الإنسان القدرة على المقاومة أو ملكة المقاومة ، وأوضح له سبيل استمرار هذه المقاومة ، وسبيل المحافـظة على القدرات الإنسانية الخيِّرة في مـواجهة الشـر وذلك عن طـريق فرائض دينيـة فرضهـا عليه ، ومنها العبادات .

ـ ولكنني لا أرى في العبادات إلاَّ قيوداً تمنـع الإنسان من كثيـر من الأشياء ، وتجبره على القيام بأشياء تحد من حرِّيته ، وتشغل جزءاً من وقته وتمنعـه من تحقيق رغباته ، وقد تأخذ قسماً من ماله فلا يستطيع أن يتمتع به . . .

● العبـادات يا بُنيّ وسيلة الاتصـال بين الإنسـان وخـالقـه ، وهي التي تمثـل استمرار هذا الاتصال ، وبه يستطيع الإنسان أن يحصل دائماً على الطاقة اللازمة التي تغذي القوى الإنسانية فيه ، والقوى الروحية والنفسية بصورة خاصة . هذه القوى التي يمكن تصويرها في الإنسان بصورة أوعية تختزن الطاقة وبممارسة الإنسان أمور الحياة اليومية تضعف هذه الطاقة المختزنة وقد تنفد ، ولكن الله تعالى قد حدَّد لنـا وسائـل وطرقاً لإعادة شحن هذه الأوعية بالـطاقة الـلازمة وذلـك عن طريق الصـلاة والدعـاء والاستغفار والقراءات . . . وكلها تصل الإنسان بربِّه مباشرة ، وفيها ـ إن هي كـانت بتوجه سليم ـ ما يؤمن الاتصال العميق دون عوائق ، فينسكب في النفس الإنسانية نور إلهي كافٍ ليجدد النشاط والطاقة وينير البصيرة ، فيعود الإنسان معها بإيمان أقوى ، وضميـر أرهف ، وإحسـاس أعمق ، وإدراك أوسـع لحقـائق الأمـور ، وغـوص إلى الأعماق ومعرفة كنه الحياة والخليقة ، وقـرب من الله . . . وكلها تقـرِّب الإنسان من

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٣٢) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : (٣١) .

الخير وتبعده عن الشر ، وفي هذا القرب من الخير عتق للإنسان من قيود المادة ، وتحرير له من أسر الشهوات الجامحة ، فلا يعود رهين الجسم والمادة ولا رهين الشيطان . أضف إلى ذلك أن العبادات عامة ، والصلاة بصورة خاصة ، هي امتثال لأمر الله تعالى في العبادة ، إذ جعل غاية الخليقة هي العبادة بقوله تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون** ﴾[1] في المفهوم الواسع أو الضيق للعبادة بتخصيصها بالصوم والصلاة ، وجعل تعالى هذه العبادة وسيلة من وسائل الاستغفار والغفران . وفي القرآن الكريم تشديد على القيام بهذه العبادات والمحافظة عليها وبخاصة على الصلاة ، التي جعلها الحديث الشريف وسيلة للخلاص من الذنوب عندما شبهها بنهر ، والمصلي يخلص من ذنوبه بالصلاة كما يتخلص من تغسل بذلك النهر مما علق به من الأوساخ . وجعل الصيام طريقاً إلى الجنة فمن صام كان نومه عباده . . . وتسغفر له الملائكة ما دام صائماً ، وأغلق الله تعالى في شهر الصيام أبواب النار وفتح أبواب الجنة ، وعقل الشياطين في الأصفاد . . . فتكون العبادات فروضاً لمصلحة الإنسان وخيره ، ورأفة ورحمة من الله تعالى بالعباد .

أما الوقت الذي تستغرقه هذه العبادات فلا يكاد يذكر إذا ما قيس بمقدار ما أعطي الإنسان من وقت يذهب أكثره دون جدوى ، ويتلفه الإنسان في التفاهات ، فليس كثيراً أن ينفق وقتاً زهيداً في العبادة وهذا الوقت الزهيد في الواقع هو أثمن أوقات الإنسان وأكثره نفعاً له ، ولكن جهل الإنسان لهذه الحقيقة هو الذي يجعله يتخيّل الأمور على غير ما هي عليه ، ويتخيّل وقته ضائعاً دون فائدة . ثم إن هناك أمراً أريدك أن تفهمه يا بني ، وهو أن كل ما نملكه في هذه الحياة من الروح والجسد والمال والوقت . . . كلها هبات إلهية أعطيت للإنسان وفيها كينونته وفائدته ، ولولاها ما كان إنسان ولا كان وجود ولا تحققت مصلحة . ولا نجد غريباً أن يحتفظ المعطي لنفسه بنصيب مما أعطى ، بل الغريب أن نجد المعطى له يشترط على المعطي شروطاً أو يتطلب منه قضايا ومطالب يتضح منها أنانية هذا المعطى له وصغارته وبخله وعدم وفائه لمن أعطاه وولي نعمته . وإذا نحن ذهبنا أبعد من ذلك بقليل ، فإننا نجد

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : (٥٦) .

للخالق المبدع ـ وقد يكون الإنسان هو هذا الخالق المبدع في ما يبتدعه من آلات مثلاً ـ نجد لهذا الخالق حريّة مطلقة في التصرّف بما يخلق ، فيدبّره ويصوّره ويسيّره بمقتضى إرادته الشخصية ، ودون أن يكون للمخلوق الحق في الاعتراض أو التأفف والتضجر ، وقد يسخر الخالق المخلوق سُخْرة كاملة لغاياته ومآربه ويستفيد منه فائدة مادية ومعنوية . . . ولا اعتراض ولا تضجر ولا تأفف . وبمقتضى هذا الأمر فإن للخالق العظيم الذي خلق الإنسان أن يتصرف بمخلوقاته كما يشاء دون أن يسأل عما يفعل[1] ، بل إن ترك الوقت كله والنتاج ـ نتاج الحياة كله ـ للإنسان دون أن يأخذ منه إلاّ القليل لهو من باب الشفقة على هذا الإنسان والرأفة به والرحمة له . ومن هذا الباب فرض بعض الفرائض لله في مال الإنسان ، هذا بالإضافة إلى ما في هذه الفرائض المالية من حياة للمجتمع وحل للمشكلات الطارئة فيه ، وتحقيق للمثل العليا التي يجب أن تسود المجتمع من فكرة الاكتفاء الاجتماعي فلا يُرى في المجتمع محتاج ، والتعاون الاجتماعي والعمل المشترك في سبيل غاية واحدة والارتفاع بالعطاء فوق المادة ، أو اعتبار المادة سُلّماً يرتقي به الإنسان إلى مرتبة الإنسانية دون أن نجعل الإنسان ذلك السُلَّم الذي نرتقي به لبلوغ درجة عالية في عالم المادة الذي لا يلبث أن ينهار ، بل هو هباء منثور تجمعه وتجتهد في تجميعه ، ولكنه لا يلبث أن تذروه رياح الأيام ، ثم يجمع ثم يذرى وهكذا دون أن يثبت ، بل يثبت كل خير وكل عمل صالح ، ويكون وثيقة الإنسان لبلوغ الغاية في الخلود والخير والسعادة في الدنيا والآخرة . ومن مثل هذا الصوم ، وفيه من المصالح للإنسان ما لا يحصى ، وهو الإطار الأهم الذي تجري من خلاله بقية العبادات فتأتلف معه لتجعل من الإنسان روحاً تحوّم في عالم السماء ومنه تستمد النور ، وبه تقطع ارتباطها بعالم الأرض الدنيا وتتحرر من قيود المادة ، وهو نافذة بين الأرض والسماء ، منها بلج الإنسان إلى عالم القدسية ويخلص من عالم الدناءة والحقارة . وهو في الوقت نفسه « زكاة البدن » في الوقت الذي لا تجد فيه شيئاً بدون زكاة[2] . فصارت هذه العبادات كلها يا بني ألطافاً إلهية بالإنسان بها تتحقق إنسانيته ، وفيها خيره ، كما أنها من حقوق الله تعالى على

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : (٢٣) .

(٢) عملاً بالحديث الشريف : لكل شيء زكاة ، وزكاة البدن الصوم .

الإنسان ، فالله تعالى غني عن العالمين[1] ، وهذه الحقوق أيضاً ليست مفروضة لفائدة خاصة بالله تعالى ، ولكن لما يمكن أن تحققه من التقوى[2] التي فيها صلاح الإنسان والمجتمع .

- إذا كان في كل ما ذكرت فائدة للإنسان وللمجتمع الإنساني فكيف تنظر يا جد إلى الموانع المفروضة على الإنسان فلا يسمح له بشرب الخمرة مثلاً ، كما يمنع عليه بعض الطعام والشراب ، وتوضع حدود لعلاقته بالمرأة ، وهذه الحدود تمنعه من الانطلاق على مداه ، وتحد من حريته ؟! .

● إذا كان شيء محظوراً على الإنسان وكان ممنوعاً عليه إتيان بعض الأفعال فاعلم يا بني أن ذلك ما شرّعه الله تعالى إلاَّ لما فيه من مصلحة الإنسان كفرد ، ومصلحة المجتمع ، وحماية للإنسان الفرد والمجتمع من آفات أو أضرار اجتماعية إذا لم تتوفر للإنسان حماية منها ، فإنها تتلفه وتفنيه ، وتسيء إليه في ذاته ، وتطعنه في إنسانيته . أما الخمرة فضررها ذاتي لمن يتعاطاه كما يطال ضررها المجتمع . فالفرد المدمن على الخمرة بالإضافة إلى ما يلحقه بنفسه من الأضرار ، فإنه يتحول إلى عنصر مضر بالمجتمع ، لما يمكن أن تؤثر فيه الخمرة ، فتضعف قواه العقلية ، وقدرة المقاومة - مقاومة الشر - فيه ، وقد تكون معاطاتها مفتاحاً للشرور التي تصيب المجتمع وإذا نحن حاولنا أن نحصي بعض هذه الأضرار لوجدنا منها الكثير الكثير ، ولوجدنا بيوتاً كثيرة انهارت ، وعائلات عديدة خربت بسبب معاطاة أهلها للخمرة . وفي أسباب المنع التي وردت في الدين عنها إشارة إلى أضرار وفوائد[3] ، وموازنة بين هذه وتلك ، ولما كانت الأضرار أكثر من الفوائد ، فقد اقتضت مصلحة الإنسان العليا المنع العام ، والتضحية بالقليل من الفائدة أمام الكثير من الضرر . أما بعض الأطعمة والأشربة الممنوعة فما كان منعها إلاَّ لمصلحة الإنسان ، فلو أخذت مثلاً لحم الخنزير

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٩٧) ، والعنكبوت ، الآية : (٦) .

(٢) ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ ، سورة الحج ، الآية : (٣٧) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢١٩) ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما . . . ﴾ .

ونظرت فيه اليوم لوجدت فيه من « الآفات » والأضرار الصحية ما يبـرر منع تنـاوله ، والأطباء ورجال العلم يدركون ذلك ويعرفونه ، ومثل هذا الأمر بقية الأشياء الممنوعة من الأطعمة والأشربة . أما عن علاقة الرجل بـالمرأة فقـد نظمتهـا الشريعـة تنظيمـاً حسناً ، مراعية فيها حاجة الإنسان الجسدية والنفسية ، واستمرار النوع البشـري فلا يندثر ، وحماية الإنسان والمحافظة على علاقات عائلية واجتماعية سليمة تضع الأمور في نصابها ، وتحفظ لكل إنسان حقه ، كما أنها ـ الشريعة ـ بما جاءت به من القوانين قد حرصت على الرقي بالإنسان إلى مرتبة الإنسانية العاقلة بحيث لا تستعبد الشهوات الإنسان . . ولا تحطمه الثروات والغرائز .

ـ آه . . . منك يا جد !

● وما بك يا بني ؟

ـ لقد أفقدتني ثقتي بنفسي يا جد ، بدأت حديثي معـك وأنا أشعـر أن الحقيقة كلها بين يديَّ ، وأني قد عرفت كـل شيء ، واستقامت لي المعـارف ، ونضج مني الفكر ، ولو حاورني أرسطو لغلبته . . . وها أنذا الآن أقف بين يديك وقد أحسست أن ما عندي من العلم قد تبخر ، وما ظننته يقيناً حصلت عليه في كـل شيء عاد أمـامي الآن وهماً وسراباً ، أمد يدي وأبحث عنه فلا أجد له أثراً ، وإن كنت ما زلت أحس في نفسي بـوجود غبـار ذلك اليقين المحـطم . . . حتى كـدت أفقـد ثقتي بنفسي ، وكأنني أستحي منك يا جد وأخشى أن أتحدث إليك في هذه الأمور وأن أسألك رأيك في شيء ! . .

● لا يا بني ، ثقتك بنفسك شيء عظيم أهنئك عليه ، وهـذه الثقة تتمثـل في قدرتك على النقاش وطرح مثل هذه الموضوعات التي تطرحها ، أما أن تجد من يرد عليك فهذا أمـر طبيعي ، ولكن ما ليس طبيعيـاً أن يكون الـرد عليك وسيلة تجعلك تنكفىء على نفسك ، ولا تُصرِّح بمـا عندك ، ولا تحـاور ، لأن الحوار هـو الوسيلة الأساسية لبلوغ الحقيقة ، وأنا أشجعـك عليه ، ولا أجـد في نفسي غضاضـة من أن أسمع منك كل ما يخطر ببالـك ، وقديمـاً قال الحكمـاء : الشك بـاب اليقين ، فلا تخشَ شيئـاً يا بني ، وقل ما بدا لك . ولكني أنصحك بأن لا تنطلق في حديثك من نقطة تعتبر معها أنك أنت على حق ، وأن غيرك مخطىء في كل ما يقول ، وأنك تريد

أن تفرض ما عندك على ما عند غيرك ، بل حاور ، حاور ، فالحوار هو درب اليقين ، ولا تكن جاهلاً يحس عنده الغلبة على كل الناس فيصبح فيك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : ما حاججت جاهلاً إلا وغلبني وما حاججت عاقلاً إلاّ وغلبته . وكن مغلوباً ، تكن عاقلاً . وكن ـ عند نفسك ـ الغالب دائماً تكن جاهلاً . بل أنا معجب بطريقتك في طرح الموضوعات التي تطرحها يا بني ، إذ وجدتك لا تفعل فعل الجاهلين فتتحدث كمن بلغ في أفكاره درجة اليقين ، واعتبر أن ما يقوله هو الحقيقة ، وإنما تركك مجالاً في أن يكون عند الآخرين جواب عن أسئلتك ، ورأي قد يغلب رأيك ، وهل لمشكلة تعاني منها . . . ورغبتك في المعرفة وفي سماع رأي الآخرين . . . كلها أمور إيجابية عندك ، وهي وحدها توصلك إلى اليقين .

ـ إنك تعيد إليَّ الثقة بنفسي يا جد ، وتشجعني على أن أكمل معك الحوار ، فأعود إلى ما بقي عندي من قضايا في موضوع هذا السجن الكبير الذي يسجن فيه الإنسان ، فأسألك عن حياة الإنسان : أفلا ترى معي يا جد أن الحياة بما فيها من متاعب وما يقابل الإنسان فيها من المشاكل والهموم ، وما تحمله معها الأيام من الأحداث التي لا يد للإنسان فيها ، ولا يمكن له أن يؤثر فيها بما هي عليه من عنف وقوة . . . يبقى الإنسان رهيناً لها ، ينفعل بها دون أن يستطيع التأثير عليها ؟

● قلت لك يا بني إن الخلق في مجمله خير من الله تعالى ، وهو أفضل من العدم ، وهذا الخلق ـ بكل أنواعه وأشكاله ودرجاته ومراتبه هو قَدَرُ الله تعالى ضمن إطار عملية الخلق الإلهية التي كانت بمقتضى إرادة إلهية شاملة لكل شيء ، وقد أرادها الله تعالى عملية متكاملة تشمل أصغر المخلوقات وأكبرها على حد سواء ، وعلى مثل هذا يدل قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **فقدرنا فنعم القادرون** ﴾[2] . هذا الخلق الذي كُلُّهُ بقَدَرٍ وهو فعل خالق عظيم راعى مصلحة كل مخلوق ودوره في هذه الحياة الدنيا ، وحدد له دوراً فرض عليه أن

---

(١) سورة القمر ، الآية : ٤٩ .

(٢) سورة المرسلات ، الآية : (٢٣) .

يقوم به . وقد يكون هذا الدور عظيماً مؤثراً في مجريات الأمور ، أو قد يكون بسيطاً وهامشياً ، ويكون صاحبه وسيلة إلى غاية أكبر وأعظم تتم على يدي سواه ، ومن هنا كانت درجات المخلوقات من جماد ونبات وحيوان وإنسان ، فالإنسان مُسَلَّطٌ على كل ما دونه ، وبمقتضى هذه السلطة فإنه « يقتل » ما سواه ، كأن نذبح الحيوان مثلاً ويأكل لحمه ، وهذه السلطة في حد ذاتها منظمة بحيث تتم بمقتضى الإرادة الإلهية ، وبأمر الله تعالى وعلى اسمه ، إذ أمرنا الله تعالى أن نذكر اسمه عندما نذبخ الحيوان ، وأن نتجنب أكل لحوم الحيوانات التي لم يذكر اسم الله عليها ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾[1] . كما أن هذه السلطة منظمة في أسلوب المعاملة التي يعاملها الإنسان للحيوان كأن لا يظلمه ولا يؤذيه ولا يعذبه ، ويحفظه ويحافظ عليه ولا يؤلمه . . . كما أن الله تعالى جعل الناس درجات ، وفضل بعضم على بعض في الأصل ﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾[2] ، و ﴿ **في الرزق** ﴾[3] وفي المال وفي المرتبة الاجتماعية ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً** ﴾[4] . . . وبرغم هذا التفضيل فإنه ساوى بينهم في الإنسانية ، وأعطاهم بهذه الصفة ـ الإنسانية ـ حقوقاً واحدة لم يعرف بعضهم فيها وجعلهم فيها متساوين ، إلاّ أنه أوجد بينهم ميزاناً توزن به أعمالهم ، وجعل التقوى مقياس هذا الوزن ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[5] . . . وهذه الحياة تدور بين الناس بنفس الطريقة وعلى نفس المستوى إلاّ ما فضل الله تعالى به الناس بعضهم على بعض وما خصّ به بعضهم دون البعض الآخر . وعلى هذا فالحياة فيها رابحون وخاسرون ، أما الرابحون فمنهم من كان ربحه بفعل عملية التفضيل التي نالته ، ومنهم من عرف كيف يقتنص الأمور ويستفيد منها ويسيّرها لمصلحته مصلحة المجتمع التي أرادها الله تعالى وبمقتضاها يكون المجتمع السعيد الفاضل ، فيقوم الإنسان بكل الواجبات المفروضة

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٢١) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (٣٤) .
(٣) سورة النحل ، الآية : (٧١) .
(٤) سورة الزخرف ، الآية : (٣٢) .
(٥) سورة الحجرات ، الآية : (١٣) .

عليه من تقوى الله والابتعاد عن الظلم ومساعدة المحتاجين ونصرة المظلومين . . . إذ يتحوّل التفضيل إلى نوع من مسؤولية يجب على الإنسان أن يقوم بها ، وإذا هو خالفها كان مقصِّراً ، وحوسب على أفعاله ، وقد يكون الحساب بصورة أكبر مما يحاسب به سواه ﴿ **ولتسألُنَّ يومئذٍ عن النعيم** ﴾[1] . ومن الناس مَنْ يناله سوء من ظروف الزمن وتقلبات الأحداث ، إذ يكون وسيلة لوصول سواه إلى مبتغاه ، دون أن يناله خير من ذلك . هذا النوع من الناس قدر الله تعالى له موقعه في الحياة ، وطلب منه أن يصبر على صروف الدهر ، وجعل له مكافأة أو تعويضاً عما يمكن أن يلحقه من ضرر ، ومثل ذلك ما نصح به لقمان ابنه عندما قال له : ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾[2] . ولذلك أمر الله تعالى الناس بالصبر ، وشدّد على ذلك ، وأشاد بالصابرين ، ووعدهم بالجنة ، وأجزل لهم الثواب والعطاء[3] . . . كل ذلك بمقتضى عدل الله تعالى فهو لا يظلم أحداً ، ولا يضيع عنده حق لأحد . أفترى التعامل مع خالق بهذه الصفات وبهذه العدالة أمراً فيه غبن ؟ ثم ألا ترى أن الله تعالى قد فتح للمؤمن الصابر المظلوم ، بسبب ما يلحقه من ظلم باب الخلاص إلى حياة الأبدية الدائمة والخلود المقيم ، والنعيم الذي لا ينتهي ، وصارت الحياة بذلك وسيلة من وسائل تحقيق الذات الإنسانية المثالية ، ووسيلة من وسائل تحرير المخلوقات من قيود المادة والحياة الدنيا ، ودرباً يسلكه الإنسان المؤمن إلى نعيم الله تعالى حيث الخير كل الخير ، والسعادة كل السعادة . فهل ترى الحياة بعد ما سمعت قيداً يا بني ؟!

ـ حديثك يا جد نور يضيء لي الطريق ، ويأخذ بيدي ، ويؤنسني ويزيح عن عيني غشاوة وظلام الأيام والحياة ، ويخرق الحجب التي تحيط بعقلي وقلبي . . . فلا أراك تضيق ذرعاً بما أقول يا جد .

● لا عليك يا بني ، قل ما بدا لك ، فليس المهم ما نقول ، بل المهم ما

---

(١) سورة التكاثر ، الآية : (٨) .

(٢) سورة لقمان ، الآية : (١٧) .

(٣) سورة هود : (١١٥) ، والنحل : (١٢٧) ، وغافر : (٥٥ و ٧٧) ، وآل عمران : (٢٠٠) ، والقصص : (٨٠) ، والزمر : (١٠) ، والبقرة : (١٥٣ و ١٥٥ و ١٧٧) .

نعتقد ، وإذا كان القول وسيلة لطرح الأمور في محاولة للبحث عن الحقيقة فهذا هو المراد .

الحياة والموت :

- إذا لم تكن الحياة قيداً يا جد ، فإن الموت يبقى قيداً ، وسيفاً مسلطاً على رقاب الناس ، وكثيراً ما يحول بين الإنسان وتحقيق ما يريد كما أنه يضع حداً لاستمتاع الإنسان بهذه الحياة وملذاتها ، مع ما يصيب به الموت الإنسان من المصائب ، ويحمّله من الهموم ، وما يحرمه إياه من لذة العيش المشترك بين الأحبة والأهل ، وما ينتج عنه من ألم الفراق . . .

● يا بني ، هو الموت كذلك بالنسبة للإنسان العادي ، الذي لا يفهم من الموت إلاّ أنه فاجعة تصيب الإنسان وتفقده إنساناً عزيزاً على قلبه ، وتحرمه بذلك من لذة تعتبر من أهم لذائذ الحياة ، وهي لذة الشعور بالحماية والعطف والحنان ، ولذة الشعور بالارتباط بالأرض وبالتجذر فيها . . . وتحصل تلك اللذائذ بما يحسه الإنسان وهو بين أولاده وأهله وعشيرته وأصدقائه . . . وبهؤلاء جميعاً ـ برغم اختلاف الصلة وتنوع المشاعر ـ يحس بالسعادة ، وفقد واحد من هؤلاء يعني بالنسبة للإنسان انقطاع إحدى وشائج القربى ما بينه وبين الحياة ، كانقطاع جذر من جذور شجرة مستمكنة في الأرض ، ويهدده خوف خفي في أن يأتي يوم تنقطع فيه كل الجذور ، فتهوي تلك الشجرةخشبة يابسة لا فائدة فيها ولا غاية ترتجى من بقائها والمحافظة عليها . ومع الوقت تعمّق المشاعر بين الإنسان وأهله وتقوى ، وانقطاعها مؤلم بدون شك . أما لو تأمل الإنسان وعرف أن الله تعالى كما خلق الحياة خلق الموت ﴿ **ليبلوكم أيّكم أحسن عملاً** ﴾[1] وأن الموت محتّم على كل إنسان ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[2] ، فصار هذا الموت من لوازم الحياة وتوابعها يتساوى فيه الناس جميعاً ، والعاقل هو الذي ينظر إلى الموت بهذا المنظار ، ويوطن النفس على هذا الواقع ويقبله ، فيراه شيئاً طبيعياً لا يخاف منه ولا يخشاه ، وينتظره ويستقبله بثبات وطمأنينة ونفس

---

(١) سورة هود ، الآية : (٧) وسورة الكهف ، الآية : (٧) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٨٥) والأنبياء : (٣٥) والعنكبوت : (٥٧) .

مرتاحة . . . فلا يعود الموت هاجساً مخيفاً مرعبفا تنخلع له القلوب وتطير عند ذكره الأفئدة وتجمد العقول . وإن كانت هذه العقلانية في النظرة إلى الموت صعبة أو هي قليلة عند الناس ، إلاَّ أنها ممكنة بدليل أن بعض الناس يأتيهم الموت فلا يخشونه ، ومنهم من تبلغ به الجرأة أن يقدم هو على الموت دون خوف ولا وجل ، وهذه حالة المؤمنين بالله والشهداء والأتقياء . ولعلّ إيمان هؤلاء بالحياة بعد الموت ، وثواب من يموت في سبيل الله بأن يدخل الجنة ويكافأ على جهاده وتضحياته مكافآت مختلفة هو الذي يدفعه إلى ذلك . وهناك شيء آخر يحكم علاقة الإنسان بالموت ونظرته إليه ، وهو عمل الإنسان في الحياة الدنيا ، فمن كان مؤمناً يفعل الخير ولم يرتكب في حياته فواحش ومنكرات ومخالفات لأوامر الله تعالى استقبل الموت دون وجل ، والعكس يحدث لمن أثقلته خطاياه ، وإلى مثل هذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين** ﴾[1] ، فالصادقون يتمنون الموت ، ومن ارتكبت أيديهم الآثام لا يمكن أن يتمنوه أبداً لما يبقى ماثلاً أمام أعينهم من صور الحساب والعقاب الذي أعده الله تعالى لمن يخالف أوامره ونواهيه ويرتكب المحرَّمات . ولا تنس يا بني أن الموت بالنسبة للإنسان المؤمن ليس نهاية ولا فناء وتلاشياً للوجود بل هو نوع من أنواع الوجود أو مرحلة من مراحله ، وبموت الإنسان ينتقل من حال إلى حال ، وتبقى للإنسان صلة بهذه الحياة تكاد لا تنقطع ، وهذه الصلة منها ما هو أرضي يشد الإنسان إلى الأرض بما يتركه من عَقِب وأولاد عليها يعتبرون نوعاً من الاستمرار في الوجود كمثل استمرار الأنواع ـ النبات والحيوان ومثلهما الإنسان ـ واستمرار النوع استمرار للجزء من هذا النوع ومثل هذا شعور الغبطة الذي يحس به الإنسان عندما يكون له أولاد يرثونه، ويحملون اسمه، ويحيا بهم بعد موته . . . ومن ذلك شاع بين العامة أنه لا يموت من له عقب ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **يُخرج الميت من الحي** ﴾[2] ، وهنا مبدأ في الخليقة كلها والإنسان في جملة هذه الخليقة ، فتستمر الحياة بما يكون الله تعالى قد أخرجه من الأموات في

(١) سورة الجمعة ، الآيتان : (٦ و ٧) .

(٢) سورة يونس ، الآية : (٣١) والروم : (١٩) .

حياتهم . . . ومنها سماوي من مثل ما نعرف من الوجود الروحي الذي لا ينتهي ، إذ تبقى الروح لا تموت ويتبع بقاءها مشاهدة عالم الأرض وما يجري فيه وتعرف من أمره ما يبقيها على صلة به ، أو أن معرفتها هي بمقتضى هذه الصلة الدائمة بين الروح وعالم الأرض ، وإن كنا نجهل تفاصيل ذلك الوجود . يضاف إلى ذلك وجود قد يشكل نوعاً ثالثاً من أنواع الاستمرار وهو ما نعرفه من قيام صلات ما بين الأموات وعالم الأرض ، فالميت يبقى يسمع ـ بقدرة الله تعالى ـ نستدل على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من قوله تعالى : ﴿ **إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾[1] وفي الحديث الشريف قوله ﷺ : « **وما أنتم بأسمع منهم** » ، وما ورد في نهج البلاغة حول هذا الموضوع من قول أمير المؤمنين علي (ع) يبقى أن نشير يا بني إلى أن طبيعة الحياة تقتضي وجود الموت ، فلو تصورنا حياة للإنسان لا موت فيها لكان الإنسان تحول إلى طاغية جبار تفسد به الأرض ولا يصلح مع طغيانه وتجبّره شيء . ولو تصوّرنا حياة لا موت فيها لتصورناها مجتمعاً هرماً بالياً مهترئاً لا حياة فيه ولا تجدد ، ذلك أن الإنسان ـ وذهنه أيضاً ـ يكل ويمل ويضعف ويتحجّر ، وهذا كله موت وركود وعبء على الحياة التي من شروطها التجدد والسير دون جمود ولا ركود. ولو تصوّرنا حياة لا موت فيها لتصوّرنا معها مجتمعاً لا شباب فيه ، إذ لا يعود فيها مكان للأجيال الجديدة ، أو لا يعود هناك داعٍ لخلق جديد ، ولا تعود لهذا الخلق الجديد فائدة ولا منه منفعة .

الإنسان والعقل :

ـ قلت يا جد : إن ذهن الإنسان يكل ويمل ويضعف ويتحجر . . . هذا بعد أن يبلغ أقصى درجات العطاء وأعلى درجات الفكر ، وهذا الواقع الذي يصير إليه الإنسان بالكبر هو قيد من قيود الحياة التي تمنع الإنسان من الإفادة من هذا العقل بعد أن بلغ أعلى درجات تطوره وصار قادراً على اكتناه الأمور ومعرفة الحقائق والاطلاع عليها ، أفلا يكون أكثر فائدة للإنسان نفسه ولمجتمعه أن يبقى يتمتع بهذه الطاقات بعد أن بلغت مرحلة من التقدم ؟ ثم ألا يعتبر تقهقر الإنسان في عالم المعرفة فيعود لا

---

(١) سورة فاطر ، الآية : (٢٢) .

يعلم شيئاً بعد أن كان يعلم كل شيء . . . أفلا يعتبر هذا التقهقر ضرراً بالإنسانية كلها وحداً من تقدمها وتطورها ؟

● إن ضعف قدرات الإنسان العقلية والفكرية يا بني واقع طبيعي يجري على كل إنسان ، وهو نتيجة طبيعية أيضاً وحتمية للحياة . ذلك أن الإنسان الذي يعيش عمره ـ طال أو قصر هذا العمر ـ يكون قد استنفد الطاقة المختزنة في جسمه ـ والعقل جزء من هذا الجسم ـ وككل استخدام لكل آلة يؤدي هذا الاستخدام إلى ضعف هذه الآلة فلا تعود كما كانت ، ولا يمكن في هرمها وبعد استهلاكها أن تؤدي الدور نفسه الذي كانت تقوم به عندما كانت في أوج شبابها وذروة عطائها . ومهما حاولنا تدعيمها وتنشيطها وشحنها بالطاقة من جديد ، وتجديدها . . . فإنها قد تنشط وتتجدد ، ولكن بقدر محدود، إلاّ أنها سرعان ما يدركها الهرم من جديد. ومن لوازم الهرم ركود وهدوء ينمو تدريجياً حتى يصير هدوءاً كاملاً فهو عندها جمود . ومن نتائج هذا الجمود جفاف ونضوب وفراغ . فيكون ما يصيب الإنسان من ضعف القوى نتيجة طبيعية لواقع الحياة ، وللمبدأ الذي يحكم هذه الحياة ويحدّها بالموت ، والضعف مقدمة من مقدمات الموت في الغالب وفي كل الحالات الطبيعية . أما ما ذهبت إليه يا بني من أن ضعف القدرات الفكرية عند الإنسان يشكل خسارة للمجتمع والإنسانية فلا . ذلك أن الفكر ليس مقتصراً على إنسان دون إنسان ، بل هو هبة إلهية للناس جميعاً ، وعندهم القدرة ـ جميعاً من حيث المبدأ وفي الحالات العاديّة ـ على التفكير والتحليل والاستنباط والاختراع ، وهذه تؤدي إلى تقدّم الإنسانية . ومجرد مبدأ الخلق بأن يولد الحي من الميت ، والإنسان من الإنسان . . . يعني الاستمرار في الإبداع والعطاء ، وهذه العملية ـ عملية الخلق ـ هي التي تحفظ هذا الإبداع وتحفظ حق الإنسانية في النمو والازدهار. يضاف إلى ذلك يا بني أن الإنسان مفطور بطبعه على التعبير عن فكره وما يعتمل في نفسه بطرق وأساليب شتى ، تأتي قولاً أو كتابة أو عملاً . . . ويحفظ القول والكتاب والعمل ويشكل هذا كله (القول أو الكتابة أو العمل) نهاية ما وصل إليه الفكر البشري في مجالٍ من المجالات . ويأتي المتأخرون فينظرون في ما تركه الأولون ، فيكملون الطريق من حيث وصل إليه الأوائل ، ويتابعون المسيرة دون حاجة إلى البدء من نقطة الصفر ، وبهذا يكون التقدم البشري والحضارة الإنسانية . ولولا

هذا الواقع لكان الإنسان مضطراً أن يبدأ الطريق من أولها ، ولاستحال بذلك أي تقدم أو تطور ، وإذا كانت هناك زيادات على ما أبدعه السابقون فتكون بسيطة جداً ، هذا إذا لم يكن هناك تخلف عن المسيرة والركب .

- ولكن عقل الإنسان محدود ، وكذلك طاقاته الباقية وحواسه . ومن هنا نرى أن - الإنسان - يجتهد في كثير من القضايا فلا يستطيع أن يصل في بعضها إلى نتيجة ، وتبقى بعض هذه الأمور - بل كثير منها - أسراراً لا يمكن معرفة كنهها ، أو إدراك معانيها ، ولماذا جرت بهذا الشكل وليس بطريقة أخرى ، ولماذا أرادها الله على هذا النحو وليس على شكل آخر ؟ كما تبقى حواسه محدودة فيرى أشياء وألواناً ولا يرى غيرها ، ويسمع أصواتاً ولا يسمع غيرها . . . وهذه كلها قيود تكبل الإنسان . فلو كان عقل الإنسان وحواسه تعمل بكامل طاقتها لكان ذلك خيراً للبشرية جمعاء ، وكان فيه تقدم الحياة وازدهارها .

● يا بني ، إن غياب بعض القضايا عن عقل الإنسان ، وعدم قدرته على إدراك حقيقتها ، وبالتالي كون عقل الإنسان محدوداً وعاجزاً عن إدراك بعض الأشياء هو نتيجة طبيعية لفعل الخلق وعلاقة المخلوق بخالقه . ففعل الخلق يقتضي وجود خالق ومخلوق ، ويبقى المخلوق دون مستوى الخالق في كل شيء ، وفي عمله ومعرفته وإدراكه للأمور ، ويبقى الخالق أعلم وأقدر وأعرف . . . وبين العِلمين فرق شاسع ، وكلاهما من طبيعة تختلف عن طبيعة الآخر، فعلم الله تعالى من ذات الله ، لا يحده شيء ولا ينقص منه شيء ، وعلم الإنسان هبة واعطية من عطايا الله تعالى ، وهو جزء من كل ، وهو موهوب على مقدار ما يلزم الإنسان في حياته ، وعلى مقدار ما تقتضيه طبيعته وواقعه ووضعه ومصلحته أيضاً ، والله تعالى أعلم من الإنسان بالإنسان وهو الذي خلق الإنسان ويعلم ﴿ **ما توسوس به نفسه** ﴾ وهو ﴿ **أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾[1] . وهذا الأمر يا بني - أمر معرفة الإنسان والنزوع الذي عنده إلى المعرفة - من الأمور التي شغلت وتشغل بال الإنسان دائماً ، فهو يتوق لأن يعرف كل شيء[2] ، وهذا التوق يكون من الإنسان لجهله حقيقة نفسه وصالحه وحقيقة الخلق ،

(١) سورة ق ، الآية : (١٦) .

(٢) سورة النساء ، الآية : (١٥٢) والبقرة : (١٠٨) .

وقد طالب ربّه بأن يكون له علم كل شيء ، وسأله عن تلك الأشياء التي لا يجد عند نفسه عنها جواباً . ولكن الله تعالى قد نصح الإنسان بأن يقنع بالواقع الذي خلقه ربه عليه ، وأن لا يتطاول إلى أشياء ليست له مصلحة في معرفتها ، وإن هو عرفها فقد يكون ذلك وبالاً عليه ، إذ قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم** ﴾[1] . فاعتبر تعالى مصلحة الإنسان تقضي بأن يجهل بعض الأمور وأن لا يسأل عنها ، لأن سؤاله عنها لن يفيده ، ولأن الجواب لن يكون في صالحه . وهذا ما اقتضى الحد من طاقة الإنسان الفكرية . وتحديد قدراته العقلية ، وهذا الحد لا يضيره في شيء ، إذ أن المقدار الذي أعطيه الإنسان من الطاقة الفكرية أكثر من كافٍ ، إذ أثبتت بعض الدراسات أن الإنسان العادي لا يستخدم من طاقته الفكرية أكثر من عشرة في المائة ، وأن العباقرة لا يستخدمون منها أكثر من أربعين في المائة ، ويبقى القسم الآخر طاقة غير مستعملة ، فالله تعالى لم يحرم الإنسان من الطاقة ، بل إن الإنسان أخذ منها أكثر من حاجته وهذا فعل عدل من الله تعالى . كما أنه لا يمكن للإنسان من حيث المبدأ أن يطالب ربّه بأكثر مما أعطاه ـ وربّه أعلم بحاجته ـ كما أن للخالق سلطة مطلقة على المخلوقين يعطي ويأخذ وبأي قدر يشاء ، ويتصرف الخالق بالمخلوق كما يشاء وعلى النحو الذي يريد دون أن يكون للمخلوقين الحق في الاعتراض أو المطالبة بما يخالف ويغاير إرادة الخالق .

أما الحد من حواس الإنسان فهو أيضاً فعل رحمة ورأفة من الله تعالى بالإنسان ، لأننا لو تصورنا الإنسان يرى كل شيء ويسمع كل شيء لما كانت له قدرة على احتمال ذلك ، ولأودى ذلك بحياته . فما تكون حالتك أنت لو كنت تسمع كل شيء أو ترى كل لون ؟ أما أزعجتك بعض الأصوات وآذتك بعض الألوان وبعض النور ؟ ثم أما سمعت أن إسماع الإنسان لبعض الأصوات أو تسليط بعض الأضواء عليه من وسائل التعذيب التي يعمد إليها الإنسان في حق إنسان آخر ؟

* * *

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (١٠١) .

علاقة الإنسان بخالقه :

- ولكن بعض أساليب الفرض والإكراه والتهديد والوعيد التي أحاطت بأوامر الله تعالى ونواهيه للإنسان ، وصور العقاب التي تسمعها أو تقرأها ، وما في هذه الأوامر من ممارسات مطلوبة من الإنسان . . . كلها تخيف الإنسان وترعبه فيصبح كل ما يقوم به من العبادات بدافع الخوف أكثر مما يكون بدافع الإيمان ، كما أن العبادات التي فرضت على هذا الإنسان قد أحيطت ببعض الطقوس والشكليات التي لا نرى فيها فائدة ولا نرى لها مبرراً ، ولو ترك للإنسان أن يمارس عباداته دون هذه الشكليات لكان ذلك أيسر عليه . حتى أن بعض هذه الطقوس والشكليات يشعر معها الإنسان بأن المقصود منها قمع الإنسان وإذلاله وتحقيره . . . وكان يمكن أن نتوصل إلى الغاية نفسها بدون هذا الإذلال ولا هذا التحقير .

● في العلاقة بين الإنسان وخالقه يا بني يجب أن نفهم أموراً منها :

١ ـ أن هذه العلاقة علاقة بين خالق ومخلوق ، أي بين سيّد ومسود ، بين الرب وعبده . . . وهذه العلاقة تعطي للسيد الرب ما لا تعطيه للعبد ، ويبقى السيّد الرب في هذه العلاقة مطلق الصلاحية التي لا يحدّها شيء ، ولا تقف عند شكليات ، ولا موجبات .

٢ ـ وهذه العلاقة بين الخالق والمخلوق علاقة حميمة وثيقة ، وهذا الوصف لعلاقة الإنسان بربه ناتج عن القرب القائم بينهما ، وانكشاف الحجب بحيث لا تخفى على الله خافية[1] ، وهو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد[2] . هذه المعرفة الإلهية تجعل علاقة الإنسان بخالقه على شبه لعلاقة الوليد بأبيه من حيث الصلة التي تقوم بينهما والدالة التي تكون للأب على ابنه ، ووجوب الاحترام المفروض على الولد تجاه أبيه بحيث لا يحق له أن يعترض ـ أدبياً على الأقل ـ مهما كان الذي يسمعه أو يوجه إليه ويطلب منه ، ويفترض

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : (١٨) وآل عمران ، الآية : (٥) وإبراهيم ، الآية : (٣٨) ، وغافر : (١٦) والأعلى : (٧) .

(٢) سورة ق ، الآية : (١٦) .

فيه أن يستجيب لطلبات الأب إرضاءً له وامتثالاً لأمره ومثل ذلك تكون العلاقة بين كل سيِّد وعبده ، فمن باب أولى أن تكون مثل هذه العلاقة قائمة بين الإنسان وخالقه ، ذلك لاختلاف واقع الأب عن واقع الإله ، فالأب واسطة للخلق في حين أن الله تعالى هو مصدر الخلق كله ، ومصدر كل خير وعطاء ورزق ، وفضله على الإنسان أكبر من فضل الأب على ابنه ، والمولى على وليّه . . .

٣ ـ في الإنسان نزوع إلى الكبر والتعالي والشعور بالعظمة ، ويحاول أن يحقق ذلك التعالي وذلك الشعور بالعظمة بتصرفات تجعله رافضاً دوماً للانصياع في أي طريق ، والخضوع إلى أي أمر ، والنفور من أي توجيه حتى لو كان فيه خير له ، وعدم القبول للنصيحة مهما كان مصدرها مما يجعل هذا الإنسان معترضاً على كل شيء ، وعلى كثير من أنواع التعامل وكثيراً ما يكون نفوره هذا واعتراضه في غير محله ولا موجب له ، إذ أن أسلوب الخطاب ـ وبخاصة في الموضوع الذي نحن بصدده ـ الأوامر والنواهي الإلهية ـ قد جاءت بصيغة الفرض الذي هو نصيحة للإنسان وتغليب للخير وإبعاد عن الشر ، دون أن تلزمه بسلوك طريق معين فقد حفظت له حريته في التصرف على أن يتحمل مسؤوليته كاملة عندما يقدم على عمل ما .

٤ ـ وعندنا أن ما نجده من التشديد على الإنسان في موضوع الأمر والنهي ما كان إلاّ بدافع المحبة لهذا الإنسان والرغبة في تجنيبه الشر والوقع في المهالك ، كفعل الأب الذي يهز أولاده ويوبخهم ويؤنبهم ، وقد يصل به الأمر إلى درجة الضرب . . . كل ذلك لتجنيبهم ما يكرهه لهم الأب ، وما لا يتمناه لهم من الأذية .

٥ ـ وفوق كل ما ذكرت فإن العلاقة بين الإنسان وخالقه علاقة من نوع آخر ، وهي علاقة الخالق الذي يعرف ما خلق ، وما الذي يصلح مخلوقاته . فالإنسان فيه طباع ميّالة إلى الشر ، ميّالة إلى الكبرياء والعنفوان الكاذب ، محبة للتمرد ، متحللة من القيم ، جاحدة للفضل . . . وبهذا كان قوله تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾[1] . وهذا الكفر في الإنسان ، أو الميل إلى الكفر والجحود يقتضي أن

(١) سورة عبس ، الآية : (١٧) .

يعامل هذا الإنسان بما يتلاءم مع هذه الطباع ويردعها عن الشر ، وكل تعامل من نوع آخر قد تكون فيه مفسدة الإنسان لا خيره .

وإذا كانت الفروضات المفروضة على الإنسان ترهقه وتخيفه . . . فهذا هو المطلوب يا بني ، لأن الخوف حالة من الوعي ، وحالة تقصر معها الشهوات فلا تطول ولا تنمو فتهلك صاحبها ، وقد أمر الله تعالى الإنسان أن يدعو ربّه خوفاً وطمعاً[1] . وإذا كان الخوف حالة وعي وتوازن بين مشاعر الإنسان وعواطفه فلا تجمح به الشرور ، فإن الطمع في خير الله تعالى ورحمته هو سبيل النجاة ، والله يريد الإنسان أن يطمع فيه ، وهذا الطمع لا يعود طمعاً إذا كان ما يطلبه الطامع قليلاً مهما بلغ في إزاء الكثير الذي عند من نطمع فيه ، أو إذا كان من نطمع فيه مصدر كل خير .

وأما ما نسميه طقوساً وشكليات فهي من صلب العبادة ، لأن هذه الطقوس وهذه الشكليات هي الموصلة إلى الغاية وهي صلة الإنسان بخالقه صلة حقيقية قريبة . والمعروف الذي لا يحتاج إلى برهان أن الاندماج في كل عمل يستلزم فترة من التوجّه وتركيز الذهن وكلما طالت هذه الفترة كلما كان التركيز أكبر ، وهذا التركيز الذهني قد يبدأ بحركات وأعمال تبدأ جسمانية وتنتهي في طرفها الآخر نفسية روحانية ، فتصل معها إلى الغاية المرجوّة . يضاف إلى ذلك أن بعض هذه الطقوس ، والفروضات قد تكون لها غايات أخرى فالوضوء قبل الصلاة مثلاً له غايات منها النظافة والطهارة ، وفيهما شفاء للإنسان وحماية من بعض الأمراض أو ما يتهدده من الأمراض مثلاً كالاستنشاق في الوضوء ، وبدخول الماء إلى الأنف ، ما يطهر الأنف والجيوب الداخلية فيه من الأوساخ ، ويمنع أن تعشش فيه بعض الحشرات ، وإذا كان بعضها موجوداً ضمنه لا تقتله إلّا المياه فيكون هذا الأمر ـ الاستنشاق ـ كما روى بعض الأطباء « طقساً » فيه مصلحة . والإنسان بجهله لا يدرك معنى هذه الطقوس ، وهو إن تأمل وفكر واستقصى الأمور، ظهرت له الحقيقة ، وعرف أن هذه الطقوس قد أُقرت لغاية خير الإنسان وإن هو لم يفهم معناها في أول الأمر .

أما موضوع القمع والإذلال والتحقير في معاملة الإنسان فقد لا يكون وارداً

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : (٥٦) .

أحياناً ، وإنما تفسيره كذلك لعدم إدراكه كنهه ولأَنَفَةٍ فاسدة وعنفوان كاذب فيه . ثم لنفترض أنه قمع . . . فإن الموقف ـ بدون شك ـ يقتضي مثل هذا القمع لأنه يتناسب مع طباع الإنسان ويشكل أسلوب ردع ضرورياً بالنسبة له ، وهو دليل شفقة عليه ورحمة له وليس غير ذلك لأن الله تعالى أعلم بالوسيلة المناسبة لردع الإنسان عن الشر . وهذا الموضوع ـ الشفقة والرحمة من الله تعالى بالإنسان ـ هو الذي جعل الله يصف نفسه بالرحمن والرحيم والغفور والتوّاب . . . وبهذه الطريقة ، وبوحي من هذه الصفات التي يصف الله تعالى بها نفسه يجب أن تفهم الأمور لا غير ذلك مما تقوله من التحقير والإذلال ، وحاشى لله أن تكون هذه إرادته . وتفسير الأمور على نحو ما قلت جهل برأفة الله تعالى بالإنسان ورغبته في هدايته وتسييره في طريق الخير وإبعاده عن الشر .

ـ أنا أفهم الحرية بمعناها المطلق من كل قيد . فالإنسان الحر هو الإنسان الذي يملك كل الطاقات ، ويستطيع أن يفعل ما يشاء ، وبكامل وعيه وإدراكه ، وليس هناك ما يمنعه من ذلك أبداً ، وهو بعد يتحمل مسؤوليته كاملة بناء على هذه الحرية الكاملة التي أعطيت له ، والطاقات الكاملة المتوفرة فيه ، مما يجعل أية فروض تفرض على الإنسان ، وأية حدود توضع لحريته ، وأي تقييد لهذه الحرية . . . انتقاصاً من حريته المطلقة .

● أنت تتحدث يا بني عن الطاقات الكاملة المتوفرة في الإنسان وتعتبر الحرية بدون اكتمال هذه الطاقات حرية منقوصة . هذا صحيح يا بني . ولكن يجب أن تدرك أن الإنسان رهين نوعين من الطاقات فيه : طاقات خيّرة وطاقات شريرة ، أو قل : طباع عليا تشده إلى فوق وهي التي تسعى به في طريق الخير ، وطباع سفلى أو دنيا وهي الغرائز والرغبات وحاجات الجسد . . . وهي تسعى به وتشده إلى طريق الشر . وهذه أقوى . فحتى نخلق حريّة تامة في الإنسان يجب أن نخلق عنده استعداداً تاماً وكافياً ينمي فيه عوامل الخير ويقويها حتى تصبح قادرة على مواجهة الشر الذي فيه . وعلى هذا فإن حياة الإنسان تمر بمرحلتين : أولاهما مرحلة تربية وتأهيل توازن بين قوى الشر والخير التي في الإنسان . وثانيهما مرحلة الحرية التي تأتي بعد اكتمال المرحلة الأولى ـ مرحلة التأهيل ـ إذ لا نتصور توازناً بين الشر والخير في الإنسان دون

المرور بهذه المرحلة الثانية . وهذا ما قصده الله تعالى بقوله : ﴿ **لكي لا يكون للناس على الله حجة** ﴾[1] ، وقوله : ﴿ **ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حيي عن بيّنة** ﴾[2] . كما أن الله تعالى قد أخذ عهداً على نفسه وهو أن لا يعاقب قبل التنبيه والتعليم والإرشاد ورسم طريق الخير ، وذلك بقوله تعال : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً** ﴾[3] . ونحن في حياتنا العملية ترانا نعتمد مثل هذه الطريقة في تربية أولادنا فنعلمهم ونرشدهم فترة من الزمن ، ثم نتركهم يواجهون الحياة ويتحملون مسؤولياتهم فيها . وفي مرحلة التوجيه نستعمل معهم كل وسيلة ممكنة من ترهيب وترغيب ومكافأة وقصاص وحجز حريّة وزجر وتوبيخ وتأنيب . . . كما تقتضي مصلحتهم ، إذ من المستحيل وغير المعقول أن تعطي طفلاً حرية تامة مطلقة وهو بعدُ كتلة من الغرائز والرغبات الدنيا وقبل أن تنمي عنده معنى المسؤولية وتوقظ ضميره وعقله ومداركه والإنسان الجاهل والبدائي طفل كبير ، وحتى يبلغ سن الرشد الفكري وتستقيم حياته الفكرية لا نجد بدأ من التعامل معه بما نعامل الطفل وبالأسلوب نفسه .

وعلى هذا فإن القوانين الوضعية ـ كما تفعل القوانين السماوية تماماً ـ تميّز بين مرحلتين في حياة الإنسان : مرحلة القصور أو السفه ومرحلة الرشد . أما مرحلة القصور فهي المرحلة التي تعتبر الولد قاصراً وغير قادر على تحمل مسؤوليته ، فتحمل هذه المسؤولية للأب أو لولي أمره وتعفيه منها ، فإذا ما استقام له عقل سليم وقدرة على تمييز الخير من الشر وتحمل المسؤوليات وصار راشداً ، تحمّل عندها المسؤولية كاملة دون أن يتحملها معه أحد . وصارت بذلك كل الأساليب التي يعامل بها الإنسان في دعوته إلى الله وإلى عمل الخير وإلى أن يكون إنساناً صالحاً ضرورية وواجبة ، وتراعي وضعه وتكوينه النفسي ، وهي التي تؤهله للحريّة الكاملة وتحمل المسؤولية . وإذا عدنا نستعرض موقف الله تعالى من الناس نجده يشدد في طلبه إلى الأنبياء أن يبشروا وينذروا ويذكروا ويتركوا الإنسان يتصرف بما يشاء ، والثواب والعقاب على الله تعالى وحده . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر** ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٥٠) والنساء : (١٦٥) .
(٢) سورة الأنفال ، الآية : (٤٢) .
(٣) سورة الإسراء ، الآية : (١٥) .

لست عليهم بمسيطر ، إلاَّ من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾(١) . وقوله تعالى : **﴿ ما عليك من حسابهم من شيء ﴾**(٢) . . . وتأكيده على مسؤولية الإنسان عن أعماله كقوله تعالى : **﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾**(٣) . و**﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾**(٤) . هذه المسؤولية المطلقة نتيجة لتلك الحرية المطلقة التي أعطيت للإنسان بعد أن اكتملت تربيته وصار قادراً على تحمل المسؤولية . وهذا كله ينبع من فكرة العدالة الإلهية التي لا تحاسب إنساناً إلاَّ على ذنوب ارتكبها وبملء حريته وإرادته . وهي أيضاً من باب لطف الله تعالى بعباده **﴿ الله لطيف بعباده ﴾**(٥) ، وهذه الألطاف الإلهية تقتضي مثل هذا الإعداد للإنسان .

* * *

الرقابة الإلهية :

- وهذه التربية التي تتحدث عنها يا جد ، وهذا الإعداد للإنسان في حد ذاته يحمّل الإنسان في نفسه بذور الخوف من البداية ، ويجعله رهين الشعور بالخطيئة وأسير الشك في مصيره ، فيعيش في رعب دائم ويتصور الله تعالى معه في كل مكان ، وعند كل عمل ، كما يتصوَّر الملائكة تحيط به من كل جانب . . . ، فيصبح أسير الخوف والرهبة ، فلا يمكن أن نعتبر أي عمل يقوم به في مثل هذه الظروف عملاً حُراً .

● يا بني هذه الرقابة التي تتحدث عنها من متممات برنامج الإعداد الإلهي للإنسان الذي يقرّبه من الخير ويبعده عن الشر . فالإنسان ـ كما قلت لك مراراً ـ ميّال للشر أكثر من ميله إلى الخير . والشعور بالرقابة الدائمة يدفعه ـ من حيث المبدأ ـ لاتباع طريق الخير والبعد عن الشر ، لأن الشهود في كل قضية عناصر إثبات قد

---

(١) سورة الغاشية ، الآيات : (٢١ ـ ٢٦) .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : (٥٢) .
(٣) سورة المدثر ، الآية : (٣٨) .
(٤) سورة الزلزلة ، الآيتان : (٧ و ٨) .
(٥) سورة الشورى ، الآية : (١٩) .

يصعب ردها . وهي تحول بين الإنسان والتنقل من أعماله التي أقدم عليها . وهذه الرقابة ـ كما تعرف يا بني ـ يأتي في أولها الله تعالى الذي لا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض[1] ، و﴿ **يعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾[2] . وتتدرج إلى الملائكة ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراماً كاتبين. يكتبون ما تفعلون** ﴾[3] ، ثم إلى الناس ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً** ﴾[4] ، وينتهي بأعضاء جسم الإنسان ﴿ **وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾[5] إلاَّ أن هذه الرقابة ليست عملاً سلبياً يراد به تخويف الإنسان ، ولا تسجلِ من أعماله إلاَّ الذنوب . وإنما هي رقابة عادلة أيضاً ، بمعنى أنها تسجل أعمال الخير التي يقدم عليها الإنسان كما تسجل أعمال الشر التي يأتيها ﴿ **ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[6] . والله لا يبخس الناس أعمالهم ﴿ **وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾[7] ، و﴿**تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾[8] يوم القيامة ، فحتى أعمال الرقابة هذه خاضعة لمبدأ التوازن الذي يرعى تصرفات الإنسان فيسجل الحسنات والسيئات على حد سواء . ولما كان العدل هو الأساس في هذا الموضوع ـ كما في غيره ـ فإن الإنسان الذي يخاف من الرقابة لا يخاف منها على أنها رقابة في ذاتها ، بل يخاف من أعماله السيئة التي يكون قد أتاها في حياته . وهذه السيئات تبقى مسجّلة عليه ولا يمكن أن تمحى ويحاسب الإنسان عليها يوم القيامة ، إذ يجد كل إنسان عمله مُحضراً[9] . أما الإنسان

---

(١) سورة الحاقة ، الآية : ١٨ وإبراهيم : (٣٨) ، وغافر : (١٦) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : (٥٩) .

(٣) سورة الانفطار ، الآيات : (٩ ـ ١٠ ـ ١١) .

(٤) سورة النساء ، الآية : (٤١) .

(٥) سورة يس ، الآية : (٦٥) .

(٦) سورة الزلزلة ، الايتان : (٧ و٨) والنور : (٢٤) .

(٧) سورة الطور ، الآية : (٢١) .

(٨) آل عمران ، الآية : ٣٠) .

(٩) سورة آل عمران ، الآية : (٣٠) .

المؤمن الذي عمل الخير وما اقترف إثماً ولا خطيئة ، فإنه يواجه ربه بقلب مطمئن ، وضمير مرتاح ، مستبشراً بالجنة التي وعد الله بها عباده[1] ، دون خوف ولا حزن ولا وجل ﴿ **أولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[2] ، وتقوم بينهم وبين ملائكة الله ورقابته على عباده صلات طيبة وحميمة ، وصلات مهادنة لا صلات حرب ، وثقة لا شك ، فهم حفظة[3] أنزلهم الله من السماء لحفظ الإنسان ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾[4] . . .

فيكون هؤلاء الملائكة مكلفين ليس بالرقابة وحدها ، بل بحفظ الإنسان أيضاً . وعندما يعلم الإنسان هذا الأمر ، فإن جانب الخوف يجب أن يزول من نفسه في حال براءته ، ويبقى هذا الخوف مسيطراً إذا كانت النفس مثقلة بالذنوب . وتتمثل هذه الصلات الطيبة بين الإنسان والملائكة الذين يكتبون ما يفعل الإنسان بما فرضه الله تعالى في الصلاة من التسليم على هؤلاء الملائكة في آخر التسليم . دون تمييز بين من يسجل الحسنات أو السيئات . كما أن الإمام زين العابدين عليه السلام كان يخاطب هؤلاء الملائكة بقوله : السلام عليكما من كاتبين وشاهدين ، اكتبا : بسم الله ، أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وحده لا شريك له ، إلهاً واحداً أحداً فرداً صمداً حياً قيُّوماً ، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي في الذل وكبّره تكبيراً . . . فقد حلت الثقة والطمأنينة محل الخوف عند الإنسان المؤمن ، وصار تسجيل الأفعال من قبل هؤلاء الملائكة فعلاً في مصلحته ، يحفظ حقه ولا يبخسه منه شيئاً ، وصار الإنسان المؤمن يؤمن بعدالة تسجيل السيئات التي يرتكبها ، ويجتهد في العمل على أن تكون الحسنات التي يقدم عليها أكثر ، فتمحى هذه السيئات وتذوب أمام الحسنات الكثيرة ، والله تعالى يرحمه ويغفر له ذنوبه ويكفّر عنه سيئاته كما وعده .

---

(١) سورة آل عمران ، الأية : (١٧١) والتوبة : (١٢٤) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٦٢ و ١١٢ و ٢٦٢ و ٢٧٤) وآل عمران (:١٧٠) والمائدة (٦٩) .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : (٦١) ، والانفطار : (١٠) .

(٤) سورة الرعد ، الآية : (١١) .

- من الصعب يا جد أن يدرك الإنسان شيئاً لا يراه ولا يرى آثاره . كما أن نظام الرقابة الذي تحدث عنه في تنظيمه وتدرّجه وإحكام حلقاته ، وشموليته أيضاً . . . ما يجعلني أقف حائراً أمامه ، وغير قادر على اتخاذ موقف منه ، أو أن أكوّن رأياً فيه .

● ما أقوله لك عن هذا الموضوع - وغيره من الأمور التي أحدثك عنها يا بني - ليست رأياً أو آراء خاصة بي ، بل هي شيء أثبته الله تعالى في كتابه العزيز . ونحن ما علينا في هذا المجال إلّا أن نأخذ بما جاء به تعالى ، ونسلّم به . وإذا كنا غير قادرين على لمس أو إثبات هذه الأمور ، فإن عقلنا لا ينفيها أبداً ، بل هي - بالإضافة إلى كونها تتم بإرادة إلهية - ممكنة الحدوث، وما إتقان تنظيمها إلّا دليل إتقان خالق الكون الذي ما خلق شيئاً عبثاً ، ولا ترك شيئاً في الكون دون تدبير على أحسن صورة وفي أحسن حال . وهو الرقيب[1] علينا جميعاً ، وهو أعلم بما خلق[2] ، وهو المسيطر على ما خلق يعلم كل شاردة وواردة فلا تخفى عليه خافية في السماء ولا في الأرض[3] وهو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه[4] وهو أقرب إليه من حبل الوريد[5] ، وهو الذي يعلم السر وأخفى[6] ، وهو الذي وصف نفسه تعالى بأنه « ما يكون من نجوى ثلاثة إلّا هو رابعهم ولا خمسة إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم ﴾[7] . ومع رقابة الله تعالى المباشرة والأساسية والأولى فقد جعل تعالى على كل إنسان من الملائكة شهوداً يسجلون عليه أفعاله وأعماله ، فقال تعالى : **﴿ ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد ﴾**[8] و **﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾**[9] و **﴿ ورسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾**[10] و **﴿ ورسلنا لديهم**

---

(١) سورة المائدة الآية : (٢١٧) وهود : (٩٣) والنساء : (١) ، والأحزاب : (٥٢) .
(٢) سورة « المؤمنون » الآية : (١٧) وق (١٦) ويس : (٧٩) .
(٣) سورة آل عمران : (٥) وإبراهيم: (٣٨) وغافر : (١٦) .
(٤ و ٥) سورة ق ، الآية : (١٦) .
(٦) سورة طه ، الآية : (٧) .
(٧) سورة المجادلة ، الآية : (٧) .
(٨) سورق ق ؛ الآية (١٨) .
(٩) سورة طه ، الآية ٢١ .
(١٠) سورة يونس ، الآية : (٢١) .

يكتبون ﴾[1] . وتبقى رقابة الله تعالى ـ مع كل ذلك ـ هي الأولى والأساس[2] .

من هـذا كله نرى أن نـظام المراقبـة على أعمال الإنسـان نـظام محكم تمـام الإحكام متقن تمام الإتقان ، كامل تمام الكمال ، وطبيعي أن يكون كذلك ، وهـذا من مقتضيات العدالة الإلهية ، وبه صار ﴿ **من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

ـ كل هذا وتقول لي يا جد أن الإنسان غير مقيّـد وأنه حـر التصرف يفعـل ما يشاء ؟ وما ضر لو كان مطلق الحرّية ؟ وما هو الداعي لمثل كـل هذه الـرقابـة وبهذا المقدار ؟ وهل يجرؤ إنسان بعد على أن يأتي شراً في حياته ؟

● قلت لك يا بني إن الله تعالى عندمـا خلق الإنسان أراد أن يخلق المجتمـع الفاضل الذي يسيطر عليه الخير والفضيلة ، ويرقى بها هذا الخير وهذه الفضيلة فيصير في مجتمع الكمال المطلق الذي هو الجنّة . والإنسان ميّال للشر بحكم ما فيه من مادة تشده نحو التراب ونحو المادة ونحو الشر . والله تعالى قد بيّن للإنسان طريق الخيـر وطريق الشر ، وهو يريد للإنسان أن يسلك طريق الخير ، ولا يريـد له سلوك طـريق الشر ، وفي سبيل حمـايته من الشـر فقد كـانت عدّة وسـائل منهـا تبيان طـريق الشر ووعورته وسيئاته وعواقبه الوخيمة ونتيجته التي توصل الإنسان حتمـاً إلى العقاب الأدهى وهو النار وتبيان طريق الجنة وتزيينه في أعين الناس ، وإظهار ما فيه من سعادة الإنسان في الدنيا ـ لما يجنيه الإنسان من طمأنينة نفسية ـ وفي الآخرة لما يلقاه الإنسان المؤمن من سعادة دائمة مكافأة على سلوك هـذا الطريق . ومن متممـات العدالـة الإلهية أن تكون هناك مراقبة تحفظ تصـرفات الإنسـان وتسجلها عليـه ، فيأتي كـل إنسان يـوم القيامة ومعه كتابه يحمله بيمينه أو بشماله حسب وضعـه ، ويستكمل الله تعـالى هذا الحفظ بما أظهره من قيام الشهود التي تشهد على أفعال الإنسان ، فجعل الله تعالى كل شيء ينطق بما شهد وما عاين ، وما استُخْدم له من أفعال فتشهد على الإنسان يداه

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : (٨٠) .

(٢) هود : (٩٢) وآل عمران : (١٢٠ وآل عمران : (١٢٠) والأنفال : (٤٧) وفصلت : (٥٤) .

ورجلاه[1] ، فتنطق بإرادة الله تعالى بما كان من مشاهدتها للأشياء أو معاينتها لها وتقول رداً على عتب أصحابها عليها : ﴿ **وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** ﴾[2] .

وإذا كانت كل أنظمة الرقابة هذه فما الغاية منها إلاَّ حماية الإنسان وتخليصه من الشر ، وبهذا فلا تعود هذه الرقابة قيداً للإنسان بل تصير تحريراً له من العبودية ، لأن العبودية الحقيقية هي سيطرة الجسد على الإنسان ، وخضوع الإنسان لهذا الجسد ، والخطأ تركه يتخبط في صراعه مع هذا الجسد ، وهذه الرقابة ـ كما قلت لك ـ فعل خير من الله تعالى ورأفة ورحمة بالإنسان . أما لو كان الإنسان مطلق الحرية ، بمعنى لو أننا رفضنا هذه الرقابة ، ولو شعر الإنسان بها ـ برفع هذه الرقابة ـ وأحسّ أنه يمكن أن يفعل ما يشاء ولا يوجد من يؤاخذه أو يحاسبه على أفعاله وأعماله لكان رهين نزواته ورغباته ، ولكان ارتكب حتماً كل خطيئة . وعن جرأة الإنسان على إتيان الشر وارتكاب الخطيئة فلا تسل يا بني . فبرغم كل هذه الحماية والرعاية والتحذير والإحاطة والوعد بالجنة والتخويف من العقاب ومن النار ، وبعد وصف الهول العظيم هول يوم القيامة والنار والعقاب . . . فإن الإنسان لا يرتدع عن غيّه وعن ضلاله ، ويبقى أسمع لصوت إبليس يغريه فيطيعه ، وأخضع لصوت الشهوات تثيره فيستجيب وينسى ما أمره به الله تعالى وما نهاه عنه ، ولهذا ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾[3] ، وبهذا أيضاً فإن الإنسان يعرف الحقيقة ، ويفهم إرادة الله تعالى ثم ينكرها ويبدل نعمة الله تعالى عليه كفراً[4] ويستجيب لصوت الشهوات ، ويعرف أنه مخطيء ، وكلما أدرك ذلك سعى إلى الله تعالى ليغفر له ، ثم يعود فيستغفر ، ثم يعود إلى الخطيئة ، ثم إلى الاستغفار . . . وهكذا ﴿ **لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض** ﴾[5] .

---

(١) سورة النور ، الآية : (٢٤) وفصّلت ، الآية : (٢٢) .
(٢) سورة فصلت ، الآية : (٢١) .
(٣) سورة عبس ، الآية : (١٧) .
(٤) سورة إبراهيم ، الآية : (٢٨) .
(٥) سورة فصلت ، الآية : (٥١) .

ـ إن هذه الرقابة التي تتحدث عنها يا جد ، وبهذا المقدار من الصرامة والإحكام تجعل الإنسان في حالة رعب وخوف لا يعرف كيف يخلص منه ، وقد يصير عبداً لهذا الخوف ، وتصير أعماله كلها بدافع منه ، فلا يعود لإيمانه معنى ولا قيمة ولا فائدة ، لأنه لا قيمة لعمل لا يأتيه الإنسان بملء إرادته وبحريته التامة ، ولو أن هذه المراقبة كانت عقلية فقط بحيث أنه يترك لعقل الإنسان وحده أن يكون هو الرقيب على تصرفاته وأعماله أما كان ذلك خيراً ؟

● أما أن يصير الإنسان في حالة رعب وخوف فقد يحصل ذلك ولكن الرعب والخوف ليس بسبب هذه الرقابة في ذاتها ، لأن هذه الرقابة نظام حماية للإنسان تطمئن إليها النفس وترتاح في ظلها ، كحالة الإنسان الذي يلاحقه الخطر من كل مكان فتؤمنه ، فيطمئن . أما خوف الإنسان فهو من أعمال السوء التي يكون قد ارتكبها في حياته ، وخوفه من العقاب الذي يعرّض نفسه له نتيجة للأعمال التي ارتكبها .

ويجب أن نفهم يا بني أنه برغم كل هذه التنبيهات والتحذيرات التي هي لمصلحة الإنسان ، فقد ترك الله تعالى أن يختار أفعاله ـ أو بعض أفعاله على الأقل ـ فجعل ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[1] ، وهداه إلى الطريقين ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾[2] ، ثم ﴿ **وأن ليس للإنسان إلاَّ ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[3] و ﴿ **قل كل يعمل على شاكلته** ﴾[4] و ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[5] . وجُعل العقل في الأساس هو الحكم الأخير بالنسبة لتصرفات الإنسان وقد أمر الله تعالى الإنسان أن يستخدم هذا العقل فطالبه بذلك : ﴿ **أوَلم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلاَّ بالحق وأجلٍ مسمىً . . .** ﴾[6] و ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين** ﴾[7] . و ﴿ **أفلا**

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : (٧ و ٨) .
(٢) سورة البلد ، الآية : (١٠) .
(٣) سورة النجم ، الآيتان (٣٩ و ٤٠) .
(٤) سورة الإسراء ، الآية : (٨٤) .
(٥) سورة المدثر ، الآية : (٣٨) .
(٦) سورة الروم ، الآية : (٨) .
(٧) سورة الذاريات ، الآية : (٢٠) .

يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] و﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[2] و﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا أو آذان يسمعـون بهـا فـإنهـا لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التي في الصـدور** ﴾[3] فللعقل دور أسـاسي ومهم يا بني . ولكن العقـل وحـده لا يمكن أن يهتـدي إلى كل شيء لأن الله تعـالى خلق كل شيء بقـدر ﴿ **إنـا كـل شيء خلقنـاه بقدر** ﴾[4] وبقدر هذه نفهم منها : بإرادة إلهية ، وبحدٍ محدود . وكثير من الناس لهم عقول ولكنهم لا يعقلون بها ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلاَّ كالأنعام بل هم أضل سبيلاً** ﴾[5]. ومن هذا كله نرى أن العقل هو الآخر صـار بحاجـة إلى رعاية وحماية وتعليم وتدريب حتى تتأتى له القدرة على تمييز الخير من الشـر ، والحق من الباطل . ومن كان هذا شأنه كان حرياً به أن لا يكون فيصلاً نهائياً وحكماً في الأمور : ﴿ **أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلاَّ أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون** ﴾[6] .

* * *

---

(١) سورة محمد ، الآية : (٢٤) .

(٢) سورة ق ، الآية : (٣٧) .

(٣) سورة الحج ، الآية : (٤٦) .

(٤) سورة القمر ، الآية : (٤٩) .

(٥) سورة الفرقان ، الآية : (٤٤) .

(٦) سورة يونس ، الآية : (٣٥) .

- ٢ -

الإنسان والعائلة

- أراني أحار يا جد في تفسير الصلة التي تربط الناس بعضهم ببعض فيتحابّون أو يتباغضون ، وقد يتباغض من يجب أن يتحابوا . كما أنني لا أجد تفسيراً أحياناً لعلامات الود المفقود التي تقوم بين اثنين أو جماعتين ، كأن يكره الإنسان أخاه ، والأب ابنه مثلاً ، أو كأن تتقاتل قبائل أخوة وشعوب تجمعها وحدة العرق أو غير ذلك من الروابط الوثيقة !! . .

● هناك ثلاثة أنواع من الصلات يا بني تجمع بين الناس ، تأتي في أولها صلات الدم ، أو صلات الرحم أو صلات القربى . ولعلّ هذه أهم الصلات وأوثقها ، بمعنى أن الإنسان لا يستطيع أن يغيّر وأن يبدل فيها ، وتبقى قائمة ثابتة برغم ما قد يشوبها من الشوائب ، فيتنافر الناس دون أن يكون باستطاعتهم قطع هذه العلاقة ، وتخف حيناً دون أن تنقطع ، وهي إن انقطعت في الظاهر فإنها في الحقيقة باقية هامدة إلى أن يتاح لها ما يحركها ويذكي جذوتها ، فتعود أشد اشتعالاً مما كانت . وهذا يخضع طبعاً لمبدأ الصلة الأقرب ، فالأقرب من الصلات تكون هذه حالة ، وكلما بعدت هذه الصلات ضعفت وماتت ، وإن بقيت أحياناً كثيرة شعوراً دفيناً يستيقظ فينا حيناً بعد حين ، وتحس نحو إنسان لا تعرفه أصلاً ، ولم تره من قبل بشعور يشدك إليه وعاطفة تربطك به ، وشيئاً يتحرك في داخلك نحوه يقربك منه فيجعلك تبادر إلى خدمته وحمل همومه معه ، ومشاركته أفراحه . وقد درج العامة على التعبير عن هذه الصلات بتعابير وأمثال باقية خالدة لا تزول ، فيقولون : « الدم لا يصير ماءً » بمعنى أن صلة الدم ثابتة لا تزول ، ومن كان فيهما دم مشترك يتحرك هذا

الدم في كل منهما ليجتمع إلى مثيله ، ويقولون أيضاً : « من كان فيه من دمك لا يخلو من همّك » بمعنى أن الذي تجمعك به صلة دم يحمل همّك ولو بمقدارقليل .
وهذه الصلة يا بني أمر طبيعي ، إذ أن الأشياء الجامدة إذا ما كانت فيها مادة واحدة تدخل في تركيبها ، فإن هذه الأشياء تتشابه في الشكل والصفات . فحري بصلة الدم أن تجمع بين الناس وتقرب بينهم ، وتقيم نوعاً من صلة نفسية وروحية لا نستطيع أن نفسرها بأكثر من أنها ميل من إنسان إلى إنسان ، وإن كان لا يستبعد أن يكون في الدم عناصر تتجاذب إلى مثيلاتها في إنسان آخر تجاذباً مادياً قد يصير حالة نفسية فيما بعد . وأشد ما تكون هذه العلاقة بين الآباء والأبناء ، ذلك أن الأولاد يمثلون الامتداد الطبيعي للأهل في الزمن ، ويلبي في الإنسان رغبته في الخلود والبقاء ، وخوفه من الموت والفناء ، فيرى الإنسان ذاته تتجدد في أولاده ، فتقر عينه ، ويسلّم بعض التسليم للواقع بطريقة لا يسلّم بها غيره ممن لا أولاد عندهم . والأب والولد من طينة واحدة ، بحيث أن دم الأول قد انسكب في عروق الثاني ، فهو ذاته لولا انسكاب هذا الدم في قالبين مختلفين ، ودخول عناصر أخرى في تركيبة الثاني دون أن تضيّع الأصل أو تفقد الصلة بين اثنين . وجاءت الشرائع فأعطت هذه الصلة بين الناس - رابطة الدم - المقام الأول ، فجعلتها أساساً في النسب ، ووزعت الناس فئات انطلاقاً من أنسابهم ، ورتّبت موضوع الإرث على أساس هذه الأنساب ، وربطت العلاقات بين الناس على أساس مراتب هذه الأنساب ودرجاتها ، فصار ﴿ **الأقربون أولى بالمعروف** ﴾ وصار ﴿ **أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾[1] .

أما النوع الثاني من الصلات فهو تلك الصلات التي تقوم بين الناس على أساس المشابهة أو المشاكلة أو الوفاق في الطباع بين اثنين ، فيجتمعان على مسألة واحدة وحول قضية واحدة ، وتؤلف بينهما طباع مشتركة بحيث يرى الإنسان نفسه تتكامل بالطرف الآخر ، فتتوثق صلتها به . وهذا التآلف أو المشابهة يكون بسبب طباع نفسية تجمع بين الناس . وقد تترجم هذه الطباع النفسية بسبب توافق مادي وتكويني في الإنسان ، وقد يظهر أحياناً في مشابهة شكلية ماديّة كأن يكون هناك توافق مثلاً في تركيب الدم بينهما ، ولعلّ هذا الأمر هو الذي جعل بعض الذين يهتمون بعلم

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٧٥) .

الفلك والأبراج يجمعون الناس في فئات أو أبراج تتشابـه ظروفهـا الحياتيـة وتتشابـه طبـاعها النفسيـة . ويذهب البعض إلى ربط هـذا الأمر بـالنجوم ، فيعتبـرون أن كل جماعة من الناس يجمعهم تكوين معيّن ، وتسيـطر في تكوينهم الجسمـاني عناصـر محددة ، تنفعل بأحد الكواكب وتتأثر بإشعاعاته أكثر من سواها ، وبهذا يفسرون تأثير الكواكب والأفلاك في الناس . ولعلّ في هذا بعض ما يفسّر ما يحيط بعالم الكواكب من الأسرار والقدسيّة ، مما يمثله ما ورد في القرآن الكريم من قولـه تعالى : ﴿ **فـلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾[1] .

أما النوع الثالث من الصلات التي تقوم بين الناس فهي صـلات ماديّـة، صلات مصالح ومنافع تتحكم بالناس وتسيّر توجهاتهم وانفعالاتهم وعواطفهم أحياناً . فيتقرّب إنسـان من إنسان لمصلحة له عنده ، أو لطمع فيه ، أو لفائدة مشتـركة بينهمـا . وقد تزداد هذه الفائدة وهذه المصالح فتصير « صداقة » أو « إلفـة » و « محبة » ، وعـلاقة نفسية ، ولكنها تبقى علاقة نفسية ضعيفة إذ أن هذه العلاقة سـرعان ما تنقطع بانقطاع المصلحة القائمة بين اثنين وزوالها .

هذه الأنواع الثـلاثة من العـلاقات التي تـربط بين الناس تتفـاعل فيمـا بينها ، فيأتلف بعضها مع بعض فتقوى بالتآلف ، أو تختلف فيؤثر الاختلاف فيها ويضعفها . وكلما كانت هذه الصلات قوية كان تأثرها بالاختلاف أقل ، وكلما كانت ضعيفة كان تأثرها أكبر ، بحيث تنقطع أحياناً لأقل اختـلاف ، وتبقى قائمـة أحيانـاً أخرى مهمـا اعترتها المصاعب ،ولعـبت بهـا ريـاح المطامـع والمصالـح الشخصية . وعلى هـذا الأساس يمكن تفسير قوة العلاقة أو ضعفها حتى بين الأهل : بين الأب وابنه ، والأخ وأخيه ، والقريب وقريبه . . . وأكثر ما يتلف هـذه العلاقـات بين الأهل هـو الأطماع والرغبات المادية . وهذا قد يؤدي إلى حالة الود المفقود التي ذكرتها يا بني . وهذه الحالات من الود المفقود تكون الأصعب والأكثر حدة بين الأهل والأخوة ، ذلك أنها تأتي على خلاف المنتظر من العلاقات بين الأهل وخلاف الوضع الطبيعي في العائلة الواحدة أو القبيلة الواحدة . وقد تكون عداوات قديمة موروثة أو مفاهيم قبلية وعائلية

---

(١) سورة الواقعة ، الأيتان : (٧٥ و ٧٦) .

أو سوء تصرف أو سوء تربية . . . وراء هذه الأمور . ولكون هذه العلاقات ـ علاقات العداوة بين الأهل ـ هي على خلاف المنتظر فإنها هي الملفتة للنظر ، حتى صار شائعاً بين الناس أن أشد هذه العداوة ما كان بين الأقارب ، وقد اختصروا ذلك في أقوال جرت أمثلة منها : الأقارب عقارب ، بمعنى أنهم « يلدغون » بعضهم بعضاً ، وهذا « اللدغ » مؤلم وصعب .

- وكيف نفسّر يا جد حدَّة العداوة بين الأهل ، فترى أشد العداوات تلك التي تقوم بين الأخوة مثلاً ، والأشد فتكاً والأكثر إيلاماً والأعنف والأقسى . . . إذا كانت العلاقات الأساسية في نظرك والأقوى هي التي تقوم على أساس رابطة الدم ؟

● إذا قامت عداوة بين ذوي القربى كانت الأشد والأقوى ، كما تكون صلات القربى بينهم أشد وأقوى وذلك لأكثر من سبب يأتي في أولها عامل نفسي يتمثل بنوع من الغيرة والمنافسة التي تقوم بين الأقارب ، سببها رغبة الإنسان في البروز ، وفي أن يظهر أمام الآخرين بالمظهر الأفضل . يذكيها ما عند الإنسان من نزوع نحو السيادة والسيطرة والبروز ، وفي هذا البروز محاولة إخضاع للآخرين تأباه النفس وترفضه في الأساس ، ذلك أن الله تعالى قد خلق الناس أحراراً متساوين ، لا يعبدون غير الله ، متكافئين في ما بينهم ، ولا يفضل أحدهم أحداً . يزاد على ذلك أن محاولة السيطرة من قبل قريب على الآخرين تلقى رفضاً وتمنعاً لسببين : أحدهما شعور الناس الذي يجمع بينهم نسب واحد بنوع من المساواة أساسه الانتساب إلى جد واحد . هذا الانتساب إلى أصل واحد تذوب أمامه كل الاعتبارات في تقدم إنسان على إنسان ولا يقرون بها وإن وجدت . وهذه المساواة تجعل أحدهما يأبى أن يخضع لمن هو مثله ، في حين أن يخضع لمن هو أعلى منه درجة وبهذا يفسر خضوع جماعة لواحد منها إذا رأت فيه ما يمتاز به وينقص عندها . أما السبب الثاني فهو أن صلات القربى ترتّب للواحد حقوقاً عند الآخرين ، وبصورة خاصة إذا كان هؤلاء الآخرون أقوى قوة ماديّة أو معنوية من باب أن الأقربين أولى بالمعروف ، وأن من كان ذا فضل وبخل بفضله على غيره استغنوا عنه . على نحو ما قال الشاعر :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

وتكون مسؤولية « القوي » بذلك أكبر ، ويكون الحقد عليه والانتقاد أشد . ذلك أننا لا نشعر مع « القوي » الغريب بمثل هذا الشعور « لغربته » وبعده عنا ، وإذا تضاربت المصالح ، واشتدت الخلافات ، تفجرت هذه النزاعات حروباً دامية فتّاكة لما يخالطها من الحقد ، ويمدها من العاطفة ـ عاطفة التنافس والمزاحمة ، ومن معرفة كل طرف بالطرف الآخر وخباياه وخفايا نفسه ونقاط ضعفه وقوته . . . ما قد لا يعرفه عدو بعيد . وقد كانت كل الحروب بين الأخوة في التاريخ ، كانت الأشد والأقسى والأكثر مرارة وفتكاً . ولا ننسى ـ برغم أن هذا شائع بين الناس ـ أنه وهم نقع فيه أحياناً ، تذكيه عوامل نفسية وفكرية معينة ، فلا تكون الحرب بين الأخوة في الأساس على هذا المقدار من الفتك والشدة ، بل إن رفضنا لتقاتل الأخوة في الأساس ، واستعظامنا أن يؤذي الأخ أخاه ، وانتظارنا لعلاقات محبة طيبة ومتينة بين الأخوة . . . كل ذلك يجعلنا نستعظم الأمور ونستهولها ، في حين أننا لو قابلناها بما يمكن أن يحصل في حرب مشابهة بين الأعداء لوجدنا الحرب بين الأخوة أقل ضراوة ، وأقل فتكاً وضرراً . ولا تنس أن للمجتمع مصلحة في هذا التهويل وهذه الأفكار ، وأن إنكار الاقتتال بين الأخوة علامة صحة في الفكر المجتمعي ، ودليل أن هنالك قيماً في المجتمع ما زالت تؤثر في الناس وتوجه تفكيرهم . ويبقى المبدأ أن العلاقة بين الأخوة يجب أن تكون في أفضل حالاتها .

ـ ولكن هذا الاقتتال بين الأخوة قديم .

● بلى يا بني ، وقد بدأت من أول الخليقة ، وقصة قابيل وهابيل معروفة ، وكانت الحال بينهما تنافساً على المنصب الأرفع والمكانة الفضلى عند الله ، وقد بلغ الأمر بأحدهما أن يظن أن لا وسيلة لديه للوصول إلى ما يريد إلاَّ بالقضاء على خصمه ففعل . يذكي هذا الشعور عنده غيرة وحسد وأنانية ، وهذه كلها من المشاعر الدنيا في الإنسان وهي في أساسها ثمرة صراع الخير والشر ، والنور والظلام ، والإيمان والكفر . . . وهي باقية في الإنسان ما دام الإنسان ، وبين الناس كل يوم قابيل وهابيل ما دام نور وظلام ، وكفر وإيمان ، وشر وخير .

ـ ألا ترى معي يا جد أن كل علاقة تقوم بين اثنين ترتب عليهما أعباء وقيوداً تقيد حريتهما فلا يستطيع الإنسان أن يتصرف بملء حريته وإرادته في موضوع ما ،

سواء أكان الموضوع المطروح إيجابياً أو سلبياً ، حتى صارت كل علاقة قيداً للإنسان ، فعاطفتك تجاه أخيك وأمك وأبيك وأولادك وزوجتك وأهلك وأصدقائك . . . كلها قيود تكبلك وقد تمنعك عن القيام بواجباتك أحياناً .

● يا بني العلاقات التي تربط الإنسان بأهله من نوعين، ومحدودة بحدود الحق والخير . أما نوعها الأول فهو العلاقات التي فيها تعاون على الخير وتؤدي إلى قيام صلات طيبة وعلاقات وثيقة بين الناس ، فيتحابون ويتآلفون ويتعاونون ويتساعدون ، فلا يعود بينهم فقير ولا ضعيف ويقيلون عثرات بعضهم بعضاً ، ويتكاتفون أمام الصعاب . . . وكل هذه المواقف الإيجابية ترتب على الإنسان أعباء مادية ونفسية ، مالية ومعنوية ، وقد تثقل كاهل الإنسان ، وتحد من حريته ، وتمنعه من التمتع بماله كما يشاء ، وتمنعه من التمادي في عواطفه ومشاعره ومواقفه . . . ولكن هذه المسؤوليات والأعباء لا يمكن أن تعتبر قيوداً لأن الإنسان يلجأ إليها بنفسه وطوع إرادته ، لا يجبره عليها أحد ، ولا يفرض عليه الناس هذه العلاقات ، بل على العكس فإنها تلبي ـ أحياناً كثيرة ـ حاجة من حاجات نفسه ، فيشعر معها بسعادة عظيمة ، وراحة نفسية ، كما تؤدي إلى قيام علاقات منتظمة خيِّرة بين الناس ، وتسهم في بناء المجتمع الفاضل المتكامل ، ولما كان هذا تأثيرها وهذه صفتها ، فإنها لا يمكن أن تكون قيوداً تكبل الإنسان ذلك لما في القيد من الإكراه والأذية والألم والقهر والظلم . وفي نوعها الثاني هي العلاقات التي تقوم بين الأهل في نوع من التكتل والتآلف القائمة على أساس عصبي قد يتملك الإنسان أحياناً ، ويسيطر على كل أعماله وتصرفاته ، ويوقع الإنسان أسير الأهواء والعواطف وكثيراً ما يدفعه إلى تغليب العاطفة ـ عاطفة القرابة ـ على الحق والواجب والخير . وبهذا فإن هذه العلاقات قد تكون قيوداً تكبّل الإنسان ، وتنحرف به عن جادة الصواب .

ـ كلها قيود يا جد ، في حدودها السلبية والإيجابية ، بحيث أن الإنسان يجد نفسه أسير كل شيء حتى ما تعتبره يؤدي إلى قيام علاقات طيبة بين الناس فتمنعه من التصرف بحرية تامة ، بل هو يتصرف تحت تأثير هذه المفاهيم والعلاقات . وحتى الصفات الطيبة في الإنسان فإنها تحد من حريته ، وكذلك اسمه وأخلاقه وسجاياه فمن كان اسمه « كريماً » مثلاً ، يرى عاراً عليه أن لا يحقق معنى الاسم في ذاته .

ومن كان « أسداً » أو « نمراً » أو « فهداً » تأبى له كرامته أن لا تكتمل ذاته بما يفرضه عليه الاسم ، فصار اسمه قيداً له ، وهذا القيد قد لا يكون له فكاك منه ، كما صارت صلاته بأهله وعلاقات الود والشفقة . . . قيوداً تكبله .

● إن فكرة القيد التي تتملكك وتسيطر على تفكيرك يا بني هي قيد فكري يكبلك دون سواك ، ويأبى هذا القيد الفكاك عنك ، أو كأنك استعذبت هذا القيد فعز عليك التخلي عنه ، فما تزال تذكره ولا تريد أن تنساه . الواقع يا بني أن لا قيد مطلقاً يقيّد الإنسان ، بل هو حرٌّ حريّة تامة وبخاصة في صلة الناس بعضهم ببعض . ذلك أن الحريّة تنعدم في حال وجود ضغوط تجبر الإنسان على القيام بعمل معيّن أو تمنعه عن القيام بعمل معيّن . ولما كانت هذه القوة الضاغطة المؤثرة غير موجودة ، وبما أن الإنسان يستطيع أن يفعل ما يشاء وما هو مقتنع به إذن فهو حرّ . وإن كنت لا أنكر بوجود خيوط خفيفة تشد الإنسان باتجاه أو بآخر ، وتختلف تأثيراتها فيه ، إلَّا أنها أضعف من أن تكون ـ كلاً بمفرده ـ قادرة على التحكم فيه ، وإن كانت في تجمّعها وتآلفها قادرة على التأثير دون أن تكون حاسمة في ذلك . ومن هذه الخيوط فكرة تأثير الاسم في صاحبه . ففي الحديث الشريف يا بني ، أن « **لكل امرىء ، من اسمه نصيب** » . وهذا مصداق ما تقول . ولكن الذي تقوله يصح في جانب منه وتبقى جوانب ، وإن تحققت في ذات الإنسان إلاَّ أنها لا يكون تحقيقها بسعي من صاحب الاسم . فكم من « فهيم » لا يستطيع أن يكون له من الفهم شيء . ولا يكون له يد في ذلك إلَّا إذا كان للاسم علاقة ـ من بعض الوجوه ـ بقضاء الله وقدره وتأثير ذلك على الإنسان ، أو أن يكون ترجمة لهذا القضاء والقدر . وكم من « ذكي » لا تقوم بينه وبين الذكاء أية روابط أو أي نسب . . . كما أن الإنسان الذي يسعى لتحقيق معنى الاسم الذي يحمله في نفسه هو إنسان ذو إحساس مرهف ، وهو إنسان صادق مع نفسه ، وعلى مقدار من الفهم والقدرة على ربط المفاهيم بعضها ببعض . ومثل هذا الإنسان قليل وجوده في المجتمع إن لم نقل نادر وجوده ، إذ أني ما رأيت في حياتي كلها من يفكر مثل هذا التفكير ، وقليلاً ما رأيت إنساناً تحقق فيه معنى الاسم الذي يحمله ، بل العكس كثير يا بني . أما ما نجده من صفات كريمة في الناس أو بعض الناس من مثل الكرم الذي يأبى على صاحبه أن يرد سائلاً ، والصدق الذي يأبى عليه

أن يكون كاذباً ، والرحمة التي تأبى عليه أن يكون قاسي القلب والإيمان الذي يأبى عليه أن يظلم . . . فهذه قيود ـ إذا أردت أن تسميها كذلك ـ ولكنها تقيّد الشر فيه ، وتلجم القبائح وتقصر الغرائز والميول الحيوانية والنزوات . . . وبهذا فإنها لا تعود قيوداً لفعلها الإيجابي وتحقيقها للغاية الأساسية التي أرادها الله تعالى في خلق الإنسان الأمثل . وتسميتها بالقيد تصح شكلاً ، وإن كانت في الأساس لا تصح . وهي تمثل نزعة في الإنسان إلى الخير . وهذا النزوع إلى الخير ـ كنزعة الشر ـ سجيّة في الإنسان ، وإن كان الشر أقوى . ورحم الله المتنبي الذي أدرك مثل هذا المعنى فقال يمدح سيف الدولة الحمداني :

وقيدت نفسي في ذراك محبّة ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا

ـ إلاّ أن علاقة الإنسان بأهله وذوي قرابته تبقى قيداً يقيّده طيلة حياته ، ويسهم المجتمع والمفاهيم الاجتماعية في تكبيل الإنسان بقيود هذه العلاقات العائلية . فالخير الذي فيك يجب أن ينال أهلك وذوي قرابتك ، وإن كانوا غير أهل كذلك ، وإلاّ فأنت في نظر الناس لا تحفظ القرابة وصلات الرحم ومن كان لا خير فيه لذوي قرباه فلا خير فيه للناس . وقد لا يكون ذوو قرباك أهلاً لأن ينالهم خيرك وودك ، وقد يكون بينهم من هو منافق وكاذب ، وقد يكون بينهم من يستحق العقاب بدل الشفقة والرحمة . . . وتحول القرابة بينك وبين أن تنزل به من العقاب ما يستحق .

● إنه موضوع على مقدار كبير من الأهمية تثيره هنا يا بني ، ولكن يجب أن تعلم يا ولدي أن هناك فرقاً بين العصبية والقرابة فالعصبية في معناها الشائع في أذهان العامة قرابة الدم التي تشدك إلى إنسان آخر ، فتؤازره وتعاضده وتناصره في كل الأحوال ، وتؤيده على الشر وتسير معه في طريقه ، وتتورط من أجله في الآثام والمعاصي . ومثل هذا المعنى غير وارد في الإسلام . حتى العصبية ، ألم تسمع بقول الرسول الأعظم ﷺ عندما قال : « **انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً** » . وعندما سئل : وكيف ننصره ظالماً ؟ أجاب : « **بردعه عن الظلم** » . فصارت النصرة محدودة ، وحدودها الخير فلا تتداخل مع الظلم وتقف عنده والردع لا يعني المسايرة ، بل يعني أحياناً الوقوف في وجه الظالم حتى لو كان أخاك . وإذا كان الردع

عن الظلم يقتضي ضغطاً وشدة وقوة وتعزيزاً ـ وكانت لك قدرة على ذلك ـ فأنت مندوب إليها . وصارت القرابة عصبية ولكنها قائمة على التعاون بما فيه الخير ، والشفقة والرحمة والاهتمام بالآخرين وإقالة عثراتهم ، وتحميلك مسؤولية ـ أنت الأقوى ـ تجاه الضعيف الذي لا يملك مثل قوتك ، والفقير الذي لا يملك مثل مالك ـ وأنت الغني ـ وصاحب الحاجة وأنت قادر على قضائها . وفي هذا ما يقيم بين الناس علاقات حسنة تنطلق من رابطة الدم وتقويها المعاملة والتعاضد والتوافق على الخير ، وليس على الشر . أما هذا الشر فإنه يُسقط عن الإنسان كل حق بالحماية والرعاية والمساعدة ، مهما كانت درجة قرابته منك ، وهي سُنَّة سنّها رسول الله تعالى في مناسبة مشهورة عندما قال ﷺ : « **لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها** » . ومما يجعل الإنسان محدداً بحدود القانون والشريعة التي يخضع لها الجميع ، ولا يمكن للقرابة مهما كانت درجتها أن تحل محل الحق والقانون والشريعة . فتقام الحدود على المذنب مهمن كان . وبهذا صارت القرابة بين إنسان وإنسان محكومة بشرطين . أولهما ـ الإيمان : فلا ينال الرعاية والعطف والحنان و . . ولا يستحق أن نبرّ به ونساعده إلاّ الإنسان المؤمن . ذلك أن الملحد أو الكافر أو الذي لا إيمان له والمهرتق والمستهتر . . . كل هؤلاء جماعة لا تقوم بين المؤمن وبينهم رابطة أو قرابة ، حتى قرابة الدم تنقطع مع الكفر والإلحاد وعدم الإيمان . فهذا رسول الله ﷺ يلقى الأذى أول ما يلقاه من أعمامه ، وهذا رسول الله ﷺ « يبشّر » أبا لهب وزوجته بالنار . وبأمر الله تعالى نوحاً عندما تشفّع لديه بابنه فيقول له : ﴿ **إنه ليس من أهلك** ﴾[1] . وهذا إبراهيم عليه السلام يتبرأ من أبيه لما تبين له أنه عدو لله[2] بعد أن صمم على الكفر واستمر عليه . وبعد أن دعاه ابنه إبراهيم إلى عبادة الله والإيمان به وصار اختلاف العلاقة بين اثنين بين الكفر والإيمان مما يقطع صلات النسب بينهما وكل ما يترتب على هذه الصلات ومنها الإرث والزواج مثلاً . وفي « القرآن الكريم » مصداق ذلك كما ورد في سورة الممتحنة ، الآية : (٣) من قوله تعالى : ﴿ . . . **فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا**

---

(١) سورة هود ، الآية : (٤٦) .

(٢) سورة التوبة ، الآية : (١١٤) .

ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر . . . ﴾[1] وثاني الشروط التي تقيم القرابة وتوثقها أن يكون فيها « القريب » غير مرتكب للآثام والذنوب . وفي حال ارتكابه للآثام فإن رعايتنا له تقتضي أن نساعده للتخلص من الآثام التي ارتكبها ، دون أن تشكل القرابة حماية له يتستر بها وتحميه وتقويه وتشجعه على سلوك درب الآثام والخطيئة . وقد حددت الشريعة العلاقة بين الناس بصورة عامّة ، فجعلت الإنسان مسؤولاً بصورة شخصية ومباشرة عن كل عمل يقوم به ودون أن يحمل أوزار هذا العمل أي شخص آخر ؛ فمبدأ : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[2] ومبدأ : ولا يحمل إنسان مسؤولية إنسان آخر ولو كان ذا قربى ﴿ **لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى** ﴾[3] ومبدأ : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه** ﴾[4] ومبدأ : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى** ﴾[5] ومما يحلل ذوي القربى من أقربائهم غير المؤمنين والمذنبين ، وتستطيع ـ ويجب أن تفعل ـ أن تتصرف بهذا الموضوع بنوع من الثقة والطمأنينة ، فتتنصّل من المجرمين وتتبرأ منهم ، وتساعد الضعفاء القاصرين ومن تجد فيهم خيراً وتمكن هدايتهم والعودة بهم إلى طريق الصواب .

هذه المباديء التي تحكم العلاقة بين الناس بصورة عامة وتحكم العلاقة بين الأقارب أيضاً تحلك من كل قيد تقيدك به القرابة ، وتحررك من كل ارتباط فتعود طليقاً ولا قيود في يديك .

الشريعة والواقع :

ـ كلها أقوال مثالية في منتهى الروعة والعظمة ، أحس وأنا أسمعها منك نوعاً من الطمأنينة تثلج صدري وتقر لها عيني . ولكنها في مثاليتها أبعد ما تكون عن

---

(١) سورة الممتحنة ، الآية : (١٠) .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : (١٦٤) .

(٣) سورة المائدة ، الآية : (١٠٦) .

(٤) سورة عبس ، الآيات : (٣٣ ـ ٣٥) .

(٥) سورة فاطر ، الآية : (١٨) .

الواقع ، فما نجده في حياتنا غير كل ما تقول إذ تبقى العصبية سيّدة المواقف كلها ، وتبقى القرابة أول محرك للصلات بين الناس ويأتي الإيمان في الدرجة الأخيرة . هذا إذا كان الناس يحسبون حساباً للإيمان ، وإذا كان الناس يميزون بين أنواع من القرابة فيجعلون علاقة القرابة بين الإنسان وأعمامه أشد وأقوى وأولى بالرعاية من قرابة الأخوال مثلاً ، وتؤكد الشريعة ذلك في بعض الأحيان ، وتفرض على الإنسان نوعاً من قيود لا يستطيع الفكاك منها . وهذه القيود التي أحكمت الشريعة تقييده بها تنتقص من حرية الإنسان فلا يستطيع أن يوصي مثلاً إلاَّ بمقدار من أمواله ، وتفرض الإرث عليه فرضاً لإنسان قد يكرهه ، ولو كانت له إرادة ما بعدم توريثه ، وتجعل الورثة طبقات إحداها أوْلى من الأخرى . . . حتى صار الأعمام يشعرون بالعصبة ويعملون بها ويتباهون ويعتمدونها لتحقيق مآربهم وغاياتهم . ويتنكر الأخوال للقرابة أحياناً فلا يعترفون بها لأنها تأتيهم عن طريق الأم ، وهذه في نظرهم قرابة لا خير فيها . . .

● يجب أن نميز يا قُرَّة العين بين الشريعة والواقع . أو بين الشريعة والعادات والتقاليد والأعراف الاجتماعية . فالشريعة ـ يا بني ـ هي القانون الإلهي العادل الذي أراد الله تعالى أن يحكم البشر وينظم أمورهم وقضاياهم . فحددت هذه الشريعة قضايا وأصولاً وحددت علاقات وأولويات في جميع القاضايا ، ومنها القضايا التي ذكرت ، كل ذلك بمقتضى القانون العام والواقع الذي يعيشه الإنسان ويتناسب مع تركيبه النفسي والاجتماعي ، وبما يحفظ الانتظام العام للمجتمع على ضوء التنظيم الاجتماعي الذي أقرته الشريعة ، وحددت فيه مسؤوليات وواجبات وفرضت في المقابل فروضاً على من أعطتهم الحقوق وقدمتهم على سواهم . كما أنها عينت البدائل في حال شغورٍ ، أو فساد وضعٍ من الأوضاع ، وأعطت صلاحيات محددة لأولي الأمر في الاختيار والتعيين والعزل والتبديل والتفضيل والزيادة والنقصان . . . بمقتضى أحوال طارئة تجعل المبادىء العامة إن طبقت في غير محلها ، ولا تلبي الحاجة . مما جاء ضد رغبات الإنسان الخاصة وحاولت الشريعة أن تعالجه في مواقف متعددة وتروض الإنسان على قبوله والعمل بمقتضاه . وقد ورد ذلك في أماكن متعددة . فقال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة**

أعين ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾[2] . مما يجعل الشريعة موضوعة لا بمقتضى ما درج عليه الناس ، وإنما بمقتضى الإرادة الإلهية التي تعلم الغيب وتدبر الأمر بما فيه مصلحة الإنسان ، وهذه المصلحة قد لا يفهمها الإنسان الذي يفكر بما جرت عليه العادة في مجتمعه ، أو بما تمليه عليه رغباته الخاصة وأهواؤه .

أما الواقع الذي يعيشه الناس يا بني فهو ـ في أغلب الأحيان غير الشريعة ، أو هو الشريعة وقد دخلتها عادات وتقاليد ومفاهيم ليست منها في الأصل ، وتكفل الزمن بأن يبني من رسوبات العادات والتقاليد حواجز تفصل بين الأفهام والحقيقة ، فعاش كثير من الناس في جو عادات وتقاليد مصبوغة بصبغة شرعية . . . وصار من الصعب علينا ـ في بعض الحالات ـ وهي غير قليلة ، أن نعرف كيف نميز بين الاثنين أو أن نفصل بينهما في أذهان العامّة . وعاش العامّة واقعاً جعلوا معه من العادات والتقاليد شريعة ، وصار كل ما يشيع بين الناس من عادات ، قد تكون شنيعة أحياناً ، بمثابة الشريعة ، وصار من الصعب تبديلها أو تغييرها ، لأنها تلاقي هوى في نفس الإنسان ، أو تستجيب لرغبات دفينة فيه . وصار علينا أن نميز بين « شريعتين » : الشريعة الشريعة بمقدساتها ومنطوقها التي لا يصعب الاستدلال عليها ، ولها أربابها وطرقها ووسائلها وحدودها وقوانينها . . . وأصولها الثابتة في مصادر الشريعة الأساسية ، ويمكن الاهتداء إلى ذلك لمن أراد الهداية ولا يتطلب ذلك من الإنسان إلّا عقلاً مستنيراً وفهماً وعدم تعنت ورغبة في كشف الحقيقة والبحث عن اليقين . . . وشريعة المجتمع وعامة الناس ، وهذه شريعة في جانب منها أهواء ورغائب وأفكار وأقوال شائعة ، وممارسات شعبية وعادات وتقاليد اجتماعية . وهذه الثانية يجب أن نقف منها موقفاً حذراً ولا نخضع لها . وللتفريق بين الشريعتين وجب على الإنسان فهم الشريعة من مصادرها ، وقياس ما شاع في المجتمع على العلم الصحيح ، وبهذا يحصّن الإنسان نفسه فلا يهوي ولا يضيع في متاهات اجتماعية ومفاهيم خاطئة وشرائع البشر التي ما أنزل الله بها من سلطان . وكل الذي ذكرت يا بني من بعض

---

(١) سورة السجدة ، الآية : (١٧) .

(٢) سورة النساء ، الآية : (١١) .

مفاهيم خاطئة كالنظرة إلى قرابة الأخوال والأعمام مثلاً لا تكـون إلا بوحي من واقـع اجتماعي ذي مفاهيم خاطئة أو بدوافع عصبية أو نفسية غير منطقيـة ولا شرعيـة . . . وكل ذلك يطرح فكرة الإيمان التي تجعل الإنسان المؤمن هو ذلك الذي يتقي الله في كل أقواله وأفعاله ، غايته فهم الأمور على حقيقتها ، ويتورع عن الباطل ولا يـأتيه ، ويتواضع في كل أعماله وأفعاله ، ويعامل الناس بأخوة وصفاء ومودّة ، ويخشى الله فلا يـرتكب أي إثم أو أية خـطيئـة ، ويكـون حيّ الضميـر ، يـردعـه ضميـره عن إتيـان الشر . . . وهذا الإنسان المؤمن بهذه المواصفات قليل وجوده . وقد خبّرنا الله تعالى عـن ذلك بقوله : ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾[2] .

ـ وكيف يمكن أن يكـون الفهم الصحيح للشـريعة ، وكـل إنسان يـدعي أنـه الأفهم ، وأن أقواله هي الصحيحة ، وآراءه هي القول الفصل ، وقد يصل به الأمر إلى حد اتهام الآخرين ، وحتى إلى تكفيرهم . وقد يفعل الآخرون ذلك فيكفرونه ، حتى قامت الحروب بين أصحاب الشريعة الواحدة ، وارتكبت الجرائم بـاسم الشريعـة ، وضـاعت الحقيقة وضـاعت الشريعـة معها . وإذا نـظرنا إلى التـاريخ وجـدناه مليئـاً بـالاضطهـادات والتنكيل والحـروب والتـدميـر والتخـريب والانتهـاكـات للكثيـر من المقدسات ، وصرنا نرى في الالتزام بالشريعة قيوداً تكبلنا ، وصرنـا نتساءل : وأيـة شريعة نتبع ؟ وما هو درب الخلاص ؟ وكيف لنا أن نأخذ الشريعة عن إنسان قد يكون مشبوهاً ، ونحن لا نملك القدرة على كشفه ؟!

● يجب أن تؤخذ الشريعة يا بني مستقلة عن العاملين بها ، فتؤخذ من مصادرها ومن أصحابها الذين حملوها للنـاس . أما النـاس فهم في الشريعـة سواء ! وأمـامها سواء . وحديثنا وإن كان يتناول في هذا المجال فئة العلماء من أصحاب الشريعة دون العامة . فإن هؤلاء العلماء بشر ، وككل البشـر ، فهم معرضـون للوقوع في الشبهـة والغلط ، أما أصحاب الشريعة وهم الأنبياء والأوصياء فقد طهّرهم الله تعالى وعصمهم

---

(١) سورة يوسف ، الآية : (١٠٣) .
(٢) سورة عبس ، الآية : (١٧) .

عن كل خطأ ، مما جعل الشريعة ـ بهذه العصمة ـ في أمان وبعيدة عن كل عيب ، كما أرادها الله تعالى ، وعقلياً لا يمكن أن يكون الأمر إلاَّ كذلك ، لأنه لو تركت الشريعة للناس بما عندهم من أهواء قد تستبد بهم ، فإن في ذلك ما يعرضها للانحراف عن مسارها الصحيح . أما العلماء يا بني ، فقد حفل التاريخ بأسماء عديدة لنجوم ساطعة في عالم المعرفة ، وأقمار منيرة في عالم التقى والزهد والورع ، وقد أسدوا للشريعة خدمات جليلة بما قدموه من أبحاث ودراسات، وما كانت لهم من شروح وتحاليل وفتاوى تستند في أساسها إلى المصادر الشرعية الثابتة فتنطلق منها ولا تخالفها ، وعلى ضوئها تنظر في الأمور ، بما آتى الله تعالى أصحابها من عقول نيّرة ، وصفاء ذهن وصفاء نفس ، وبما كان عندهم من زهد وإيمان وتقوى ، قرّبهم من الحقيقة وأبعدهم عن الخطأ فكانوا عباد الله الصالحين الذين لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ولا يقولون إلاَّ الحق ، ولا يشهدون إلاَّ بالصدق ولو كان على أنفسهم ، ويحكمون بما أنزل الله ولو كان المحكوم عليه ذا قربى ، ويفتون بما يعرفون في تواضع عظيم ، وفي هيبة ورهبة وخشوع وعدم ادعاء ، وروح علمية رائدها الحقيقة ، ويبقى هاجسهم الوحيد أن يلامسوا الحقيقة ، فتأتي فتاواهم وآراؤهم على اسم الله ، وفي طلب رضا الله تعالى وتأييده وتسديده ، وتنتهي في تواضع عظيم : . . . والله أعلم . دونما ادعاء ولا تبجح ولا مغالاة . هؤلاء الأعلام يا بني رجال الله ، وفي الحديث الشريف : « **إن لله رجالاً إذا أرادوا أراد** » . وهؤلاء هم عباد الله المخلصون ، وهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهؤلاء منارات الهداية ، وقد ارتفعوا فوق المستوى العادي للناس العاديين وهم ممن رحم الله وهدى ونالتهم رعايته وعنايته .

وإلى جانب هؤلاء يا بني أناس ما بلغوا مبلغ العلماء ، ولا هم حصلوا من العلم على ما يكفيهم مؤونة وعُدَّة ، ولا حصل لهم من الزاد الروحي والنفسي والتقوى ما يكفي ، فوقعوا في شبهات . وأنت تعلم يا بني أن من وقع في شبهة عن جهل فإن الله تعالى يغفر له لحسن النية وعدم المعرفة . وأما من كان سيىء النيّة ، عارفاً بالشر قاصداً إليه ، فأولئك سوف يحمّلون مسؤولية أعمالهم . وقد شجّع الله تعالى ـ على لسان نبيّه عليه الصلاة والسلام ـ هؤلاء الجماعات الأتقياء على النظر في الأمور

والفتوى بما فيه مصلحة الأمة وحفظ حقوق الناس ، وإقامة الشعائر وحفظ الشريعة ، وتثبيت إرادة الله تعالى في الخليقة . . . وحيث قال ﷺ : « **من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد** » . وهذا المخطيء مأجور لأن خطأه لم يكن بنية سيئة ، ولا بقصد الشر ، وإنما كان يقصد منه الخير والمصلحة العامة . . . كما هدّد المتلاعبين بالشريعة ﴿ **الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾[1] ، والذين ﴿ **يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾[2] هددهم بالعقاب الأليم ، وسوء المصير . وقد تأتي على الناس أجيال وفترات يسيطر فيها الجهل ، ويكثر فيها المتلاعبون ، وتكاد أن تضيع بعض المعالم لولا أن الله تعالى ﴿ **لا يرضى لعباده الكفر** ﴾[3] ، ويقيّض للأمم رجالاتٍ أخياراً يحفظون الشريعة ويحملونها حتى يسلموها إلى غيرهم ـ بمقتضى الإرادة الإلهية ـ علماً وفضلاً وجهاداً في سبيل الله ، وهم القادرون على فضح المتلاعبين المبدّلين لكلام الله والقاصدين للشر والمسيئين للدين .

أما ما يقوم بين أصحاب الشريعة الواحدة من صراعات دامية أحياناً فأمر مرفوض رفضاً باتاً من منطلق أن ﴿ **المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾[4] ، ومن منطلق إنساني كما في الحديث الشريف : « **الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله** » . فالروح التي يجب أن تسود بين الناس وتحكم تصرفاتهم وتعاملهم هي روح الأخوّة والتفاهم والمحبّة والنفع الاجتماعي والابتعاد عن كل ما من شأنه إفساد الحياة والإضرار بمصالح الناس وقتل الأبرياء لأن ﴿ **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾[5] . وكل اقتتال وتخريب وإفساد في الأرض جريمة ننكرها ـ نحن البشر ـ ويعاقب عليها الله تعالى . ومن هذا المنظار ينظر إلى كل أحداث التاريخ والحروب . وإذا كان مرتكبو

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : (٧٩ و ١٧٤) وآل عمران : (٧٧ و ١٨٧) ولقمان : (٦) .
(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢٧) والرعد : (٢٥) .
(٣) سورة الزمر ، الآية : (٧) .
(٤) سورة الحجرات ، الآية : (١٠) .
(٥) سورة المائدة ، الآية : (٣٢) .

هذه الأحداث وهذه المجازر و « أبطال » هذه الحروب هم في نظر الناس أبطال وعظماء فهم ليسوا كذلك عند الله . وإن كنا نحن كبشر قادرين على اتخاذ موقف منهم وجب علينا اتخاذ مثل هذا الموقف ، ونحن في الأصل مندوبون إلى اتخاذ موقف محدد وعلى درجات مختلفة من القوة والفاعلية ، ولكنه يحدد التزامنا بالحق وإنكارنا للباطل ، وذلك في الحديث : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان** » . فاعتبر اتخاذ المواقف من الظالمين فعل إيمان والنكول عنه قد يكون ذنباً ، إذ لا يعفى الإنسان من اتخاذ المواقف حتى بينه وبين نفسه أو بينه وبين ربه . أما اتخاذ المواقف الحربيّة من جماعة معينة ، ورمي إنسان لإنسان ، أو جماعة لجماعة ، بالكفر فليس أمراً بسيطاً ولا هو سهل ، والبعض يجعله من اختصاص الأنبياء والأوصياء الذين يستطيعون تقدير الأمور ويحكمون فيها على نحو يختلف عن أحكامنا ـ نحن الناس العاديين ـ وإن سُمح لمجتهدينا باتخاذ المواقف وحدّ الحدود وتطبيق الشريعة في بعض القضايا التطبيقية الواضحة دون القضايا العقيدية التي لا يمكن الإحاطة بها من كل جوانبها . وقد أوصانا الله تعالى بعدم التطرف في أحكامنا حيث قال : ﴿ **ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً** ﴾[1] .

أما عمّن يأخذ الإنسان الشريعة فالناس في هذا قسمان : قسم قد مَنَّ الله تعالى عليه بنعمة العلم . وهذا يستطيع أن يميّز الخبيث من الطيب ، وقد يستطيع استنباط الأحكام بنفسه إذا انطلق من المباديء الأساسيّة وكان على مقدار من الفهم للأصول والعلوم . . . ويستطيع بعلمه أن يميّز بين الحق والباطل ، والخير والشر . . . وهذا مسؤول مسؤولية كاملة ، ومندوب إلى البحث والتدقيق والتنقيب وكشف الخبايا . . وعدم الوقوع في الجهل ، وأن لا يؤخذ بخديعة . . . والقسم الثاني هو مقلِّد لا يستطيع استنباط الأحكام ولا النظر فيها وتقييمها ، وليس له إلاّ أن يروي ، ويعمل بما يسمح أو يقال له أو يقرأه . . . وهذا الصنف وإن كان يتحمل مسؤولية جزئية ـ على مقدار فهمه وعلمه ـ فإن مسؤوليته تقع على مشايخه ورؤسائه وأولي الأمر في أمّته

---

(١) سورة النساء ، الآية : (٩٤) .

ومجتمعه وأصحاب الفتوى وحملة الشريعة . . . الذين يكونون مسؤولين أمام الله تعالى عن الموارد التي يوردونه إياها . والطرق التي يسيّرونه فيها . ومن هنا كانت المسؤولية عامّة يتحمّلها كل قادر على حملها ، فأنت ـ وأنا ـ مسؤول عن كل ما يدور حولنا . وإذا كان غيرك مسؤولاً عن جريمة ارتكبها فأنت مسؤول عن السكوت عنها ، وإن كان مسؤولاً عن حق ضاع ، فأنت مسؤول عن إظهار هذا الحق ، وإن كان مسؤولاً عن انتهاك حرمة الشريعة فأنت مسؤول عن حفظها والدفاع عنها ، وإن كان مسؤولاً عن تجاوز حدود الله ، فأنت مسؤول عن إعادة هذه الحدود إلى نصابها ، كما قد تكون مسؤولاً عن وضع حد لتجاوزاته وعدم السكوت عن أفعاله ، لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس ، ولأن من رضي عن عمل قوم فهو شريك فيه . وهذه المسؤولية معنوية أكثر منها مسؤولية ماديّة عملية إلاَّ لمن كان في يده سلطان لإقامة حدود الله . أما في موضوع العقيدة ، فلا يجوز تكفير الناس بعضهم بعضاً ، ولا قتل بعضهم بعضاً لخلاف على عقيدة ، وإن كان الحوار واجباً ، والنقاش والمناظرة مطلوبة ، وفيها جلاء لكل غموض ، ووصول إلى الحقيقة ، وعلى هذا فقد تتعرض الشريعة وأهل الشريعة إلى هزّاتٍ ودواهٍ ونكبات ، ولكن سرعان ما ينجلي الغبار ، وتصفو الماء ، ويذهب الزبد جفاء ، ويمكث ما ينفع الناس في الأرض . ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض** ﴾[1] . هذه المواقف نلجأ إليها نحن الناس العاديين ، ونستمدها مما عندنا من علم ومعرفة ، وإن كان علمنا محدوداً ، ومعرفتنا ضئيلة . ومن العلماء من يرى أن هناك بعض القضايا الهامة ومنها إقامة الحدود ، وبخاصة القتل ، لا يمكن أن يحكم به إنسان عادي ، وتعتبر الحكم به شأناً نبوياً ، أو هو شأن إمام معصوم . أما العالم ـ فمهما بلغ من العلم والمعرفة والفضل ، فلا يستطيع أن يحكم به . وإن كان البعض الآخر يرى أن إقامة الحدود هو تطبيق للشريعة ، ويمكن الحكم به وتنفيذه دون حرج ، إلاَّ أن الخلاف في بعض هذه القضايا يبقى بسيطاً ومحدوداً ، والحكم على فرد ، وإن كان محفوفاً بالمخاطر لما قد يخفى من العلم على الحاكم ، إلاَّ أن الحكم على جماعة بأسرها أمر أخطر .

ـ معذرة يا جد ، فقد أوصلنا الحديث إلى ما لم أكن أريده ولا أنا فكرت

---

(١) سورة الرعد ، الآية : (١٧) .

فيه ، وقد كـان حديثنـا عن علاقـة الناس بعضهم ببعض ، فـإذا بنا أمـام البحث في موضوع الشريعة ، وأظنه جاء في غير موضعه .

● يا بني ، الحياة واحدة ، ومواضيع الحياة واحدة أو هي متصلة كحلقات في سلسلة أو كأجزاء في دائرة ، تقرب إحـداها من الأخـرى فتصير جـزءاً منها ، وثيقـة الصلة بها . . . وتبتعد عنها فلا تكون بينها إلاَّ صلة بعيـدة ، ولكنها تبقى أجـزاء في جسم واحـد وتركيبـة واحدة . وإذا حـاول الناس قسمـة الأشياء وفصلهـا بعضها عن بعض ، فهذه محاولات المقصود منها تسهيل البحث ، وتقسيم الموضوعات وجمعها إلى بعضها الأقرب فالأقرب دون أن تنقطع الصلات بينها . والشريعة هي الموضـوع الأعظم والأهم ، وهي القانـون العام الـذي ينظم كـل العلاقـات ، ويحدد القـوانين ويرعى مسيرة المجتمع في الاتجاه المثالي الذي أراده الله تعالى ، مما جعل كل قضية اجتماعية قضية شرعية ، أو هي تتعلق بالشريعة أو بجانب فيها ، وتطرح موضوعها . وإذا كان البحث يمكن أن يتشعب عندما تطرح فكرة معينة فأمر طبيعي لما أشرنا إليه من ترابط الموضوعات بعضها ببعض وعدم إمكانية الفصل بينها .

* * *

علاقة الإنسان بوالديه :

ـ موضوع يحيّرني يـا جـد ، وهو علاقة الإنسان بوالديه ، بأمّه وأبيه بخاصة ، وبأجداده ـ لأمه وأبيه ـ بصورة عامّة . فكثيراً ما يكون مولد الإنسان من أب معين أو أم معينة هو المشكلة وهو القيد ، وقد يكون من واقع الأب والأم وأوضاعهما وطباعهمـا ورواسب المـاضي ، وإرث العـائلة وحيـاة الأسـر ، وبعض الصـداقـات والمفـاهيم القائمة . . . ما يقع الإنسان فريستـه ، فيقضي عمره مكبـلاً بقيود لا يجـد له فكـاكاً منها .

● في هذا الموضوع يجب أن نميّز يا بني بين أمرين أو بين وضعين للإنسان : وضع الإنسان في ذاتـه ، ووضع الإنسـان في المجتمع وفي العـائلة ، أو في العائلة والمجتمع إذا أردنا الترتيب من حيث التدرج والأهمية . أما وضـع الإنسان في ذاتـه ففي رأيي يأتي بعد وضع الإنسان في العائلة ، فلا يعود الفرد هو أساس المجتمع أو أساس الخليقة ، بل العائلة . ذلك أن الإنسان فرداً لا يستطيع أن ينشيء عائلة ، ولا

يستطيع أن يلد إنساناً آخر ، وتوالد الناس واستمرار الحياة يكون في العائلة ، وأركان العائلة أب وأم ، ومن أعضائها أولاد وأجداد ، ثم أحفاد . . . وهؤلاء الأولاد والأحفاد هم خميرة الحياة وبذورها ، والأب والأم والأجداد هم الأصول وشجرة لا تعيش أصلاً بدون فروع ، ولا فرعاً بدون أصل بل هي شجرة متكاملة بجذورها وجذوعها وأعضائها وأوراقها وأزهارها وثمارها وبذورها . . . وعلى هذا صارت المحافظة على الأصل والفرع معاً بنفس المقدار من الوجوب ، وإن كان كل منهما يمثل طرفاً في خط الزمان ، الآباء في أوله والأبناء في آخره ، والآباء في الوراء ، والأبناء في الأمام . ذلك أن مسيرة الحياة تسير باتجاه محدد لا يتغيّر ، دون أن يضير موقع الإنسان في شيء ، ودون أن يفقده أهميته ومكانته في الحياة، وإذا نحن نظرنا إلى الحياة وجدنا الآباء يمثلون قاعدة البنيان التي عليها المعوّل في هذا البنيان ، وعليها تقع كل الأثقال . وإذا نحن حاولنا أن نجري عملية حسابيّة بسيطة بالأرقام للأثقال التي تحملها القاعدة لتبين لنا أنها أثقال هائلة تتعاظم مع الوقت ، وتزاد عليها أثقال كثيرة لا تدخل في الحسبان . هذه الأثقال الماديّة المتمثلة بأوزان معروفة يمكن قياسها وتقديرها ، أما بالنسبة للوالدين فإنهما يحملان أيضاً ـ في تربية الأولاد وحمل أثقال العائلة ـ أثقالاً أخرى لا ترى بالعين ، وإنما يحسها الإنسان بقلبه ، ويدركها بعقله ، وقد تكون كبيرة جداً أكبر وأثقل من كل وزن آخر ، هذه الأثقال التي يحملها الأهل ـ معنويّة وماديّة ـ جعلت للوالدين مكانة ممتازة في العائلة ومقاماً رفيعاً في قلوب من يقدر الواقع ويفهم الحقيقة ، ويعرف ما يتحمله الأهل في سبيل الأولاد . ومن هذا المنطلق فقد جعلت الشريعة للوالدين مكانة رفيعة ، وأرادت أن تكرس المكانة العظيمة بنصوص تحفظ للوالدين حقهما على العائلة وذلك في مقابل ما يمتاز به الإنسان الفرد من أنانية ونسيان وقلة وفاء ، وسوء تقدير وتحلل من الواجبات . . . فنصت الشريعة الإلهية ـ في مواطن متعددة على مكانة الوالدين ، وحرّمت على الأولاد التأفف والتضجر من الوالدين ﴿**ولا تقل لهما أفٍ**﴾[1] ، وطالبتهم بكل معاملة حسنة ورأفة وحنان وشفقة في حق الوالدين ، وخصّت الأم منهما بمكانة مميّزة لما تقدمه من خدمات للأولاد لا يقدم الأب مثلها ، وقد يعجز عن ذلك ، ولما تفني

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٢٣) .

نفسها في سبيل أولادها فتذبل وتتلف في سبيلهم .

هذا الواقع في العلاقة بين الأهل والأولاد هو الأساس وإن كانت تشوب هذه العلاقة أحياناً بعض الشوائب تتعلق بالأب أو بالأم . وإذا نحن حاولنا أن نوازن بين حق الوالدين وواجباتنا تجاههم وجدنا كل صفة أو عيب يهون أمام تضحياتهما ويتضاءل ، كما أن لكل من الأمرين مقياسه فلا يتعارضان أبداً . فالبر بالوالدين والوفاء لهما واجب لا يسقط عن الإنسان في كل الأحوال ، وأخطاء الوالدين ـ إن وجدت ـ يمكن إصلاحها أو التجاوز عنها أو الدعاء لهما بالرحمة والغفران وهما يستحقان هذا منا في مقابل فضلهما علينا . كل هذه المواقف تجب علينا في حال الشعور بأن سوءاً أو ضرراً يلحق بنا من تصرفات الوالدين إذا كنا نتصور فيها ضرراً ، ولا أعتقد أن هذا الضرر ـ فيما لو افترضنا حصوله ـ يكون مقصوداً . وقد يحصل هذا الضرر من صفات سلبية في الوالدين كما لو كان أحد الناس مثلاً بخيلاً أو عصبي المزاج شديد الغضب . . . وهذه كلها يقتضي الصبر عليها ـ كما أشرنا ـ ولا يستحق الأهل عليها غير الدعاء بالرحمة والاستغفار والمعاملة بالحسنى . أما إذا كان عند الوالدين أعمال « إيجابية » تلحق بالإنسان حيفاً أو ضرراً ، كأن يكون الأب مثلاً كريماً أو طيب القلب أو محباً لإنسان تكرهه ، أو صاحب جاه ومكانة واحترام بين الناس . . . يقيّدك وضعه ويجبرك على تصرفات معينة ، والالتزام بحدود ومواقف لا يمكن لك تجاوزها فهنا أقول لك ما يلي : إن بعض هذه التصرفات أو الصفات أو الأعمال قد لا تكون موضع شكوى بل موضع اعتزاز ، وقد تكون نعمة من الله تعالى على الإنسان ـ الأب والأولاد معاً ـ وباباً للناس إلى السماء وإلى رحمة الله تعالى لأنه يكون فيها رضى الله واستجابة لإرادته في الخليقة . وهذه الأمور ، وإن كانت تقيّدك ، أو إن كنت تشعر أنت بذلك فإنها قد تقيّد منك الرغائب والشهوات ، وعند ذلك تصبح قيوداً ضرورية ، ولازمة وواجبة إذا كان من شأنها أن تحد من فرديتك وأنانيتك وتجعلك إنساناً خلوقاً مفيداً للمجتمع وللناس .

وهنا نصل إلى الوضع الثاني للإنسان الذي حدثتك عنه ، وهو وضع الإنسان في ذاته . فالإنسان كفرد له قيمة في ذاته ، وقد رسمت الشريعة صورة للإنسان الفاضل الفرد ، وجعلت كل إنسان مسؤولاً عن نفسه ـ كما أشرنا سابقاً ـ ﴿ **فلا تزر**

وازرة وزر أخرى ﴾[1] ، ولا يُحَمّل الإنسان ذنوب غيره وإن كان مندوباً « لتسديد » ما يمكن تسديده عن والديه عن طريق الصدقات والصوم والصلاة وغيرها من العبادات بالنيابة عنهما ، ولكن ذلك يأتي ضمن باب البر بالوالدين والوفاء لهما ولحقهما علينا . كما أنه مندوب أيضاً لهداية الأقربين ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[2] و ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة . . . ﴾[3] إلاَّ أن الحكم في النهاية يبقى فردياً يطال الإنسان في ذاته ، ولا يحمل معه أحد من الناس أي حمل ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء . . . ﴾[4] فيستطيع الإنسان من هذه الناحية أن يقابل المجتمع والحياة والناس جميعاً بكل قوة ووضوح مطالباً بالحق بما هو حق ، مقدّماً نفسه للناس جميعاً على أنه يتحمل مسؤولية أعماله التي يقوم بها هو شخصياً دون أن يكون مسؤولاً عن أعمال الآخرين من أية درجة كانوا ، وبهذا لا يعود في تصرف أي إنسان ـ مهمن كان ومهما كانت صفته ـ أي قيد أو أية مسؤولية يتحملها إنسان آخر . وفي هذا الأمر لا يجوز أن نحمّل إنساناً مسؤولية إنسان آخر ، حتى لو كان من أقرب الناس إليه . فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام ، كان أبوه آزر صانعاً للأوثان يعبدها ، ضالاً عن سبيل الرشاد ، وما كان في ذلك ما يمنع على الله تعالى أن يختاره للنبوَّة دون الالتفات إلى أمر أبيه ودون أن يتخلص إبراهيم عليه السلام من مسؤوليات النبوّة ووجوب هداية أقرب الناس إليه ـ وهو أبوه ـ دون أن يحمّله مسؤولية والده وآثامه وكفره .

وإذا كان وضع الوالدين ملفتاً للنظر ، كأن يكون الأب فقيراً أو الأم فقيرة ، أو كأن يكون الأب أو الأم من عائلة وضيعة ، أو كما ـ في بعض الحالات ـ أن يكون الأب حُراً مثلاً والأم أَمَةً . . . أو غير ذلك من الأوضاع غير العادية ، فيجب أن تدرك يا بُني أن هذه كلها أمور اجتماعية لا أظنها تتعلق بجوهر الإنسان بل هي من المظاهر الاجتماعية الخلاّبة التي لا يقام لها وزن في الحقيقة ، لأنها صفات طارئة وغير ثابتة

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٦٤) .
(٢) سورة الشعراء ، الآية : (٢١٤) .
(٣) سورة التحريم ، الآية : (٦) .
(٤) سورة فاطر ، الآية : (١٨) .

في الإنسان ، وقد تتغير وتتبدّل ، فالغني قد يصير فقيراً ، والفقير قد يصير غنياً ، والحُر قد يصير عبداً ، والعبد يصير حُراً . . . وقد شدّدت الشريعة على ذلك باعتبار المقياس والمعيار الذي يُميِّز على أساسه بين الناس هو التقوى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[1] . وفي قوله تعالى : ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك** ﴾[2] و ﴿ **لأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم** ﴾[3] ، فصار المقياس هو الإيمان . كما دعت الشريعة أيضاً إلى التزاوج بين الفقراء والأغنياء لأن الغنى من عند الله ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم** ﴾[4] . . . فما عاد الفقر أو الغنى ، ولا الرق والعبودية أو الحرية معايير في الإسلام ، وقد ضرب النبي ﷺ أكبر مثالٍ في ذلك عندما جعل أسامة بن زيد ـ وزيد كان مملوكاً له وعبداً عنده ـ قائداً لأول حملة في الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية ، وجعل بلال الحبشي مؤذنه الخاص وكان يقول : « **اللهمَّ أحيني فقيراً وأمتني فقيراً واحشرني مع الفقراء** » لأن الفقراء هم الأقرب إلى الله ، وهم الذين يعرفون الله ، والغنى قسوة في القلب وبعد عن الله إلاّ من رحم الله . هذا مع الإشارة إلى أن الفقر الذي نتحدث عنه هو الفقر الذي يحدث حالة مستمرة عند الإنسان دون أن يكون قادراً على دفعها برغم مساعيه للتخلص منه ، وطموحه لتحسين وضعه . لأن الإنسان مندوب إلى تحسين وضعه بالسعي ﴿ **وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[5] . وفي قول الإمام علي (ع) : لو كان الفقر رجلاً لقتلته . . . في كل هذا ما يوحي بوجوب محاربة الفقر والسعي للحصول على رزق الله واستحقاق مثوبته ورزقه وعطائه بالعمل والجد والاجتهاد .

أما النسب ـ وأظن هذا الموضوع يدخل في حسبانك يا بني ـ فهو الآخر يأتي في الدرجة الثانية ، وتبقى قيمة الإنسان ومكانته عند الله مرتبطة بأعماله : ﴿ إن

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : (١٣) .

(٢) سورة البقرة ، الآية : (٢٢١) .

(٣) سورة البقرة ، الآية : (٢٢١) .

(٤) سورة النور ، الآية : (٣١) .

(٥) سورة النجم ، الآيات : (٣٩ ـ ٤١) .

أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[1]. وانتساب الإنسان إلى أب كريم لا يعتد به إلاَّ إذا كان انتساباً إلى نبي أو إمام أو رجل صالح ، دون أن يكون ميزة أو تفوقاً لصاحبة على غيره ، بل نراه مسؤولية عظيمة تلقى على عاتق الإنسان الذي يتمتع بها ، وتلزمه في سلوك درب الخير والفضيلة والصلاح وتكون عاراً عليه في حال كان مسلكه مخالفاً للسلف الصالح . أما الانتساب على غير هذا النحو فلا قيمة له حتى لو كان لملك ، ذلك أن الملك والحكم والسلطان والجاه والمال . . . . الدنيوية كلها أمور باطلة فانية ، وكثيراً ما يكون فيها جور وظلم للآخرين ، فتصير بذلك مذمة لأصحابها . وإذا كان واقع المجتمعات على غير هذا النحو ومفهومها للنسب كثيراً ما يؤخذ بالمظاهر الدنيوية ، فإن هذا الأمر لا يعني شيئاً ، ومفاهيم العامة كثيراً ما تكون مبنية على ظواهر خداعة ، دونما أساس صحيح . وحتى الانتساب إلى الأنبياء لا يعتد به أحياناً ، وبخاصة عند الله ويوم الحساب ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأمر بقوله تعالى : **﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلاَّ من أتى الله بقلب سليم ﴾**[2] ، وبقوله تعالى : **﴿ فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾**[3] . وفيما يروى عن الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام أنه كان يبكي في صلاته من خشية الله حتى تبتل لحيته الشريفة من دموعه فسأله أحدهم يوماً كيف يبكي مثل هذا البكاء وهو ابن رسول الله ، وسوف ينال شفاعة جده يوم القيامة ، فأجابه الإمام عليه السلام : **﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلاَّ لمن أذن له﴾**[4] **﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾**[5] فيبقى الإنسان بذلك رهين أعماله، ولا ينفعه النسب في شيء، إلاَّ أن يكون شرفاً في الولادة يضاف إلى شرف العمل الصالح ، فيرتفع الإنسان بالشرفين معاً فيكون من المفلحين ، أما أن يكون أبوك فقيراً ، أو أن تكون أمك فقيرة ، أو أحد أجدادك أو أحد أقاربك . . . فلا يضيرك هذا في شيء وما يدريك فقد يكون هذا الأب الفقير أو

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : (١٣) .
(٢) سورة الشعراء ، الآيتان : (٨٨ و ٨٩) .
(٣) سورة المؤمنون ، الآية : (١٠١) .
(٤) سورة سبأ ، الآية : (٢٣) .
(٥) سورة المؤمنون ، الآية : (١٠١) .

الأم الفقيرة إنساناً صالحاً مباركاً عند الله ، مؤمناً صابراً . . . وقد يكون نافذتك على السماء ، وبه ومن عنده تشرق عليك أنوار الهداية ، ومن خلاله يمد الله إليك يد العون والبركة والخلاص . . . وقد يكون أبوك « الكبير » ، « العظيم » « الملك » أو « الحاكم » . . . يد الظلم التي تمتد إليك فتغرقك في بحار الظلمات ، وتثقلك فلا تستطيع أن تقوم بحملك وحملها ، وأنت عن حمل أوزار نفسك عاجز . أما كل ما يقال عنه من إرث العائلات الكبيرة ، وعادات وتقاليد الأسر . . . فإياك أن تغتر به يا بني ، فهي عصبية ظالمة ، وباطل في باطل ، وكل تعصّب بغير الحق باطل ، وكل تجمع لا يراد منه خير الناس وينطوي على ظلم وعدوانية باطل . وأنت لو نظرت إلى العائلات التي تعرفها لوجدت رجالها ناساً عاديين ، أخذهم الغرور لا غير ، وهوائيات وسخافات باطلة ، وأمجاد هي أوهن من بيت العنكبوت ، وصارت بيوتهم أعشاشاً للغربان ، أو أوكاراً للثعالب ، أو مكانس للمارقين الفاشلين . . . وكانت كل أعمالهم وسائط لفرض أنفسهم على الناس ، يعيشون نشوة أمجادٍ سلفت دون أن يزيدوا عليها شيئاً ، أما من ورث شيئاً من الأمجاد القائمة على عمل الخير وتقوى الله ، واستطاع أن يزيد عليها شيئاً من خيره وتقواه ، وقصده رضوان الله تعالى ﴿ **لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** ﴾[1] فهذا يباركه الله تعالى ويرضى عنه .

ـ إلاَّ أن الإنسان لا تكون له مكانة بين الناس إذا لم يكن معتمداً على دعائم قديمة قائمة يبني فوقها بنيان مجده ، فيستفيد من رصيد السابقين ، ويضيف إلى ما بَنَوْه بنياناً جديداً ، فيرتفع البناء ـ بناء المجد ـ عالياً ، ولا يكون هذا البناء على هذا المقدار من الارتفاع إن بدأه الإنسان من الأسفل ، وقد ينتهي قبل أن يضع أسس هذا البنيان .

● يا بني مكانة الإنسان ليست مرهونة بما تركه له الآخرون من أمجاد . والإنسان الذي ينطلق في الحياة انطلاقة من هذا النوع أقل ما يقال فيه إنه إنسان إتكالي . وكثيراً ما نجد في الحياة أناساً بدأوا من لا شيء ، وحالفهم التوفيق في حياتهم ، فبنوا هم أمجاداً للآخرين ، دون أن يرثوا هذه الأمجاد من أحد . ثم ـ يا

---

(١) سورة الإنسان ، الآية : (٩) .

بني ـ إن المجد ليس مجداً لمال ولا مجداً لجاه ، ولكن المجد ـ في نظري ـ تقىً وورع وخشية لله وامتثال لأمره ، وعمل صالح يعقبه حمد الناس للإنسان ومحبتهم له ، وثقتهم به . المجد يا بني أن يكون الإنسان من ﴿ **عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً** ﴾[1] ، والإنسان المؤمن بهذه الصفة إنسان تحيط به عناية الله تعالى ورعايته فأينما حلَّ يكون له من الهيبة والوقار ومحبة الناس واحترامهم وتقديرهم وثقتهم الشيء الكثير . وهذا هو المجد الذي يُعْتزُ به . وإذا استطاع الإنسان أن يجمع إلى هذه الصفات مالاً ينفقه في سبيل الله ، وسلطاناً يسخّره لخدمة الناس وإحقاق الحق وإقامة العدالة بين الناس . . . يكون هذا الإنسان قد جمع المجد من طرفيه .

ــ هذا المفهوم للمجد مثالي وغير واقعي ، وأناس من هذا النوع الذي ذكرت يا جد لا وجود لهم في الحياة .

● يا بني أنا ما فكرت في الدنيا يوماً تفكيراً مستقلاً عن التفكير بالآخرة فالدنيا والآخرة عندي متلازمتان ، فما نسيت الآخرة وأنا أفكر في الدنيا، بل جعلت الدنيا سبيلاً للوصول إلى ثواب الله تعالى في الآخرة . وهذا ينبع من نظرتي إلى الكون ـ وهي ليست نظرة خاصة بي ـ فيعتبر الكون ذا مراحل ، وحياة الدنيا مرحلة من مراحل الوجود تمهد إلى الوجود الثاني وتقرر مستواه ودرجته ومكانه . وهذا الذي أفكر فيه هاجسي إليك يا بني . فأنا أريد أن تفهم حقيقة الحياة في وقت قلّ فيه من يفهم الحياة بهذا المفهوم وأغرق الناس في الماديّة وصاروا ـ في غالبيتهم ـ دهريين كأولئك الجاهليين الذين قالوا : ﴿ **وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾[2] ، فكانوا من الخاسرين وأنا لا أريد لك يا بني أن تكون في الهالكين . والهالكون في نظري هم الناس الذين أغشتهم بهارج الحياة ، وأصمّهم ضجيجها ، وأقعدتهم اللذات والشهوات ، فركنوا إلى الأرض وما نظروا إلى السماء . وأريدك يا بني أن تنظر إلى السماء والأرض معاً ، وإلى السماء قبل الأرض ، لأن الأرض أثر من آثار السماء ، وأن لا تستعبدك الشهوات ، وأن تستخدم عقلك وتجعله سلطاناً على تصرفاتك ، وأن تحيي ضميرك

(١) سورة الفرقان ، الآية : (٦٣) .
(٢) سورة الجاثية ، الآية : (٢٤) .

وتحكمه في أعمالك وأن تكون منبعاً للخير وموردأ يرده العطاش فيرتوي عطشهم عندك ، وأن يأوي إليك ذوو الحاجات فيخرجوا من عندك بنفوس مطمئنة وقلوب راضية ، وأن يبقى الله في قلبك وأن تحس به رقيباً عليك فتطلب هدايته ورعايته وتعمل ما فيه رضاه وبهذا يكون لك المجد ، مجد السماء قبل مجد الأرض ، ومجد الآخرة قبل مجد الدنيا . لقد ترك لك أبوك يا بني ثروة كبيرة من محبة الناس فحافظ عليها ، وترك لك رصيداً مهماً من المكانة الرفيعة في مجتمعك بلغها بسعيه وعمله وخدمته لأصحاب الحاجات . . . فخذ عنه ما أورثك إياه تكن لك مكانته ومحبته . وأورثتكما معاً نسباً شريفاً أعتز به ، وأريدك أن تعتز به وأن تحفظه في نفسك وأن تكون أهلاً له وفي مستواه ، ترتفع إلى هذا المستوى بعملك وحدك دون الاعتماد عليه وحده . وأورثك مسؤولية كبيرة وأنا أعرف أنك قادر على حملها رغم صغر سنّك فالأمور لا تقاس بالسن ولكن بالنفوس العظيمة تكون الأعمال العظيمة . وأورثك مالاً قليلاً ولكنه يكفي مؤونة الحياة . وما كانت غايتي جمع المال ، ولو أردت لكنت أثرى الأثرياء ، ولكن لا قيمة لمال في هذه الدنيا يكون عبئاً عليك في الآخرة . وأورثك علماً أتمنى أن يرضى الله تعالى عنك فيشرح صدرك فيعيه قلبك ، وأن تكون قادراً على أن تعمل بما تعلم ، لأنه لا قيمة لعلم لا تعمل به . هذا الإرث ـ إرث العلم ـ هو الذي أعتز به وأفتخر ، وإن كان قليلاً ، ولا يكاد يساوي نقطة في بحار العلم ، إلا أن نقطة قد تروي ظمأ وتشفي غليلاً . فازدد من العلم ، وعُبَّ من مناهله واطلبه ولو في الصين ، وإن أنا مت غداً ـ وسيكون هذا حقاً ـ فقل : رحم الله جداًأورثني خير الإرث ، وأباً أورثني خير النسب ، وستقر بك عيني وأنا في دار البقاء عندما أرى طيفك ينتقل بين الناس ، يبلسم الجراح ، ويجود بالكلمة الطيبة التي تشفي النفوس ، وأسمعك ترتل صلواتك في الليل والنهار في خشوع وعبادة وتقوى وورع ، وتذكر جدك وأباك بالخير .

ـ سأكون يا جد كما تشتهي ، فافتح لي درب الحق ، وأنر قلبي بعلمك ، وافتح لي دروب الخير ببركتك . وعهداً لك عندي : سأكون على الصورة التي تريدها ، وسأمشي في درب الحق الذي تريد .

● الآن أنا أحيا فيك يا بني ، وإذا أنا مت جسداً ، فسوف أبقى روحاً نابضة

فيك ، وسأعرف أن الخير لن ينقطع مني في هذه الحياة .

* * * *

الزواج :

ـ ألا ترى في الزواج عبودية للإنسان ؟ هذه العبودية تبدأ برغبة الإنسان بالزواج فتستعبده نزواته وغرائزه ، ثم يستمر الزواج فتتحول العبودية إلى الزوجة والأولاد معاً . . . وكل من هذه العبودية هي فعل استكانة للإنسان أمام عواطفه وقلبه ! .

● يا بني الزواج سُنَّة الله تعالى في خلقه . وبهذه السُنَّة تستمر الحياة . وقد حدثتك عن الخليفة وكيف أن الحياة أفضل من العدم . فخلق الله تعالى الخلق أول مرة (في عالم الذر)[1] ، ثم بدأه ـ في وقته ـ بآدم فجعله المنطلق والأساس ، وعنه تصدر الخليفة بمشيئة الله تعالى وقدرته وبالوسائط التي خلقها وعلى النحو الذي أراد وبمقتضى القوانين التي وضعها للخليقة . والزواج أحد هذه القوانين . وبمقتضى قانون الزواج فقد عبّر بعضهم عن الرجل والمرأة أنهما نصفان لحبّة واحدة ، فلا تكتمل الحبّة إلا بنصفيها معاً . وكل فرد لا تكتمل إنسانيته إلا بعثوره على نصفه الغائب والاهتداء إليه . ووسيلة الاكتمال دوافع خفية في المخلوق إلى نصفه الثاني وهذه الدوافع تقوى وتسيطر في فترات من حياة الإنسان فيكون لها وجود خارج النفس الإنسانية متمثلاً بفيض من العاطفة يشدّه إلى الطرف الآخر ، ومتمثلاً برغبة في التكامل مع الآخر والاتحاد به . فإذا اهتدى الفرد إلى نصفه الآخر كان التكامل والتوالد ، وهو نتيجة طبيعية لحالة الاتحاد . أما إذا وقعت شبهة في الإنسان في الميل إلى نصفه الآخر وأخطأ في الاستدلال، فإن التكامل لن يتم، وإن هو أخذ طريقة في بداية الأمر إلا أنه لن يلبث أن يحل التنافر محل التكامل ، ويبدأ البحث من جديد بغية إتمام هذه العملية ـ عملية التكامل الإنساني ـ حتى تتحقق ! . فالنزوات والغرائز التي في داخل الإنسان ليست هي التي تستعبده ، لأنها ليس لها وجود في ذاتها ، ولا هي ذات شخصية مستقلة عن الإنسان ، وإنما هي ميل فيه ، بل يمكنك أن تقول : إن الإنسان

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . . . ﴾ (الأعراف : ١٧٢) .

عبد الحياة ، والحياةالتي لا تنقطع ولا تفنى ـ أو التي أرادها الله تعالى أن تستمر دون انقطاع ولا فناء هي التي تستعبد الإنسان وتفرض عليه مبادئها وقوانينها ولا يجد الإنسان بُدأ من الاستجابة لتلك المبادىء والقوانين . وبمجرد ما إن يتم لقاء الإنسان بنصفه الآخر تقوم بين الاثنين علاقات من الود والمحبّة والتفاهم ـ من حيث المبدأ ـ وهذه العلاقات الطيبة هي اللحمة التي تجمع بين النصفين فلا يفترقان ، وإن هما افترقا فإنهما يتجاذبان بفعل هذه الروابط النفسية والقلبية التي تجمع بينهما . وهذه الصلات بين الزوجين تصبح قوية ومتينة بحيث يصير الرجال والنساء كالثوب بالنسبة للجسم ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[1] ، وهي من نوع الرأفة والرحمة ﴿ **وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[2] . فتفسير هذه العلاقة ـ كما قلت يا بني ـ أنها عبودية أحد الزوجين للطرف الآخر هو تفسير خاطيء، ويبقى كل من الزوجين عبداً للحياة ، وهذه الحياة تتخذ لها مظاهر معلومة ومعروفة ومنها حياة الزوجية والتآلف والمساكنة والتراحم والمودة . أما إذا كنت تقصد من حديثك إلى ما تراه من « طغيان » وسيطرة أحد طرفي الزواج على الطرف الآخر وإخضاعه لإرادته ، وإملاء رغباته عليه ، واستجابة الطرف الثاني دون معارضة . . . فإن ذلك في نظري أمر طبيعي وهو نتيجة لمبدأ التفاعل الذي يسيطر على كل كائنات الحياة ، فالأقوى هو الأغلب ، وتظهر آثار الغلبة في النتاج الذي ينتج عن المزاوجة بين عنصرين . ففي المواد الجامدة أو السائلة يحصل ذلك ، بحيث لو أنك جمعت مادتين كيماويتين تتفاعلان في ما بينهما لوجدت أن صفات العنصر الجديد الناتج عن تفاعلهما هي صفات الأقوى من العناصر . وكذلك في النبات وفي الحيوان ، وكذلك في الإنسان لجهة الجسم وما يتعلق به من صفات وراثية تنتقل من إنسان إلى إنسان . وكذلك الطباع في الزوجين تقف ـ منذ اللحظة الأولى للقاء ـ موقف التأثير المتبادل ، والنتيجة أن الأضعف سيخضع حتماً للأقوى . إلا أن هذا المبدأ الذي ينطبق حتى على الإنسان يجب أن نضيف إليه شيئاً آخر وهو أن الله تعالى قد أعطى الإنسان عقلاً نيّراً ، ووسائل تأثير مختلفة قد يستعملها أحد الطرفين فيفوز على الطرف الآخر وإن كان هو الأضعف

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (١٨٧) .

(٢) سورة الروم ، الآية : (٢١) .

بنيـة وقوة جسديـة. وإذا كنت أنت ترى استجـابة أحـد طرفي الـزواج للطرف الآخـر وخضوعه له عبوديّة ، فقد يراها هذا الطرف نفسه سعادة . وليس المعوّل على ما تراه أنت ، بل المعوّل على ما يراه الطرف المعني بهذا الموضوع .

أما الأولاد فهم ﴿ **زينة الحياة الدنيا** ﴾[1] كما قال الله تعالى في كتابه العزيز ، عندما جعل لذات الحياة اثنتين : ﴿ **المال والبنون** ﴾[2] ، والإنسان ينساق ـ بغرائزه وطباعه ـ إلى هـاتين اللذتين فيجمع المـال ولا يشبع ، وينجب الأولاد دونمـا حد ، ويفاخر بالأولاد والمال معاً . وإذا كان قليل المال شعر بالمذلة ، وإذا كان قليل العقب أو لا عقب له عيّره الناس بذلك ، وشعر نفسه كأنه شجرة لا جذور لها ، وهي مهددة بالسقوط في كل لحظة ، فإذا سقطت لا تقـوم لها قـائمة . والـواقع أن الإنسـان في شعوره هذا بالطمأنينة مع الأولاد ، وشعوره بالضياع بدون أولاد إنما هـو في الحقيقة استجابة لداعي الحياة فيه ، وخضوع للإرادة الإلهية التي أرادت أن يستمر الكون في الإنسان يتوالد الإنسان فتستمر الخليقة إلى ما شاء الله . وتعلق الإنسان بأولاده ، وإن كان في ظاهر خضوعاً لإرادة ارولاد ، وضعفاً أمام العاطفة التي يكنها الأهـل لهؤلاء الأولاد فهي عاطفة تعبّر عن محبة الإنسان لنفسه وتعلّقه بالوجود وحبّه للبقاء وهذا هو سر الكون الذي به تستمر الحياة .

– صحيح أن الإنسان يا جد يحقق ذاته في الزواج ، ويستمر في أولاده ولكن هذا كله يبقى خضوعاً لعقل الإنسان أمام عواطفه مما يمنعه أن يتصرف بحرّية تامة في كل الأمور . وهو إن وجد في الظرف نفسه أمام إنسان آخر ـ غير الزوجة أو الولد ـ فإن تصرفاته قد تختلف ، وقد حكم هنا بما لا يحكم به هناك ، وقد يكون له موقف هنا غير الموقف الذي يتخذه هناك .

● هذا الأمر ليس مطلقاً يا بني ، وإنما هو أمر نسبي يعود للإنسان وإلى مقدار ما استطاع هذا الإنسان أن يرتقي في سُلّم الخليقة ويهذب من نفسه وعواطفه ، وينمي

---

(١) سورة الكهف ، الآية : (٤٦) .
(٢) المصدر نفسه .

قدراته وعقله ، ولا يرضى بحكم غير حكم العقل في كل ما يقدم عليه ، وتقل سيطرة العاطفة والميول والرغبات عنده أمام سلطان العقل . ويبقى المعيار الأساسي عنده في الحكم على الأشياء هو الحق ولا شيء غير الحق . وبالحق يحكم وإن خالف الحق منه هوى في نفسه أو ميلاً عنده ، أو عاطفة غالبة فيه . ففي الدنيا أمران : حق وباطل ، أو خير وشر ، والإنسان الأمثل هو رجل حق لا يحيد عنه قيد أنملة ، ويبتعد عن الشر مهما كان . وعلى هذا بات الإنسان الأمثل هو الإنسان الذي يستجيب لداعي الله مهما كان يخالف عواطفه ورغباته، فنبي الله إبراهيم عليه السلام أمره الله تعالى أن يذبح ابنه فاستجاب لأمر الله وحاول أن يفعل مع ما يكلفه إياه ذلك من ألم نفسي ، واحتراق الوجدان أمام عمل يقدم عليه في حق أعز الخلق عنده . ولكنه يقدم عليه طائعاً ، لأن طاعة الله أولى من كل عاطفة . ورسول الله محمد ﷺ يقول في موقف محدد[1] : « **لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها** » . وهو كان سيفعل بدون شك لو أن خطيئة ثبتت على أعز الخلق عنده . وعلي بن أبي طالب (ع) يحمي حديدة في النار يقدمها إلى أخيه عقيل الضرير فيمسكها فيحترق بها حين سأله ما لا حق له فيه ، وهو يريد أن يعلمه درساً في حفظ حدود الله . . . ومثل هؤلاء ، وإلى درجتهم يريدنا الله تعالى أن نرتقي فنكون بشراً بالمستوى الذي أراده لنا .

ـــ ولكن هؤلاء هم النخبة يا جد ، ومنهم رُسُل الله تعالى إلى الناس ، فكانت الرسالة تطهيراً لهم وتثبيتاً من عند الله . . أما نحن فبشر . فهل تريد لإنسان عادي أن يبلغ مرتبة الأنبياء ؟! .

● يا بني الأنبياء أعلام الهدى ومصابيح الدجى . بهم نقتدي وعلى دربهم نسير . ونحن ـ وإن كنا لا نستطيع أن نبلغ درجة الأنبياء ، إلا أنه مطلوب منا السير في الطريق الذي سلكوا ، والاقتداء بهم ، وقد نستطيع أن نحقق جزءاً من النجاح يزيد أو ينقص حسب اجتهاد الواحد مناه فنكون من الصالحين الذين كرّمهم الله تعالى لصلاحهم ، ووعدهم بالجنة . وهؤلاء الصالحون بشر مثلنا ، ساروا في طريق الخير ، و ﴿ **صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[2] فكافأهم الله تعالى ، وثبّتهم على الهدى

(١) أشرنا إليه سابقاً .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٢٣) .

والإيمان ، وغرس التقوى وخشية الله في صدورهم ، فساروا بخطى ثابتة ، وإيمان لا يتزعزع . هؤلاء المؤمنون يا بني هم حجّة الله على خلقه إذ أنهم الدليل على أن من سلك طريق الإيمان يمكن أن يحصل على رضى الله تعالى وثوابه ومغفرته . ومن هؤلا المؤمنين نفر من صحابة رسول الله ﷺ الأجلّاء ، الذين ما زالت سيرتهم مسكاً يعبق ريحاً تعطر العصور فتنشر فيها البهجة والبشرى والثقة والتصديق بوعد الله وتثبت أن الإنسان الذي يستطيع أن يتغلب على رغبات نفسه وأهوائه ، ويخلص في عبادته لله قد يصير ملاكاً طاهراً ، وقد يكون عند الله أعظم قدراً من الملائكة لأنه قد تعرّض لمغريات الدنيا وانتصر عليها ، في حين أن الملائكة لا يتعرضون لذلك . ولهذا كرّم الله تعالى المؤمنين ورفعهم إلى أعلى درجات القدسية ، فورد في الحديث الشريف : إن لله رجالاً إذا أرادوا أراد . وورد في الحديث القدسي : عبدي أطعني تكن مثلي ، إذا قلت للشيء كن فيكون .

ــ إلا أن الزواج الذي يتكامل به الإنسان ، وهو سر من أسرار الكون يبقى قيوداً تقيد المرأة بصورة خاصة أكثر مما يقيّد الرجل . وقد جعلت الشريعة للزواج حدوداً تحد من حرّية المرأة ، في حين أنها أطلقت الحرية للرجل في كثير من القضايا ، وأوقعت المرأة أسيرة للرجل، فسيطر عليها كما سيطر على العائلة كلها بحيث لم يعد أمام العائلة كلها إلا الخضوع والاستجابة . . . وصارت العائلة كلها ، والمرأة بصورة خاصة أسيرة المجتمع والحياة .

● أن وضع المرأة كزوجة ينبع من وصفها كامرأة ، وقبل أن نناقش وضعها في العائلة يجب أن نحدد وضعها في الحياة . وقد سمعت كثيراً من الكلام حول هذا الموضوع ، وأراك سمعتَ ما سمعتُ وأنت تتأثر به وتصغي إليه ، ولكن إسمع يا بني : إن المبدأ في الخليقة واحد ، فالله تعالى عندما خلق المخلوقات جعلها على درجات ، وميّز واحداً منها على واحد ، وسلّط واحداً على واحد . . . كل ذلك بفعل إرادة إلهية هي أعلم بما تخلق ، وبكيفية تحقق الغاية من الخلق والطرق التي تؤدي إلى ذلك . ومثل هذا التمييز في المخلوقات تبعاً لدرجات خلقها هناك تمييز بين المخلوقات في الدرجة الواحدة . فبين الجمادات تجد الذهب والتراب وبين النباتات تجد التفاح والموز والعنب والرمان والتين . . . وتجد معها الأشواك والعوسج

والحنظل . . . وبين الحيوانات تجد الغزال والغنمة كما تجد الضبع والذئب والضب والحرذون ، وتجد الطاووس والحمائم والحسّاسين . . . كما تجد الغربان والبوم والصقور . . . وكلها تبقى في مرتبة واحدة تساوي بينها جميعاً ، وتشترك في صفات عامة تؤلف بينها هي مرتبة الجماد أو مرتبة النبات أو مرتبة الحيوان والإنسان كذلك عندما خلقه الله تعالى جعل الناس جميعاً على درجة واحدة وبنفس الميزات ، وأعطاهم نفس الحقوق دون تمايز لواحد منهم على واحد في الأصل : كبيراً أو صغيراً ، أسود أو أبيض ، رجلاً أو امرأة ، فالمساواة من حيث المبدأ ومن حيث الدرجة كاملة ، والتفاضل هو تفاضل عند الله فقط ، ووسيلته التقوى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[1] . وجعل الله تعالى للإنسان ـ في ذاته وبصرف النظر عن لونه وجنسه وشكله . . . حقوقاً لا يمكن أن تُمس وفي حال المساس بهذه الحقوق أوجد الله عقاباً يطال المذنب ويعاقبه على فعلته وافترائه على إنسان آخر لمجرد كونه إنساناً . وقد أكثر القرآن الكريم من الإشارات إلى هذه المساواة بين الرجل والمرأة عندما تحدث عنهما معاً فذكر : المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والعابدين والعابدات والصائمين والصائمات . . . وأعطى المرأة الحقوق نفسها التي أعطاها للرجل .

على أن المجتمع الإنساني يا بني هو أرقى أنواع الاجتماع ، وقد أراد الله تعالى أن ينظمه بشكل لم يفعله في المجتمعات غير الإنسانية . وذلك من باب تكريم الإنسان ورفعه إلى درجة عالية في سُلَّم الخليقة ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[2] . ونسّق الحياة ودرجاتها ، وأوضح شخصية الإنسان الفرد وجعل لهذه الشخصية حدوداً ضمن المجتمع الإنساني ، في نوع من الاستقلالية الذاتية ـ وكل ذلك من باب التكريم ، فحدّه بحدود الأب والأم وبحد الأخ والأخت . . . وعيّن العلاقات الموجودة بين هؤلاء جميعاً ، وقدّر بين هؤلاء مسافات تنطلق من نقطة في الوسط هي الإنسان ، وحدّ لذلك دائرة جعلها محرّمة مقدسة وكل من كان ضمن هذه الدائرة دخل

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : (١٣) .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : (٧٠) .

في نطاق هذه الحُرمة وهذا التقديس بالنسبة للإنسان ، ورتّب له الله تعالى حقوقاً على هذا الإنسان وفرض له فروضاً كما أوجب عليه واجبات . . . ومن كان خارج نطاق هذه الدائرة كانت بينه وبين الإنسان موضع النقطة في الدائرة صلات تشبه الصلات الأولى في بعض وجوهها ، وتختلف عنها في وجوه أخرى ، وقلّل القيود هنا والحدود . . . كل ذلك بما يحل الإشكالات التي يمكن أن تطرأ ، ومن هنا كان حلال وحرام . وجعل العلاقات بين كل دائرة وأخرى أيضاً محدّدة ، وجعل للدائرة الواحدة حُرمة لا يجوز انتهاكها ، فحدد أصلها وعلاقاتها بالآخرين صعوداً في الأصل أو نزولاً في الفروع . ثم انتقل إلى تسوية الأوضاع الماديّة للإنسان ، فحدد علاقاته الماديّة بالآخرين بما تقتضي مصلحة الفرد وموقعه في المجتمع . وفي ما يختص بنوع المخلوقات فقد جعل الله في الخليقة نوعين : ذكراً وأنثى . وكذلك في الإنسان ـ ذلك أن التنويع بين المخلوقات وقسمتها إلى جنسين كان إرادة إلهية ترمي إلى حفظ النوع البشري .

والنقطة الثانية في التنظيم الاجتماعي الإنساني ـ والذي لا نجده بنفس المواصفات في المجتمع الحيواني مثلاً ـ هي تنظيم الأسرة ، وذلك بغية إقامة مجتمع إنساني فاضل ، يختلف عن المجتمع الحيواني الذي قد يتعاون أفراده غريزياً ولحفظ الحياة دون أن يكون فاضلاً . وهذه الأسرة أيضاً لا بد لها من أن تحد بحدود تحفظها وتنسق علاقاتها مع بقية الأسر ومع المجتمع . وفي سبيل المحافظة على هذه الأسرة سليمة معافاة كان لا بد من تنظيمها في الداخل والخارج . أما تنظيمها في الداخل فقد اقتضى إعطاء الرجل مركز القيادة والسلطة فلا تقوم عائلة بدون الرجل . فالرجل يستطيع أن يؤسس عائلة فيختار لنفسه المرأة التي يشاء ، ولم يعط المرأة هذا الحق ، وقد يختار الرجل في الوقت نفسه أكثر من امرأة ، دون أن يكون عنده أكثر من عائلة في الأصل وإن تشعبت فروع شجرة العائلة الواحدة ، وألقي على عاتق الرجل مسؤوليات تأمين القوت للعائلة والحماية والرعاية والسهر على مصالح هذه العائلة ، وحمّله واجبات بهذا الخصوص . أما المرأة فقد اختارها الله لأمر عظيم هو أن تكون مصدر هذه العائلة التي توحد بينها أكثر ما يوحّد الرجل الأب ، وأناط بها مسؤولية العناية والرعاية والتربية والتنشئة . وفي سبيل التنسيق بين تنظيم المجتمع وتنظيم

العائلة ووضع الإنسان الفرد في المجتمع . . . فقد قيّدت حرية المرأة بقيود لا أراها إلا من باب التكريم للمرأة والتي تحفظ شخصيتها واحترامها في المجتمع وكرامتها فلا تعود سلعة أو وسيلة للذة ، أو رهينة للشيطان . . . ففرض عليها فروضاً في الزواج مثلاً ، إذ لم يحرمها من الزواج أكثر من مرّة ولكن بعد أن تنتهي رباطات الزواج الأول وتؤمّن حدوده وتحفظ الحقوق الناتجة عنه . كل ذلك ضمن مبادىء المحافظة على المجتمع والإنسان معاً . ولو أن مثل هذه القيود لم تفرض على المرأة في المجتمع الإنساني لكان مثلها مثل كل أنثى في المجتمع الحيواني . ففرض الفروض عليها تكريم لها كما هو تكريم للمجتمع وغايته صون الإنسان وحفظ كرامته . وكل مطالبة اليوم بأعطاء الحرّية للمرأة ، مطلقة كحريّة الرجل هو هبوط بالمرأة عن مرتبتها الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية . أما الرجل فقد أعفي من هذه القيود لأن له وضعاً يختلف عن وضع المرأة . وما تتأثر به المرأة لا يتأثر به الرجل ، وما يعيب المرأة لا يعيب الرجل . والمرأة بهذا مثلها كمثل وعاء تفرغ فيه العناصر ، وقد يؤثر بعضها في بعض فتأسن وتتعفّن وتفوح منها روائح كريهة ، وتنتج عنه مشكلات لا تنتهي . ومثل الرجل كمثل نبع ماء دافق ما خرج منه لا يؤثر فيه ولا يؤذيه . ومن هذا المنطلق كان تحديد علاقة المرأة بالرجل في الزواج فقد فرضت على المرأة فروض لا تجعلها رهينة للرجل ، بل تجعلها ملائمة للغاية التي خلقها الله تعالى من أجلها . وهذه الفروض إذا كان بعضها مفروضاً لمصلحة الرجل فلا أراه مفروضاً لمصلحة الرجل في ذاته ، بل هو مفروض لمصلحة الحياة والمجتمع وكرامة الإنسان .

ومن التمييز بين الرجل والمرأة في الحقوق الماديّة ما ورد في موضوع الإرث ، ففيه تفضيل للرجل على المرأة ، أو لنقل مراعاة لوضع الرجل بحيث تأتي حصته أكبر من حصّة المرأة في الأساس ، وذلك في مقابل ما يُحَمَّل من مسؤوليات في المجتمع تعفى منها المرأة ، ثم إن هذا التفضيل غير ملزم ولا نهائي فباستطاعة الإنسان ـ المورّث أو الشريك في الإرث ـ أن يزيده دون أن ينقصه عن طريق الوصية فتحديده بحدّ معيّن جاء ملائماً ومناسباً للمسؤوليات التي يتحملها الرجل في الحياة ، وموافق لحالة المرأة التي أعفيت من مسؤوليات العائلة الماديّة ، وجُعلت مسؤوليتها المالية ـ ولو كانت ذات مال ـ على الزوج .

وإذا نحن نظرنا بعين العقل إلى هذا الواقع ـ واقع المرأة ـ وإلى التشريعات التي ترعى وضعها ، وجدناها غاية في العدالة والصواب ، وكل ما يتشدق به المتشدقون دعاوى فارغة لا أساس لها من الصحة . والرجل ـ في حيوانيته الطاغية عليه ـ يريد المرأة في هذا المستوى من الحيوانية حتى تبقى وسيلة مفيدة لتلبية رغباته الحيوانية ، وإثارة غرائزه ونزواته . وكل الدعوات محاولة لاستثارة المرأة واستمالتها وإغرائها وإغوائها . وللأسف فإنها تستجيب بسهولة أحياناً كثيرة وليس ذلك غريباً ، فالإنسان أميل للشر منه إلى الخير، وأميل إلى تحكيم العواطف منه إلى تحكيم العقل. أما سيطرة الرجل على المرأة ووقوع المرأة أسيرة الرجل والمجتمع فهذا موضوع يتعلق بتصارع الناس في هذا المجتمع. وهذا الصراع قد يكون طرفاه أحياناً رجلين: قوياً وضعيفاً ، فيسيطر القوي على الضعيف ولو بغير وجه حق ، ويخضعه لرغباته، وقد يسلبه حقوقه وماله وحريته . . . ويشكل كابوساً بالنسبة له يشل حركته فلا يعود هذا الرجل قادراً على عمل شيء . وإذا كنا نتحدث عن سيطرة الرجل على المرأة ، فهناك حالات يحصل فيها العكس ، فتسيطر المرأة على الرجل وعلى العائلة كلها ، فتسلب الرجل حريته وماله . . . ولا يستطيع أن يتصرف بحرية أمامها ، وتفرض عليه فروضاً مختلفة لا يستطيع أن يتحلل منها . فالموضوع يا بني موضوع تصارع إنسانين في هذه الحياة ـ أو قوتين ـ فتنتصر إحداهما على حساب الأخرى . وليس من الضروري أن يكون الرجل هو المنتصر دائماً ، كما لا يهم ما تكون وسيلة المنتصر إلى الانتصار ، بل المهم النتيجة . وإذا كانت المرأة هي المهزومة في الغالب فذلك يعود إلى المرأة . وهذا الضعف له أسباب منها : .

١ ـ عدم العلم والجهالة التي تسيطر على المرأة فلا تعود تعرف ماذا يجب أن تفعل ولا كيف تتصرف .

٢ ـ العاطفة القوية التي تسيطر على المرأة فتملأها خوفاً في مقابل قوّة الرجل التي تبلغ حد الوحشية أحياناً فيلحق بها الأذى في سبيل الوصول إلى غاياته ومطامعه .

٣ ـ ضعف الوازع الأخلاقي والاجتماعي والقانوني ـ وكلها تعني فقدان الحماية الكافية للمرأة . لأن المرأة التي يحميها القانون أو غير القانون لا يتجرأ الرجل أن يلحق بها أي أذى ، ولا يستطيع أن يتحكم بها .

٤ ـ ضعف الوازع الديني عند الرجل ، هذا الوازع الذي يشكل وجوده ضمانة قوية لكل من يتعامل مع هذا الإنسان ، إذ أن الإيمان التزام بالحقوق ، وأداء هذه الحقوق إلى أصحابها ، ومراعاة للضعيف وحماية له وشفقة عليه . . . والأخذ بيده حتى يصير قادراً على مباشرة أعماله وتأمين مصالحه بنفسه ، وتقديم يد العون له عند الحاجة .

المرأة والحجاب :

ـــ وفي موضوع الحجاب ، فإن الشريعة قد ضيقت على المرأة ولم تترك لها أي مجال تستطيع أن تتحرك فيه ، وقيدتها بقيود جعلتها عضواً غير فعّال في المجتمع .

● يا بني ، فرض الحجاب على المرأة تكريم لها ، وصون لكرامتها ، ورفع لها وإعظام وإجلال . ذلك أن الله تعالى خلق في نفس الإنسان شهوات كثيرة وأكبر الشهوات وأعظمها رغبته في المرأة ، وأعظم اللذات الإنسانية لذة الاستمتاع بالمرأة . فصار الرجل بطبعه يميل إلى المرأة ـ كل امرأة ـ ويرغب فيها . ولا يقف عند حدود الرغبة بل إنه يبادر إلى تلبية هذه الرغبة وإشباعها وبكل وسيلة ممكنة . والمرأة غير المحجبة كالمال السائب الذي لا صاحب له ، يشتهيه كل عابر سبيل ويمد يده إليه ، والمرأة المحجبة بستان مصون إلاّ على أهله .

ولكن هناك أمراً يجب أن ننتبه إليه يا بني وهو ـ كما قلت لك ـ إن الناس كثيراً ما يخلطون بين الشريعة والتقاليد الاجتماعية . وكثيراً ما تكون هذه التقاليد باطلة فتصير عند ذلك قيداً يقيد المرأة والمجتمع معاً . وقد مرّت مجتمعاتنا الإسلامية في فترات من الجهالة التبست عليها فيها الأمور فصاروا يناقشون في المسلّمات ، ويتساءلون : هل يجوز تعليم البنات ناسين أو متناسين الحديث الشريف : العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وفرضوا على المرأة حجاباً يخالف الحجاب الشرعي فصار هذا الحجاب وهذه المفاهيم الجاهلة قيوداً حقيقية تقيّد المرأة . أما في الأصل فلو تأملنا في حدود الحجاب الشرعي وموجباته لوجدنا فيه وسيلة صحيحة للمحافظة على المرأة . وقد أشار الإسلام في أكثر من موقف إلى حدود وضعها بين الرجل والمرأة تشير إلى طمع الرجل بالمرأة . ومبرر وضعها حتى لا ﴿ **يطمع الذي في قلبه**

مرض ﴾[١] ، وهذا الطمع دليل مرض في القلب ، وقليل هم الرجال الذين ليس في قلوبهم مثل هذا المرض . وفي سبيل تطهير القلوب من مثل هذا المرض كان فرض على الرجل أنه إذا سأل رجلاً غير مَحْرَمٍ امرأة شيئاً فليسأله ﴿ **من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾[٢] ، وأمر المرأة أن تستقر في بيتها بعد أن جعله مملكتها التي تستطيع أن تصنعها كما تشاء ، وتجعلها مصانع للرجال ، ومأوى للفضيلة ، ومنارة هداية وعلم ومعرفة ، وواحة سلام وطمأنينة في خضم الحياة المتلاطمة . وزيادة في صون المرأة فقد حدد الإسلام محارمها ـ الذي لا يحق لهم التزوج منها ـ والذين لا يطمعون فيها وهم لهم حق أن يروا زينتها ، وأمرها بأن لا تتبرج[٣] وتظهر مفاتنها فتكون كمن يطمّع الناس فيها .

وإذا حاولنا أن نسأل رجلاً اليوم عن سبب إعجابه بامرأة ما يراها في أي مكان لما كان عنده ما يعجبه فيها غير جمال خارجي ، وشهوة تثور فتقوده إلى التعبير عن هذا الإعجاب . وسعى إلى تلبية هذه الشهوة إن هو استطاع وبكل وسيلة ممكنة ويتخذ إلى ذلك كل وسيلة ممكنة ، يغلفها بكل غلاف يقدر عليه ويتأدّب معها ويتهذّب ، ويتودد ويتزلف ، وقد يذل أمامها . . . بالكلمة الحلوة وتقبيل اليد والانحناءة الخبيثة والابتسامة المصطنعة . . . وكلها كذب ونفاق لا تختلف عن تصرف الديك أمام الدجاجة ، والطاووس أمام أنثاه ، وكل ذكر من الحيوان أمام الجنس الآخر ، وآخر ما يطمع فيه تلبية غرائزه الدنيا معها . فأيهما أفضل : امرأة مصونة محترمة ذات هيبة ووقار وكرامة محفوظة ، ومسلك سليم لا يحده إلا الأخلاق السليمة والحدود الشرعية . . . أو مال سائب وجمال فتّان لا سياج له ولا حماية عليه ، بل هو في متناول كل طامع ؟! وإذا كان إنسان ما يطالب بحرّية للمرأة لا يحدها شيء كحريّة الرجل ، فهو لا يعرف الغاية التي من أجلها كان التمييز بين المرأة والرجل أو هو يعرفها ولكنه يتجاهلها لأنه يراها لا تحقق رغباته وميوله الدنيئة . والرجل الذي يرضى أن يرى نساءه موضعاً للشهوة دون أن تثور كرامته هو إنسان لا يعرف معنى

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : (٣٢) .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : (٥٣) .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية : (٣٣) .

الكرامة ، وقد فقد مفاهيم الإنسان وعاش بمفاهيم حيوانية ، بل إن الحيوان عنده أحياناً غرائز دفينة تجعله يحافظ على أنثاه فلا يطيق أن يقترب منها سواه . بعكس ما نرى عليه الإنسان اليوم في الغرب ، إذ يعرف الرجل ـ ويرى أحياناً كثيرة ـ ما تقوم به نساؤه ـ على اختلاف صفاتهن ـ فلا ينفعل ولا يتأثر ، بل هو روّض نفسه واعتاد أن يرى الشواذ ، حتى صار الجميع سواء في هذا الشواذ رجالاً ونساءً . وعاشوا السوء ورضوا به .

ـــ ولكن الشريعة أعطت الرجل أحياناً حقوقاً على المرأة جعلته مُمَيّزاً عليها ، بل سيّداً لها ، وسمحت له بمعاقبتها في بعض الأحيان وبشكل لا يحفظ إنسانيتها بل يعتبر إهانة لها ، كالضرب مثلاً .

● بمقتضى تنظيم الأسرة الذي حدثتك عنه يا بني جعلت الشريعة الأسرة وحدة متكاملة ، وجعلت الرجل سيّدها ـ من حيث المبدأ ـ وأعطته صلاحيات يطبقها على جميع أعضاء هذه الأسرة ـ والمرأة عضو فيها . ولو كان الضرب هو أول وسائل السلطة التي أعطيت للرجل والوسيلة الوحيدة لحل المشاكل لكان ذلك مأخذاً . ولكن الضرب وسيلة في جملة الوسائل تقتضيها بعض الحالات لا جميعها . والضرب وحتى القتل من الوسائل التي تسمح بها القوانين الوضعية اليوم في أكثر البلدان تطوراً في عالمكم المادي الذي تعتبرونه متمدناً . فإذا نظرت إلى أنواع القصاص التي تعتمدها المدارس . لوجدت الضرب من الأمور المسموح بها في بعض الحالات . ولو نظرت إلى الضغوط التي يمارسها رجال القانون أو رجال الشرطة على المجرمين لوجدت العقاب الجسدي من جملتها ، وهذا العقاب الجسدي يصل إلى درجة القتل إذا كان هذا القتل يفيد في وقاية المجتمع من شر محتمل قد ينجم عن تصرفات إنسان معيّن . هذا في وقت لا يعود أي نوع من أنواع العقاب الأخرى مفيداً . والضرب في الشريعة الإسلامية أقِرَّ كوسيلة من وسائل العقاب في حالات لا ينفع معها أي عقاب آخر ، فإذا تأملت الآية الكريمة التي أقرت هذا الموضوع لوجدتها تقول : ﴿ **واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً**﴾[1] . فالضرب وسيلة من جملة وسائل لمعالجة النشوز وهو

---

(١) سورة النساء ، الآية : (٣٤) .

حـالة محـددة بذاتهـا وليس الوسيلة الـوحيدة ـ وهـو يأتي بعـد الـوعظ والهجـرة في المضجع . وهو غير مقصود لذاته لأنه إن كان واحد من هذه الأساليب كافياً للوصول إلى غاية معالجة النشوز فلا داعي للاستمرار في العقاب ، وقد لا نصل إلى الضرب . ثم قـل لي يا بني : أليس بين النـاس ـ وحسب خبرتـك من المجتمـع ـ من يستحق الضرب ولا يؤدب إلا بالضرب ؟ .

ــ ولكننا اليوم نرى مجتمعات بـأكملها تعيش في أجـواء الحريـة ، وبخاصـة حرية المرأة، وتساويها بالرجل، ولا تحسب حساباً لشيء ممـا ذكرت . ولا تـأخذ بهـذه الأساليب في العقاب ، بل لا تشعر أنها بحاجـة إلى العقاب أبـداً . وهذه هي حـال المجتمعات المتطورة الراقية اليوم .

● هذه المجتمعات التي تتحدث عنها يا بني مجتمعات غاب عنها الله تعالى ، ليس لأنه لا يراها ، بل لأن أهلها لا يرونه ، وصار تصرفهم ـ في غياب الله ـ محرراً من كل مفهوم للثواب والعقاب والإرادة الإلهية في الخليفة ، ومعنى الشرف والكرامة والعـائلة . . . وبالتـالي في غياب المفـاهيم الدينيـة التي تنظم المجتمعـات وتنـظم الحياة ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض ، وفي المجتمعات التي تعتبر نفسها متدينة تجد فرقاً كبيراً بين العقيدة والتطبيق . كما تجد تصرفاً كبيراً بالشريعة والمفاهيم الدينية إلى درجة أن السلطات المدنية صارت أقوى من السلطات الإلهية ، وصار رجال الدين ذوي نفـوذ وتأثيـر نظري أكثـر منه عمليـاً . وصرنـا نرى تضـاربـاً كبيـراً بين العقيـدة والتطبيق . فإن هذه المجتمعات « المتطورة » تتحدث عن العدالة ، والعدالة عنـدها عدالة الأقـوياء ، وتتحـدث عن الإنسانيـة وهي تفتقد كـل معاني الإنسـانية في كـل تصرفاتها وأعمالها . وتتمثل هذه التصرفـات والأعمال في حمـاية الإرهـابيين وادعاء محاربة الإرهاب ، والدعوة إلى المساواة وحماية التمييز العنصري وأهله ، والـدعوة إلى حقوق الإنسان ، وعمل كل ما من شأنه قتل الإنسـان الذي لا يخـدم مصالحهم وتحليـل هذا القتـل لأنفسهم . فصارت حضـارتهم فاسـدة وأفكارهم فـاسدة بتهمـة الازدواجيـة في الشخصية ، والتحـايل على القـوانين ،والمروق في الـدين . . . أما المجتمعات غير المتدينة فقد غاب الله عنها أو هي غيّبت الله فصارت تصرفاتها ماديّة جاحدة ملحدة ، وبالتالي فقد غـاب كل حس ديني أو أخـلاقي . وكلا النـوعين من

المجتمعات تبقى قاصرة عن إدراك كثير من المعاني ؛ وستقع في الخطأ في تشريعاتها وعادتها وتقاليدها وأعرافها . وحياتها الماديّة جعلتها تسعى وراء اللذة وتتمثل هذه اللذة في الثلاث المعاصي الكبار : وهي الزنى والخمرة والمال . أما المرأة ـ وهي موضوع الزنى ـ فقد ازدهر وضعها في هذا المجتمع ـ مجتمع الزنى والزناة ـ وحتى يقنعوا المرأة أن تكون ، أو أن تقبل أن تكون وسيلة هذه المعصية فقد قدموا لها كثيراً من « المنافع » ، وأرضوها بكثير من السخافات التي سمّوها قوانين تثير فيها شهوة الحريّة والتفلّت من الواجبات . . فانطلقت على مداها ، تبيعهم جسدها ، ويعبثون بها . وكان من نتائج العبث قيام مجتمع الزناة وأبناء الزنى في كل مكان ، وبلغت الوقاحة بأهل هذه المجتمعات إلى الاعتراف بالزنى وأولاد الزنى ، وما صار ذلك يثير فيهم شيئاً . وحيث لا أخلاق لا قانون ولا عقاب ، وطبعاً لا شريعة ، لأن مصدر الشريعة مغيّب في هذه المجتمعات . وصارت هذه المجتمعات مجتمعات السكارى ، وإننا نسمع ونشاهد من أمور السكر ومفاعيله ما أفقد هذه المجتمعات معنى الكرامة أو الشعور بها لأنه متى غاب العقل غاب الضمير وغاب معه التمييز بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل . وأما المال فقد سيطر على هذه المجتمعات التي تعرف باسم المجتمعات الرأسمالية ثم إن المجتمعات التي لا تعرف بهذا الاسم هي رأسمالية أيضاً وأن تغيّر صاحب رأس المال ـ وصار المال وسيلة هذه الدول للوصول إلى غايتها في السيطرة على الشعوب ، وصار بين الناس وسيلة لتحقيق الرغائب ، وقد قيل : المال مادة الشهوات . وهذه المجتمعات التي يلعب فيها المال دوراً مهماً هي مجتمعات الشهوات ، وبالتالي هي مجتمعات الفساد لأن الفساد أول ما يكون بغلبة الشهوات على الإنسان . وإذا كنت ترى يا بني هذه المجتمعات متطورة راقية فهي كذلك مادياً ، أما خلقياً فلا ، بل هي في غاية التخلف . وكم من مجتمع قديم كان كهذه المجتمعات بل سبقها في حضارته إذا نحن تأملنا في أوجه تلك الحضارات القديمة وبلغ به التطور المادي درجة عالية ، ولكنه حكم عليه بأنه مجتمع فاسد لمخالفته لإرادة الله ، وترك الشريعة السماوية ، وما قوم لوط ولا قوم عاد ولا قوم ثمود ولا قوم فرعون . . . منا ببعيد .

الأولاد :

ـ الأولاد يا جد ثمرة حياة الإنسان في العائلة ، وغاية الإنسان من الحياة ، ولذته في هذه الدنيا . . . ومحاولة الإنسان في الحصول على هذه اللذة ، والاحتفاظ بها ، ورعايتها ما عاش ، والبذل في سبيلها . . . تجعله مقيداً كل حياته بقيود قوية لا هو يفكر في الخلاص منها ، ولا هو ـ إن فكر ـ يستطيع تحقيق هذا الخلاص .

● إن حديثك عن الأولاد يا بني حديث إنسان لا خبرة لـه في هذا المجال . وأنت كذلك . فأنت عندما تنظر إلى الموضوع من بعيد يُخَيَّلُ إليك ما ليس في الحقيقة ، فتعطي أحكاماً هي إلى الوهم والتصوّر أقرب منها إلى الواقع ، وهذا موقع كل إنسان يرى الأشياء من بعيد ، فإذا عاينها وعاشها وخبرها يتغير رأيه وتتبدل أفكاره . ونظرتك إلى الأولاد كنظرتنا إلى إنسان يتسلق جبلاً : نقف في أسفل الجبل وننظر إلى أعلى فيأخذنا الوهم ونخاف ونشفق على من يفكر في تسلقه وإذا كان شخص ما قد شرع في تسلق هذا الجبل فإنه يثير شفقتنا أكثر ، ونبدأ نتخيل كم عانى من المشاكل ، وكابد من المتاعب وشقي وتعثر وزلت به القدم وتألم . . . في سبيل الوصول إلى حيث وصل ، ويزداد إشفاقنا عليه أضعاف الأضعاف عندما نقدر المسافة التي تفصله عن غايته . أما هو فإنه قد استحالت عنده المتاعب لذة عارمة لا يمكنه أن يعبر عنها وشعر ـ وقد حقق جزءاً من حلمه أو حلمه كله ـ بلذة الانتصار وعزة التفوق ، والتميّز على سواه بأنه استطاع أن يحقق ما لم يحققه سواه ، وما لا يستطيع الكثيرون أن يحققوا مثله . هكذا ينظر الناس إلى الأولاد فيتوهمون مقدار ما يجب على الإنسان أن يبذله حتى يكوّن عائلة وينشيء أولاداً ، وقد يضعف أمام هذا الوهم كثيرون فلا يقدمون . ولكن الحقيقة يا بني أن الإنسان ـ وإن كان يتعب في تربية الأولاد ـ لأن هذه التربية تقتضي منه جهوداً كبيرة في الأصل ، فإن هذا الإنسان لا يحس بالتعب عندما يرى نتيجة تعبه ماثلة أمام عينيه في ما يلقاه أمامه قائماً من إنسان مثقف فاضل ، ويكون عضواً صالحاً في مجتمعه وأمته . وقد يكون عبقرياً أو رجلاً عظيماً في شعبه ، وهذا الشعور وحده يكفي لينسي الإنسان متاعبه ، فكيف إذا كان « الولد » الذي تربيه قد صار قادراً على التعويض على والديه أضعاف ما بذلوه من أجله . والحقيقة الأهم من كل هذا يا بني أن الإنسان يشعر عندما يربي ولداً أنه يحقق ذاته في عملية تكامل

طبيعي في الحياة ، فكل شجرة لها ثمرة . من حيث المبدأ ـ وسوف يأتي يوم تثمر هذه الشجرة بعد أن تزهر . فإذا سألتها أن لا تثمر فلن تستجيب لك ، وإن سألتها عن تعبها من حمل ثمارها لأجابتك ـ لو كانت تجيب ـ ساخرة من سؤالك ، مؤكدة لك أن هذه الثمار لآليء وجواهر تتزين بها ، وأنها ما وجدت إلَّا لتلك الغاية . وثاني الأمور يا بني في هذا المجال أن هناك نوعاً من التكامل بين عناصر الوجود إذ يكتمل بعضها ببعض ، ويستفيد بعضها من بعض ، ويعيش بعضها على حساب بعض ـ هكذا خلقها الله ، وهكذا تستمر . والمخلوقات ما إن تنفصل عن مصدر ولادتها حتى تجد لها في الخليقة الجو الملائم الذي يحتضنها ويطعمها ويحفظها حتى تبلغ غايتها . فلو نظرت إلى البذور في الأشجار وإلى بيوض الطيور لوجدتها تخضع لهذا المبدأ ، وإن كان بعضها يحتاج إلى بعض الاحتضان والحماية ، فإذا انتهت هذه الفترة وجدت الطيور طعامها في كل مكان ، وكذلك شرابها ومأواها . ومثلها الإنسان ، فإنه قادر على أن يجد في الحياة ما يؤمن له استمرار العيش . وفي الشريعة يا بنيّ أن الخلق كلُّهُم عيال الله ، وأن الرزق كله لله وعليه، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب[1]، وأن رزق الناس في السماء . . ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾[2]، والناس: الآباء والأمهات . . . ما هم إلَّا وسائط لهذا الرزق ، والله تعالى لا يضيّع مخلوقاً خلقه . فصار الأهل واسطة للخلق ، والخلق لله ، والرزق عليه . وكل شيء عنده بمقدار . وإذا كان هناك فرق بين اثنين واحد يخلق في بيئة غنية فيجد كل ما يريده حاضراً سهلاً ، وواحد يولد في بيئة فقيرة فيشقى في سبيل الحصول حتى على الضروري من العيش ، إنما العبرة في النتيجة أنهما ـ كلاهما ـ يصلان إلى الغاية المرجوة ، وقد تتغير الأحوال ، فيصير الفقير غنياً ، والغني فقيراً . . وما يدريك ؟!

ـ على أن المشاهد أن كثيراً من العائلات تنوء بأعباء الأولاد فلا تستطيع حملها ، ويبقى الآباء في حالة شكوى دائمة ، وحالة معاناة قد تنتهي وقد لا تنتهي ، إذ يبقى الأهل يحملون مسؤوليات أولادهم كباراً كما يحملونها وأولادهم صغار ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢١٢) .

(٢) سورة الذاريات ، الآية : (٢٢) .

ومنهم من تستمر معاناته حتى الممات فتصير العائلة والحياة في العائلة قيداً يكبل الإنسان كل حياته .

● صحيح ما تقول يا بني ، ولكن الموضوع يتعلق بالإنسان وطباعه أكثر من تعلقه بالعائلة . فعند بعض الناس ميل للحزن والكآبة والشكوى حتى أنهم لا يعرفون غير الشكوى ، وصاروا بارعين فيها بمقدار كبير ، أو كأنها صارت لذتهم الكبرى ، فيأنسون بها ، فيكون ظاهرهم الشكوى ، وشكلهم الحزن ، ولكنهم في الحقيقة لا يعانون بمقدار ما يصفون من أوضاعهم السيئة ، أو هي ليست سيئة بمقدار ما يصفون . ومن الناس من لا يشكر الله على نعمه ، أو من لم يتعود على شكر الله ، أو من عاش هاجس الخوف من الجوع والفقر والفاقة ، فمهما حصل عليه من الخيرات ومن رزق الله تجده يطلب المزيد فلا يشبع ولا يرتوي . ولو أنه آمن بالله حق الإيمان لخفف عن نفسه كثيراً من هذه الهموم والهواجس ، وكل هذه الشكوى ليس سببها الحاجة ، بل سببها قلة الثقة بالله وقلة الإيمان بعطائه . وفي الحديث الشريف : « **لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خماصاً وتعود بطاناً** » . والإنسان المؤمن لا يخاف جوعاً ولا فقراً ، ولا يخاف حاجة ةلا فاقة . بل تراه باشاً مستبشراً بنعمة الله . وهذا يعيش بإيمانه حياة هانئة مطمئنة فلا يشكو ، وإن شكا فليس لغير الله . ومن واجب الإنسان أن يعرف مع من يتعامل ، فإذا عرف وكان على يقين مما يعرف تسهل عليه الأمور ، وتقل عنه المعاناة . وكم لله تعالى من نِعَمٍ على الناس ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى** . . . ﴾[1] . وهؤلاء البكّاؤون أو النوّاحون يصير البكاء والنواح والشكوى ترافقهم حتى بعد أن يكبر أولادهم ، وبدلاً من أن تتحسن أوضاع العائلة ويرتاح الأهل إذا بالأمور تزيد تعقيداً في نظرهم ، ويستمرون في الشكوى بلا سبب . ولو كانوا مؤمنين ، مفكّرين ، مدبّرين واعين لواقع الحياة ، قادرين على مواجهتها لكان أسلوبهم في الحياة قد تغيّر من الشكوى إلى التفاؤل لأن الإنسان لو نظر حوله في عطايا الله ونعمه ، لوجدها لا تعد ولا تحصى ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[2] ، ولفرح بها دون أن يحزنه

---

(١) سورة الضحى ، الايات : (٦ و ٧ و ٨) .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : (٣٤) .

الناقص من هذه النعمة ، وقد يكون في طريقه إليه . والـذين تستمر معـاناتهم حتى الممـات أناس فقـدوا شيئين : فقدوا الثقـة بالله والإيمـان بعطايـاه ، كما فقـدوا لذة الشعور بنعم الله وبالحياة ومباهجها ، فيقضون حيـاتهم في خوف وقلق ، ومـا سبب ذلك الأولاد بل سببه شعور بعدم الكفاية النفسية وعـدم الطمـأنينة . ولعـلّ ذلك من أفتك الأمراض بالإنسان ، ولعله من أشد أنواع غضب الله تعالى على الإنسان أن لا تكفيه نعم الله التي تحيط به ، أو أن لا يعرفها نعمـاً ، فيشقى ما عـاش . والشكوى طبع في الإنسان بصورة عامة ، لا يهذبـه إلاَّ الإيمان بـالله والعقيدة الـراسخة بفضله ونعمـه فلتكن ثقتك بـالله يا بني طـريقك إلى الـطمأنينـة في حياتـك ، ولا تكن من البكّائين الناعبين الذين تسودّ الدنيا في وجوههم ، ويسوّدونهـا في وجوه الآخـرين ، وهم لا يدركون معنى ما يفعلون ، كالغراب الذي ينعب ويظن أنه يطربك بصوته الذي يظنه أجمل الأصوات .

ـ ولكن قد تكون هناك مشكلة فعلية في بعض العائلات التي يكثر عدد أفرادها وتـظل مداخيـل رب العائلة ضعيفـة لا تكفي ، ويبقى الأهل يعيشـون حسـرة قـد لا تنتهي ، ويعيش الأولاد تعطشاً للنعمة ورغبة فيها ، وحسداً لمن يملكها ، وقد يقتلهم هذا العطش أو أنهم يشربون ماءً آسناً غير مصفىً وغير نظيف .

● الأولاد يـا بني هم عصب الحياة ، وبهم تتجـدد ، ومن دونهم تفنى ، وقد صار الأولاد أهم غايـة من غايـات العائلة . والبعض يعتبـرهم أهم غايـة من غايـات الزواج ، وزواج لا يقصد منه إلى إنجاب الأولاد جعله بعضهم في منزلة الزنى . أما عدد الأولاد فقد ورد في بعض الأحاديث ما يستفاد منه حثّ الناس ـ المؤمنين ـ على الإنجاب ، كما ورد في الحديث الشريف : « **تزاوجوا ، تناكحوا . . . فـإنني أباهي بكم الأمم يوم القيامة** » . وقد نهى الله تعالى عن قتل الأولاد في مواضع كثيـرة فقال تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئـاً كبيـراً** ﴾[1] مما يفيـد أن هذه المسـألة ـ قتـل الأولاد ـ قد بلغت درجـة من الخطورة الاجتماعية حتى عالجها القرآن الكريم ، ونهى عنهـا ، وسببها كـان الفقر ، وجعـل

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٣١) .

القرآن الكريم حلّها عند الله عندما جعل الرزق عليه ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ . ولعل الأمر يختلف بين الإنسان المؤمن والإنسان غير المؤمن ، ففي حين نجد نهياً للمؤمنين عن قتل أولادهم نجد قوله تعالى : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجراً كفّارا** ﴾[1] . فصار الكفر سبباً للدعاء بفناء الكافرين لما ينتج عن كفرهم من فسادٍ للمجتمع . فإذا كان الإنسان مؤمناً إيماناً حقيقياً كان عضواً صالحاً في مجتمع صالح . وهذا المجتمع الصالح قد نظّمه الله تعالى وحصّنه من كل النواحي وبكافة التحصينات ، بحيث لا تجد فيه ثغرة مهما كانت صغيرة . حتى من الناحية الاقتصادية فإن الإسلام قد نظم المجتمع اقتصادياً بحيث لو كان الناس جميعاً مؤمنين يقوم كل منهم بفرائضه الدينية ودفع الحقوق المتوجبة عليه في أمواله ، ولو كانت هذه الحقوق تصرف في أبوابها الصحيحة ، لما بقي في المجتمع كله إنسان فقير ولا محتاج . ومهما بلغ عدد الأولاد فلن يكون في ذلك ضرر بل قد يكون في خير المجتمع المؤمن والعالم كله ، أما الدعوة إلى تحديد النسل ـ بمختلف أشكاله ـ فمنه ما يشكل جريمة حقيقية ، وهي جريمة قتل النفس التي حرّم الله قتلها ﴿ **من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً . ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾[2] ، وعليها عقاب . وأما بقية أنواع تحديد النسل وإن كان يراها بعض علماء الاجتماع حلاً لبعض المشاكل الاجتماعية ـ وقد تكون كذلك في بعض المجتمعات القائمة ـ فإن البعض يقفون فيها موقفاً حذراً ولا يقرونها ، ويعتبرونها خروجاً على الإرادة الإلهية ومخالفة لإرادة السماء . والذي أراه أن مجتمعاتنا كلها اليوم مجتمعات ناقصة إن لم نقل فاسدة . والنقص فيها نقص في النظرة الحقيقية إلى الواقع الإنساني ونقص في تطبيق الشريعة في كل أمورها والاقتصادية منها بصورة خاصة ، وعدم إقامة المجتمع الصحيح اقتصادياً واجتماعياً وصحياً . ولعل المشكلات التي ترزح تحت أعبائها مجتمعات اليوم ـ على اختلاف أنواعها ـ هي التي جعلت إقامة المجتمع المثالي الفاضل غير ممكنة ، وفرضت على الناس الاكتفاء بتدابير جزئية مؤقتة تحل مشكلات

---

(١) سورة نوح ، الآيتان : (٢٦ و ٢٧) .

(٢) سورة المائدة ، الآية : (٣٢) .

جزئية ومحددة على أمل التقليل من المشاكل قدر الإمكان . هذا مع الإشارة إلى أن بعض الدول وبعض المجتمعات لا يشكل عدد الأولاد فيها مشكلة ، بل هي تتحمل مسؤولية الأولاد جميعهم ، وفي جميع مراحل حياتهم ، وتحل المشكلات الاجتماعية وتقدم ضمانات متنوعة ومتعددة . . . ومنها ما يشجع العائلات على إنجاب الأولاد ، وتبدأ برعاية الولد جنيناً ، وتكافيء الأهل مكافآت مختلفة على الإنجاب . ولعل فساد الأنظمة الاقتصادية في كثير من المجتمعات هو الذي جعل المشكلة الاقتصادية في هذه المجتمعات تتفاقم ، وكان الحل عندها : تحديد النسل . وهو حل خاطيء بدون شك. ولو أن هذه المجتمعات حلت ـ مثل هذه ـ مشكلاتها، والمشكلة الاقتصادية في الأساس لما شعر الأولاد بتعطش للنعمة ورغبة فيها تفسدهم وتجعلهم يقدمون على المحرمات (وشرب المياه الآسنة غير المصفاة) بل كانوا يلجأون إلى الحلال ، لأن طرقه معروفة ، وأبواب الكسب الحرام مقفلة أو لا يجدون ضرورة في لسلوكها .

ـ ما زال حديثنا عن الأولاد بصورة عامة . ولكن إذا نظرنا في الأولاد لجهة جنسهم لرأينا البنت عبئاً ثقيلاً ، ليس لما تحمّله لأهلها من مسؤوليات مادية ، بل من مسؤوليات معنوية ، حتى صارت بعض الكلمات كالعيب والعار والهم مرادفة لأسماء البنات وتابعة لها . ولا يستطيع أحد أن يخلص من هذه الأمور ويعيش خارج نطاق هذه المفاهيم ، وحتى صار « هم البنات حتى الممات » كما يقول المثل العامي .

● هذا كلام خاطيء في الأصل وإن كان صحيحاً في مجتمعاتنا اليوم . أفلا ترى كثيراً من البنات والنساء كانت الواحدة منهن مثال التقى والأخلاق العالية ، وكانت مفخرة للعائلة كلها ، كما كانت مصدر سعادة أهلها تحمل أعباء الكثيرين في العائلة ، وتسهم في تحصيل المال وتأمين واردات مشروعة ومفيدة للعائلة ؟! ثم ، أفلا ترى أن كثيرين من الأولاد والرجال كانوا وبالاً على أهلهم وعائلاتهم ومصدر قلق وشر واضطراب وفوضى في العائلة وفي المجتمع ؟! إذن فالموضوع موضوع إنسان صالح أو إنسان فاسد ، سواء أكان رجلاً أو امرأة . وتلعب التربية دوراً أساسياً هنا . والتربية الصالحة هي الفصل في هذا المجال وإن كان وضع الأنثى ـ بما هي أنثى ـ لضعفها وعاطفتها ونظرة الناس إليها ـ قد تكون مصدر إزعاج للعائلة إذا هي أخطأت أو إذا افترى عليها الأفراد ، وهي لا تستطيع أن تمنع الافتراءات عنها أحياناً ، وطبيعي أن

تقل هذه الإزعاجات في المجتمعات المتحضرة . ونحن اليوم نرى الفتاة ـ عن طريق العلم والخروج إلى المجتمع ـ قد صارت أقوى شخصية وأقدر على المواجهة مواجهة المجتمع والرجل ، وأعرف لحقوقها ، وأحفظ لهذه الحقوق وأقدر على القيام بواجباتها من ذي قبل . وقد أفادها تسلحها بالعلم والثقافة . . . لأن لمجتمعاتنا اليوم أخطاءها ومشاكلها التي تنعكس على الجميع ، وعلى المرأة أيضاً . وفي ما أقوله دليل على أن الناس في المجتمع صنفان : إنسان مؤمن (رجلاً كان أو امرأة) مثقف مدرك مهذب نافع . . . وإنسان فاسد متلف متعب مزعج . . . وهو وبال على نفسه وعلى الناس . فلنعمل على أن تكون فتياتنا من الصنف الأول . وأظننا نقدر على ذلك . وما هو سائد في مجتمعاتنا اليوم من النظرة إلى المرأة ما هو إلَّا أفكار متخلفة لا يمكن الإقرار بها .

ـ أنت توافق على تحرير المرأة إذن ؟ وأن تنال حقوقها كالمرأة الغربية ؟

● لقد اعتاد الناس يا بني أن يستعملوا كلمات معينة للدلالة على حالة أو حالات معينة . وقد تُحَمَّلُ هذه الكلمات أكثر مما تحمل ، وتعطى من الأهمية أكثر مما لها ، ويعيش الناس بسببها في وهم قد لا يفيقون منه . ومن ذلك كلمة « تحرير » المرأة . حتى صار يخيَّل إلينا أن المرأة أسيرة الرجل مستعبدة له ، وهو الظالم والطاغية . . . وفي رأينا أن الرجل هو الذي يجب أن نحرره أولاً من أوهامه وهواجسه وأفكاره ونظرته الخاطئة إلى المرأة . وإذا كان الضرر يقع على المرأة من الحال التي يعاني منها الرجل فالمرأة ضحية وليست هي المقصودة لذاتها . ومثلها ضحايا كثيرة ، وبين الضحايا رجال أيضاً تقع عليهم نقمة الرجل الأقوى وتسلطه وفساده . وإذا كان العلم يحرر الإنسان ، فإنه يحرر الرجل والمرأة على السواء . يحرر الرجل من الخرافات ومن أسطورة التفوق التي يعيشها ، ووهم الأفضلية التي لا يستحقها ، ومن نظرته السلبية إلى المرأة . . . كما يحرر المرأة من التخلف والخضوع والخنوع والاستسلام للرجل ، والاقتناع بتميّزه عليها في العقل والفكر والمركز . . . وإذا كان العلم يحرر المرأة فإن هذا التحرير يجب أن يبقى ضمن نطاق الحقوق السليمة والنظرة الصحيحة والواقعية للأمور ، ودون أن يكون التحرير وسيلة للتفلّت والسير في طريق الشر . . . لأن بعض الحريّة يقطع صلة الإنسان بالحياة والحقيقة فتصير حالة

الحرية حالة ضياع ، ويصير الإنسان المحرّر كبعض الكواكب التي انقطعت الصلات التي تربطها بالكواكب الأخرى فتحررت ، ولكن تحررها كان ضياعاً في متاهات الفضاء ، وقد لا يكون بعد ذلك الضياع رجوع بل تحطم وتبعثر وذوبان واضمحلال .

ـ ولماذا يتمنى الناس أن يكون لهم صبية وليس بنات ؟ ومن لم يرزق صبية يبقى يشعر بشيء ينقصه ما عاش ؟

● هذا من القيود الاجتماعية والنفسية التي تقيد بها النفوس الضعيفة يا بني ، وكذلك الناس الذين ما زالت في أذهانهم فكرة عن تفضيل الذكر على الأنثى وذلك انطلاقاً من نظرة عصبية واقتصادية سيطرت ـ منذ القديم ـ على بعض المجتمعات ، وبقي الناس رهائن لها ورهائن للظروف الاقتصادية والإنسانية والجغرافية التي تحيط بهذه المجتمعات . فبعضهم يرى أن الصبي قد يكون مصدراً للرزق ـ رزق العائلة ـ عندما يكبر ويمكن أن يساهم في إنتاجيتها عن طريق ما يمكن أن يقدمه من خدمات مفيدة مثمرة ولو صغيراً ، فيرعى ويحتطب ، ويقاتل في سبيل العائلة ويدافع عنها . . . في حين أن البنت لا تستطيع أن تقوم بهذه الأعمال بنفس القدرات وبنفس نسبة الإنتاج التي يقدمها الصبي . ثم إن البعض ما زال يعتبر البنت مصدراً للعار والخيبة . وخوفاً من هذا العار وهذه الخيبة فإنه يرى في ولادتها شؤماً عليه، ويتمنى لو كانت صبياً ، وكثيراً ما يتصرف بعض الوالدين ـ وبخاصة الرجال ـ تصرفات مخجلة عندما تولد لهم أنثى ، وإذا تحدثت بهذا الحديث تسمع روايات وروايات لا حد لها في هذا الموضوع . وسببه عندي عدم تقدير صحيح للواقع ، وتخوف من شيء قد لا يقع إذا نحن أحسنّا تربية الفتاة . ومنهم من يرى في الصبي امتداداً للعائلة ، واستمراراً للذّكر يستمر في الصبي وينقطع مع البنت ، لأن البنت ليست لأهلها فهي لزوجها وأولادها ، حتى الاسم ـ اسم العائلة فإنها تستعيض عنه باسم الزوج وعائلته . كان هذا في الجاهلية ، واستمر في المجتمع الإسلامي ، وما زال في مجتمعاتنا الحاضرة ، برغم أن الإسلام قد بيّن ذلك الأمر بوضوح تام ، وجعله منوطاً بالإرادة الإلهية الذي **﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً ﴾**[1]. وقد يكون تخصيص إنسان بالإناث من باب رأفة

---

(١) سورة الشورى ، الآيتان : (٥٠ و ٥١) .

الله تعالى به ورحمته له . إذ يكون قد خصّه بمن يحفظه في كبره ، ويعطف عليه ويحنو ، كما قد يكون ـ بحرمانه من الصبية قد نجّاه من شر كان محدقاً به . وفي قصّة الخضر عليه السلام مع الولد الذي قتله عندما كان النبي موسى (ع) برفقته كما أشار إليها القرآن الكريم[1] ما يفسّر ذلك . أما موضوع استمرار العقب في الذكور وحدهم فإن هذا أمر باطل بدليل أن القرآن الكريم قد حارب هذه الفكرة على نحو ما ذكره مما جرى مع النبي ﷺ وورد في سورة الكوثر من قوله تعالى : ﴿ **إن شانئك هو الأبتر** ﴾[2] . وإذا كان لهذا الأمر ما يفسره من الحديث الشريف عن النبي ﷺ في الحسن والحسين (ع) عندما قال : « **كل ولد تكون عصبته لأبيه ، إلَّا ابنيَّ هذين** » . ومن هنا فهما : ابنا رسول الله ﷺ . فإننا نزيد على ما قدمناه : إن الاهتمام بالعصبة يمكن اعتباره نوعاً من خوف الإنسان من الموت والفناء ، وما تمسكه بالذكور من الأولاد إلَّا نوع من تشبثه بالحياة ومحاولة الخلود . وبرأينا أنها كلها محاولات باطلة بدليلين :

١ ـ لو افترضنا أن هذا الخلود يحصل للإنسان فإنه مؤقت لا يلبث أن ينتهي بعد جيل واحد ، وعلى الأكثر بعد جيلين . وحجته أننا لو رجعنا إلى أنفسنا لوجدنا أن الواحد منا قد لا يعرف اسم جدّه ، وبالتأكيد لا يعرف اسم جدّ أبيه ، وإن هو عرفه فهذه المعرفة كثيراً ما لا تتعدى الاسم ، حتى أن هذا الاسم صار لا يعني لنا شيئاً . فصار الإنسان يعيش في وهم الخلود الذي لن يحصل عليه .

٢ ـ ودليلنا الثاني أن الإنسان بعد موته لا ينفعه شيء إلا عمل صالح أو ولد صالح أو صدقة جارية . فهذه المنفعة تقسم إلى قسمين : العمل الصالح والذرّية الصالحة . ومن يقول إن الذرّية الصالحة لا تكون إلَّا في الذكور ؟ ثم لو أن بنتاً دعت لوالديها ، وتصدّقت عنهما . . . فهل أن دعاءها وأعمالها لا تستجاب ؟! وما يكون خلود الذين يخلدون من الناس إلَّا لأنهم ـ هم شخصياً ـ قد قاموا بأعمال الخير والبطولات . . . وتركوا الآثار التي تخلدهم . وإذا كان في يوم الله ـ يوم القيامة ـ ﴿ **لا**

---

(١) سورة الكهف ، الآيات : (٧٤ و ٧٩ و ٨٠) .

(٢) سورة الكوثر ، الآية : (٣) .

ينفع مال ولا بنون . إلاَّ من أتى الله بقلب سليم ﴾[1] بماذا يفيد الذكور أو الإناث ؟! ولمّا لم يكن للإنسان في آخرته إلاَّ عمله فصار كل ما يعيش الناس في ظله من هذه المفاهيم أوهاماً وأباطيل ، والسعيد في الدنيا والآخرة من إذا رزقه الله ولداً ـ ذكراً كان أو أنثى ـ يقوم بواجبه نحوه ، صغيراً وكبيراً ، ويعتبره نعمة من الله تعالى أنعمها عليه ، وأمانة ائتمنه عليها ، وعليه ـ على الإنسان ـ أن يحفظ هذه الأمانة ويقوم بواجبها . فإن هو فعل كان سعيداً في الدنيا والآخرة .

ـ ولكن بعض الناس قد يرزقون بأولاد معاقين فيحملون العبء كل الحياة ومنهم من يفجعون بأولادهم فيتألمون ما عاشوا ، وفي كلتا الحالتين هموم يحملها الإنسان وتكبّله ما عاش .

● هذا موضوع يتعلق بوضع الإنسان في الحياة وكون هذا الإنسان موضع ابتلاء من الله تعالى واختبار ، كما قد يكون فعلاً من أفعال الحياة ، وفي هذه الحالة أيضاً نوع من الاختبار ليعلم الله الصابرين[2] فموضوع ولادة إنسان معاق قد يكون بإرادة إلهية ، وإرادة الله تعالى فوق كل أرادة ، وإن كنا لا نستطيع تحديد وقتها وموضوعها ومداها . . . وقد تكون هذه الإرادة التي تأتي نتيجتها في الظاهر شراً للإنسان رحمة به من عند الله تعالى ، لأن الولد المعاق لو كان على غير ما هو عليه فمن يدري ما قد يجره من الشر على أهله أو على نفسه أو على المجتمع ؟ فتكون المصيبة التي تحل بهذا الإنسان نوعاً من حماية له ، إذ لا يعود عليه حرج[3] ، كما قد تكون حماية لوالديه[4] ، وقد يكون حماية للمجتمع فلا يبتلى الناس بشروره . وقد تكون الإعاقة فعلاً من أفعال الحياة ، وكما ورد في القرآن الكريم في وصية لقمان عليه السلام لابنه **﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾**[5] . ونفهم من هذا أن الأمور

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : (٨٨ و ٨٩) .

(٢) سورة محمد ، الآية : (٣١) .

(٣) سورة النور ، الآية : (٦١) .

(٤) سورة الكهف ، الآيات (٧٤ و ٧٩ و ٨٠) .

(٥) سورة لقمان ، الآية : (١٧) وآل عمران ، الآية : (٨٦) والشورى ، الآية : (٤٣) .

تتفاعل في هذه الحياة فيؤثر شيء في شيء . كأن يكون الولـد جنيناً ويتـأثر بمـرض يصيب الأم أو بدواء تتناوله الأم أو . . . فتنتج عن ذلك عِلّة . وقد تكـون هذه أيضـاً اختباراً للإنسان ، ولكن لو أخذناها كفعل مجرد عن فكرة الاختبار الإلهي ، وحصل للإنسان سوء ما ، فهو مطالب بـالصبر ، والله تعـالى يوفي الصـابرين أجـورهم[1] ، والذي يؤكد ما نذهب إليه يا بني أنه ليس من الضروري أن يخلق الولد معاقاً فالإعاقة إصابة بمرض قد يصيب الإنسان قبل ولادته ، وقد يصاب بمرض ما بعد ولادته فيصير معاقاً ، أو قد يصاب بحادثة ما تؤثر في كـل قواه ومـداركه وتغيـر حياتـه . وكما أنـه مفروض بالإنسان أن يصبر على هذه المصيبة فإنه يفرض فيه أن يصبر على بلوى الله تعالى إذا رزق ولداً معاقاً بالولادة ، وإذا كان الناس يحاولون التخلص من هذا الواقع المرعب المخيف بقتل الولد المعتوه قبل ولادتـه ـ وهذه جـريمة طبعـاً لأن فيها قتـلاً للنفس ـ فهل ما يضمن لهم استمـرار الولـد سليماً في حيـاته ؟ وإذا هـو أصيب فهل يمكن التخلص منه والقضاء على حياته ؟ وهل يحكم بذلك أهل الفتوى ؟ وماذا يكون موقف الوالدين أمام هذا الواقع ؟ ليس لهم إلاّ الصبر . وقد يموت الولد بسبب ما ، صغيراً أو كبيراً ، وفي كل الحالات يكون موته فاجعة تهز الأهل وترهقهم ، ولما كانت الأعمار بيد الله ، وهو قادر على أن يفعل ما يشاء ، ويعرف كـل شيء ، وتأثيـر هذه الأحداث على الناس فصار الصبر على قضـاء الله وقدره هـو المقياس . والله تعـالى كفيل بتعويض ما يصاب به الإنسان في هذه الحياة من نكبات تهزه وتؤذيـه وتؤلمه ، أما الثواب فهو على مقدار الصبر ، والله تعالى وحده هو الذي يقدره . وإن كان الثواب في بعض الحالات معروفاً كما لو مات طفل صغير ، فقد ورد في الحديث الشريف أن هذا الطفل ـ ومصيره إلى الجنة لأنه لا يعرف الآثام ولم يرتكبها ـ يقف أمام باب الجنة ولا يدخلها حتى يدخلها أبواه قبله . وهذه المكـافأة لـلأهل على فقـد ولد نـوع من تعويض معنوي ـ في جملة تعويضات قد يلقاها الإنسان الصـابر المؤمن ، ومنهـا أن يخلفه الله تعالى بولد آخر صالحٍ مؤمن . . . وكل هذه التعويضات من باب تـرغيب الإنسان بالإقبال على الحياة والمحافظة عليها وتحمل مشقاتها ومتاعبها ، والأعباء التي تنتج ـ للأم والأب ـ عن الحمل والولادة والتربية والعناية والرعاية . . . ولو كانت هذه

---

(١) سورة الزمر ، الآية : (١٠) .

كلها تبقى دون تعويض ـ في الدنيا والآخرة ـ ولو كان الإنسان ينـظر إلى ما يمكن أن يلحق به من خسارة بفقد ولد ربّاه ثم خسره . . . لما أقدم أحد على الإنجاب ولا على تربية ولد . فإذا كانت هذه الهمـوم التي تلحق الأهل بسبب الأولاد قيـوداً في الحياة فإنها اختبار أيضاً لقدرة الإنسان على الاحتمال وهي تطهيـر للإنسـان من الذنـوب ، وارتقـاء به في عـالم الفكر فيصبح أقرب إلى الله ، وأبعـد عما يـربطه بعـالم المادة والأرض . . . وهي بذلك تحرير للإنسان من قيوده لا تكبيل له .

* * *

- ٣ -

الإنسـان والمجتمع

الصـداقـة :

ـ كثيـراً ما يتحـدث الناس عن الصـداقـة يـا جـد ، وعـن صـلات تقـوم بين الأصدقاء ، وقد تقوى هـذه الصداقـات بينهـم فتبلغ حداً كبيـراً من العمق ، ويتبادل الأصدقاء المـودّة والخدمـات ، ويعيشون في نـوع من الطمـأنينة وراحـة البال . ولا أجدني اهتديت بعد إلى صديق أصطفيه وأثق به . فهل تعتبر هذه مشكلة عندي ؟ وما سبب ذلك ؟ وهل أنا الذي فشلت في كسب الأصدقاء أو أن لا صداقة ولا أصدقاء في الحقيقة ؟!

● يحضرني في هذا المجال قول للإمام علي (ع) يـا بني : أعجز النـاس من عجز عن اكتساب الأصدقاء . وأعجز منه من ضيّـع من ظفر بـه منهم ، ولكن دعني أقول لك يا بني : لا صداقة اليوم ، ولا أدري ما إذا كنت أبالغ إذا قلت أن لا صداقة مطلقاً بين الناس . ذلك أن الصداقة تشتق من الصدق ، والصدق اليوم لا وجود له في الناس ، وقديماً قليلاً ما كان موجوداً فيهم . والصداقة معناها أن يخلص الإنسان إلى صديقه إخلاصاً لا يخدعه بعده ، ولا يغشّه ولا يبوء به . . . يحسبه مثل نفسـه ، بل يقدّمه عليها ، ولا يبخل عليه بالمـال ولا بالـروح . وقديمـاً قال ابن المقفـع : ابذل لصديقك مالك ودمك . وإذا كان ابن المقفع قد حاول أن يفعل ببذله ماله ودمـه في سبيل صديقه عبد الحميـد الكاتب عنـدما كـانت سلطات الأمويين تـلاحقه وتحـاول القبض عليه ـ حسبما تروي القصة المعروفة ـ فهل تجد كثيـريـن ممن يبذلـون مالهم ودمهم لأصدقائهم ؟! لا أظن ، ذلك أن المال عندنا وفي زمننا صار « معادلاً للروح »

و « من أخذ مالك خذ روحه » وفي أجواء العقيدة القائلة : « بعـدك يا روحي مـا في روح » لا يعود مجال للقول ولا للتفكير بأن صداقة حقيقية تقوم بين الناس . بل هي صداقات مشوّهة ، ويسميها الناس صداقات . ذلك أن الناس قد درجوا على تسمية الأشياء بغير أسمائها ، فكما يسمون الاحتيال شطارة والقتل شجاعة والوقاحة جرأة ، والبلادة فكراً وعقـلاً . . . وهكذا ، فقـد صارت كـل صلة بين اثنين صداقـة ، وكل معرفة صداقة ، وصارت الصداقة خدمـات متبادلـة ولو على حسـاب الحق والقانـون والفضيلة . وإذا كان القلائل ـ إذا وجدوا ـ يخلصون في صداقتهم ، فإنّ قلتهم تجعل الصداقة من بين العلاقات النادرة الوجـود بين الناس ، ومن العـلاقات المثـالية التي صارت شبه وهـم وبخاصة في مجتمعـات اليوم التي أغـرقت في الماديـة . وذلك أن الصداقة صلة روحانية بين اثنين ، ولا تتأثر بالمادة ، ومحبّة مخلصة لا تبغي مصلحة ولا منفعة ، ومثل هذه الصلات يحلم بها بعض الناس في جملة مـا يحلمون بـه من الفضائل ودون طائل .

ـ أنا محق في ما أقوله إذن يا جـد ، فلا محلّ للصداقة اليوم ، وأن لا يكون لي صديق فذلك طبيعي في نظرك ؟

● لا يا بني ، أنت لست محقاً في ما تقول وإن كان من الواقع الذي نعيشه ما يبرر واقعك هذا . فأنت تعرف أن المثال وما يجب أن يكون شيء والواقع شيء آخر . في المثال إن الصداقة شيء جميل ، وأنه صلة روحية بين اثنين لا ألـذ ولا ألطف ، وأنه واقع طيّب تشعر معه بشيء من الأمان والراحة النفسية ، وتحس بقيمـة الحياة ، وبأن المادة لم تأخذ معهـا كل شيء ، وأن هنـاك أناسـاً ما زالـوا يفكرون بـالمُثُل ، فيلتقون بالروح لقاء تقل قيمة المادة عنده ، وتصير هذه المادة وسيلة للسعادة ـ سعادة الإنسان نفسه والآخرين ، وإذا كثرت الصداقة وانتشرت بين الناس أدى ذلك إلى قيام سعـادة تـطال المجتمـع كله فيصيـر سعيـداً ، ويعيش النـاس فيـه أخـوة ويعم بينهم السلام ، إذ أن هذه الصداقة تمتد من الصديق إلى صديقه ، وصديق الصديق . . . في سلسلة لا تنتهي من التعارف والتحابّ والتآلف والمودة ، وبهذا يكون المجتمـع الصالح ، وحبذا لو يتحقق هذا يا بني . ولكن لمّا كان « ما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه » كما في الحديث الشريف فهذا معناه أن الصداقة الضعيفة ، أو الصداقة المشوّهة تبقى

أفضل من العداوة التي تقوم بين الناس ، وصارت الصداقة نوعاً من التعارف الذي يمهّد الطريق إلى الصداقة ، وهو أفضل من التباعد الذي ينتج عنه جفاء وتحجير للقلوب . فأنت مدعو يا بني أن تسعى وراء الصداقة مبتدئاً بأولى مراحلها وهي التعارف ، وقد يصل بك التعارف إلى الصداقة الحقيقية أما اتخاذ موقف مسبّق بأن الصداقة بين الناس مستحيلة ، والناس جميعاً أهل منفعة لا أهل صداقة ، فهذا ما لا يجوز لك أبداً .

ـ عجيب حالي معك يا جد ، بينما تقول : إن الصداقة صار وجودها نادراً بين الناس ، وأن لا صداقة حقيقية اليوم ، وأن الصداقة صارت وهماً . . . تأمرني بالسعي وراء الصداقة ، فكأنك تطلب مني السعي وراء وهم لا يُدرك .

● يا بنيّ إذا كنت حريصاً على إيصال خبرتي في الحياة وتجاربي فيها إليك ، وإذا كنت أحرص على أن لا تقع فريسة غش وخديعة الناس في الحياة، فأنا حريص أيضاً في بعض القضايا على أن تختبر الحياة بنفسك وكلامي هذا إليك ما هو إلاّ على سبيل التنبيه إلى واقع شرير أريدك أن لا تقع في أشراكه . وبخاصة في القضايا الإيجابية التي فيها منفعة لك وراحة نفسية ، فقد يقيّض الله تعالى لك إنساناً تأنس به فيكون لك أخاً فلا تبقى وحيداً في هذه الحياة ، والوحدة قاتلة يا بني ، وفي الحديث الشريف: «**رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك**»، وإذا كنت أنا أخفقت في هذه الحياة بالحصول على صديق ، فمن يدري : قد تنجح أنت في ما لم أنجح فيه أنا ، بل أريدك أن تعتقد ذلك وتصمم عليه . وإذا صادف أنك وصلت إلى قناعتي في النهاية فليكن وصولك هذا بعد بحث وتدقيق وتنقيب وعمل ، لا اتكالاً على ما أقول . فالحياة تجربة ، والذي لا يحفظ من الحياة إلاّ أقوال الآخرين ولا يجرّب ، ولا تكون له أقواله الخاصة وآراؤه الشخصية ، فهو كدلوٍ تملأه ماءً أو حليباً أو عسلاً دون أن يملك شيئاً من هذه الخيرات التي يحويها ، وسرعان ما تفرغ منه هذه الخيرات فيبقى خالياً خاوياً لا خير فيه .

ـ أنت الذي قلت يا جد : إن الإنسان لا يستطيع أن يبدأ حياته من الصفر وعليه أن يأخذ بتجارب وخبرات الآخرين فيبدأ من حيث انتهوا ، وإلاّ فإن الإنسان ـ إذا كان

سيبدأ من الصفر في كل شيء ـ لا يعرف التقدم ، ويبقى في أول الطريق .

● يجب أن نميز هنا بين أمرين يا بني : الأمور العلمية ، وهي أمور موضوعية لا علاقة لها بشخصية مخترعها والعامل فيها ، ولا مجال لآرائه وأفكاره وفلسفته الشخصية وميوله وعواطفه . . . وهذه هي التي يجب أن يأخذ الأنسان فيها عن الآخرين ، يأخذ علمهم فقط دون أن يتأثر بأمورهم الشخصية . أو إن هو تأثير بأوضاعهم بخاصة وما كان عندهم من قدرات ومواقف شخصية فيها من الثقة بالنفس والثبات في سبيل الوصول إلى الحقيقة ، واللباقة في تصريف الأمور والإفادة منها في سبيل تحقيق الغاية التي يصبو إليها . . . فإن ذلك لا يؤثر أبداً في الحقيقة العلمية التي نحصل عليها وإن كان يفيد في التعرف إلى سبل الوصول إليها . أما في الأمور الشخصية والتي يلعب فيها مزاج الأنسان وطبعه وشخصيته وصفاته . . . دوراً ، فإنه يبقى على الإنسان أن يحاول ، آخذاً بعين الاعتبار تجارب الآخرين والنتائج التي وصلوا إليها دون أن يمنعه ذلك من البدء من أول الطريق .

ـ إذا لم يكن هناك صداقة في نظرك فأنت تدعوني إلى أن أعيش في وهم ، وقد أفعل ما يفعله الناس فأسمي الأشياء بغير أسمائها كما قلت .

● يا بني إن أكبر الأخطاء أن تسمي الأشياء بغير أسمائها . ومن أكبر القضايا التي تعاني منها المجتمعات أن تختلط عندها الأمور وتتداخل فلا تعرف حد الواحد منها ، ومن هنا يكون الغلط ، وهذا الغلط الذي قد يحصل في بدايته بنوع من التساهل في التسمية ، يتبعه نوع من التساهل في النظرة إلى الشيء . . . وتكبر هذه الأمور فنقع في التزوير . وهذا هو الأمر الذي يعنيني ، وهذا هو الأمر الذي أقف عنده . فالكذب قد يبدأ « مزحة » ، والسرقة قد تبدأ « مزحة » . . . ولكن هذه المزحة هي في الأصل جريمة ويجب أن تسمى كذلك . وفي الصداقة فقد درج الناس على تسمية كل معرفة صداقة . فما أن تتعرف بإنسان حتى يصبح صديقك ، وهذه الصداقة لا تعرفها ولا تذكرها إلا عندما تحتاج إليها ، وباسمها تحاول أن تمرّر كل صفقة مشبوهة ، وتجني أرباحاً وفوائد ، وإذا أنت لم تستطع تحقيق ذلك فلا تعود الصداقة صداقة ، ولا يعود الصديق صديقاً ، وكأنما كانت الصداقة للمنفعة ، تدوم ما دامت المنفعة ، وتحيا بحياتها ، فإذا انقطعت المنفعة ماتت الصداقة . هذا المفهوم

للصداقة الشائع اليوم هو ما يجعلني أقول ما أقول . فهل توافقني على فهمي للصداقة أم ترى رأي أهل هذا الزمن فيها ؟

ـ لا يا جد ، أنت محق في ما تذهب إليه ، ولكن قل لي : إذا لم تكن من صداقة تربط بين أفراد المجتمع الواحد ، فتؤلف بينهم ، وتشدهم بعضاً إلى بعض ، فما العلاقة التي يجب أن تقوم بينهم ؟

● عظيم يا بني ، سؤالك عظيم جداً ، وكنت أنتظر أن تسألني هذا السؤال ، أنا أرى أن العلاقة التي يجب أن تقوم بين الناس هي الإيمان ، وعن الإيمان تنشأ الصداقة ، والإيمان يا بني يتطلب منك معرفة لله وتصديقاً بما جاء به ، ومعرفة حدود الله فلا تتجاوزها والإيمان أن تكون عنصراً مفيداً في المجتمع فتنفع الناس جميعاً ولا تعمل إلاّ ما فيه الخير ، وتبتعد عن الشر ، وتساعد الناس دون رغبة في شيء غير إطاعة الله تعالى وكسب رضاه . ولا تقدم على أي عمل من أعمال الشر قولاً ولا فعلاً . وفي الحديث الشريف : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبّه لنفسه** » . وفي القرآن الكريم : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[1] . والفرق بين الإيمان والصداقة أن الصداقة فعل إنساني اختياري لا يجبر عليه الإنسان ، ويأتيه من تلقاء نفسه ، ولا يشعر الإنسان فيه بأي تأثير خارجي قد يؤثر في الصداقة فيقويها مثلاً ، في حين أن الإيمان ارتباط قائم بين شخصين ، أو بين الناس جميعاً ، فيعمل الفرد لمصلحة صديقه أو لمصلحة الجماعة وهو مندوب إلى ذلك ، ويشعر بأن الله تعالى معه ، يراقب أعماله ويدعوه إلى عمل الخير ، ويحسب له الحسنة بعشرة أمثالها ، ويسجّل عليه السيئات فيحاسبه عليها ، فتكون غاية الإنسان من عمل الخير إرضاء الله تعالى وكسب الحسنات ، ثم لا يلبث أن يصير هذا الشعور رغبة في إرضاء النفس وعمل الخير لذاته ، وبهذا نخلص في علاقاتنا مع الناس ، فإذا وافق إنسان منا هوىً يصير لنا صديقاً ، وإذا لم يوافق منا هوىً فإنه يبقى في مأمن من الغدر والخديعة والخيانة والاستغلال ، ويكون له علينا حق الحماية والرعاية كإنسان أولاً وكمؤمن شريك لنا في العقيدة والإيمان ثانياً ، وأعظم ما في الإيمان هذا الشعور بالمسؤولية الذي يحس به الإنسان أمام الله تعالى عن كل أعماله وأفعاله ، ويكون في هذا الشعور

---

(١) سورة الحجرات ، الآية : (١٠) .

حصانة للنفس من الوقوع في الخطأ ، وحصانة للمجتمع من الوقوع في شرور الناس . وهذا الشعور بالرقابة هو الذي يمهّد إلى خلوص النفس من سيطرة المادة والجسد ويرقى بالإنسان صعداً في عالم الروحانيات ، ويصير معه رضى الله وحده هو المطلوب وهو الغاية ، وبهذا يقرب الإنسان من الفضيلة والخير ، ويقرب من الحقيقة المطلقة ، ويملأ النور الإلهي صدره ويصير هو الخير في ذاته ، ولا تعود للحياة ومطامعها وشهواتها سيطرة عليه ، وقد يسير في الدرب الذي سار فيه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والذي يصوّر مدى الإيمان الذي وصل إليه بقوله : لو كُشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً فقد صار هذا اليقين عنده في أعلى درجاته ، حتى أنه لو رأى الله جهرةً ما كان ذلك ليبدل في يقينه شيئاً أو يزيده ذرةً واحدة وإذا كان الناس ليسوا كلهم علياً بن أبي طالب ولا يمكن لهم أن يصلوا إلى ما وصل إليه في فهم الإيمان وعمقه وإدراك ذات الله تعالى واليقين به ، ولكن علياً كإنسان مشى في الدرب الذي يمشي فيه كل مؤمن اليوم ، وانطلق من المنطلقات نفسها تقريباً في البداية . وإذا كان قد وصل إلى حيث وصل فيكفي الناس أن يسيروا في درب الإيمان نفسه ، ومنهم من يقطع من هذا الدرب ميلاً ، ومنهم من يقطع ميلين أو ثلاثة أو مائة أو مئات . . . كل بحسب اجتهاده واستعداداته النفسية والروحية . وبرأيي ليس المهم أن نصل جميعاً إلى نقطة النهاية نفسها ، بل المهم أن نسير في هذا الدرب ـ درب الهداية ـ لا نحيد عنه ، فيأمن الناس شرنا ولو بمقدار ، ونأمن شر أنفسنا ولو بمقدار ، ويسير المجتمع كله في درب الفضيلة . وإذا كان هذا المجتمع غير قادر أن يصير إلى أعلى درجات المثالية والكمال والفضيلة ، فإنه يأخذ منها بطرف على الأقل .

* * *

الإيمان :

ـ إذا كنت يا جد تريد أن تقيم الإيمان مقام الصداقة ، بل أن تجعل الإيمان أهم من الصداقة ، فما بالك بأولئك الناس الذين يدعون الإيمان في الظاهر ، وفي الباطن هم غير مؤمنين ؟ وكيف يمكن أن تقوم صداقة مع مؤمن كاذب ، أو مدّعٍ للإيمان وهو ليس في مقام الإيمان في شيء ؟

● يا بني ليس حديثنا عن الناس بل عن المباديء . والمباديء غير الناس ،

فالمباديء هي النظرة المثالية الصحيحة السليمة المعافاة من كل عيب ، والخالصة من كل شائبة . والناس يسعون إلى تطبيق هذه المباديء ، وقد يصير بعضهم مثالياً ـ وهم قلّة ـ ويبقى الأكثرون يحاولون سلوك هذا الدرب الشاق الطويل الوعر والذي قلَّ فيه الناصرون والمعينون ، ولا يكون للإنسان فيه هادٍ إلَّا الله . فلا يثبت فيه إلَّا ناس رحمهم الله وألهمهم الصبر وطول الأناة ، واختارهم لنفسه وهداهم إلى الخير . وأما الباقون فكمن يتسلق جبلاً ، فمنهم من يتعب من أول الطريق فينكفيء على نفسه ويعود من حيث بدأ ويفضل القعود والخمول . ومنهم من سار خطوات ثم زلت به القدم فوقع فحطَّم رأسه أو دقَّ عنقه أو كسرت رجله أو يده ، ومنهم سار خطوات أبعد ، ومنهم من لا زال يحاول ولا ندري إلى أين سيصل في محاولاته . . . ولكن الجبل موجود ، وقمته واضحة ، والسالكون إليه في البداية كثيرون ، والواصلون قلّة ، والساقطون كثيرون ، ولهذا كان الواصلون : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾[1] . و﴿ **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾[2] .

وإذا كنت ترى بين الناس من يدّعون الإيمان ويغشّون الآخرين فإننا هنا أمام أمرين : أمام الغش في ذاته ، ونحن مسؤولون عن اكتشاف هذا الغش وعدم الأخذ به ، كل بمقدار ما أوتي من قدرة عقلية تساعده على الاستنباط والاكتشاف واليقين فلا نضل . ومن استخدم عقله في هذا السبيل سهل عليه أن يكتشف مدّعي الإيمان فلا يؤخذ بألاعيبهم ولا يقع في حبائلهم أما من يقع فريسةلهذا الغش ولا يستطيع اكتشافه ، فإن الله تعالى لا يحاسب الناس على أفعال وقعوا فيها فريسة أعمال سوء ارتكبها الآخرون في حقهم . وإن كنا جميعاً ـ بحكم إيماننا ـ مطالبين بالتنبه والحذر لعدم الوقوع في الشر ، وذلك بمقتضى الحديث الشريف : « **لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ مرتين** » . حتى صار الحذر علامة الإيمان ومن صفاته ، وصار لزاماً على المؤمن أن يكون واعياً مدركاً لحقيقة الأمور ، يقدرها حق قدرها ولا يفوته شيء منها ، بل يجب عليه فضحها وكشف المتلاعبين . . . كل ذلك ضمن مستوى فهم الإنسان وإدراكه للحقيقة .

---

(١) سورة الواقعة ، الآيتان : (١٣ و ١٤) .

(٢) سورة الواقعة ، الآيتان : (٣٩ و ٤٠) .

أما مرتكب الغش في حق الإنسان المؤمن البسيط الساذج فإنه يتحمل مسؤولية وإثم الغش في ذاته كعمل قبيح ، كما يتحمل مسؤولية النتائج التي تصدر عن هذا العمل . وإذا كانت هناك أضرار تلحق بالناس من جراء هذا الغش ، فلا بد عندها من تعويض هذه الأضرار . فإذا لم يكن هناك ضرر ينتج عن عمل الغش الذي أقدم عليه إنسان ، وسارع هذا الإنسان « المذنب » إلى التوبة والاستغفار من الله تعالى وطلب العفو ، فقد يتوب الله تعالى عليه : ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب** ﴾[1] . وإذا اكتشفنا عدم صدق إنسان يدعي الإيمان فأمر طبيعي أن نبتعد عنه ولا نصادقه . ذلك دون أن نشك في الصداقة في ذاتها ولا الإيمان في ذاته ، ودون أن يمنعنا ذلك من أن نبقى أصدقاء للناس ، مؤمنين بالله . لأن من كان يؤمن على هذا النحو أي بالنظر إلى الناس ويقلّدهم في إيمانهم ، ويعمل أعمالهم ، ويحتجّ بتصرفاتهم ، ويبيح لنفسه ما يبيحونه لأنفسهم ، ويرى الدين من خلالهم . . . فقد يقع في ما وقعوا فيه من الخبائث . وقد نهانا الله تعالى عن اتباع مثل هؤلاء القوم بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم** . . . ﴾[2] . وقوله تعالى : ﴿ **أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا** ﴾[3] . وقوله تعالى : ﴿ **هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً** ﴾[4] .

فهو كأنما يعبد هؤلاء الناس ولا يعبد الله . ومن كان يعبد الناس ويتأثر بهم ، ويغيّر عقيدته ودينه وإيمانه بناء على تصرفات الناس وأعمالهم فهو ليس من الله في شيء والله تعالى براء منه ، وهو لا يفهم حقيقة الإيمان .

ـ قل لي يا جد ، ما حدود الصداقة عندك ؟

● الصداقة يا بني حالة عابرة في الإنسان قد لا تكون فيه أصلاً ، بمعنى أنه قد لا يكون له أصدقاء ، ثم تنشأ إذا وجد صديقاً ، ثم لا تكون كأن تنتهي الصداقة بين

---

(١) سورة النساء ، الآية : (١٧) .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية : (١٣) .

(٣) سورة الكهف ، الآية : (١٠٢) .

(٤) سورة الكهف ، الآية : (٤٤) .

اثنين ، وإن كانت الصداقة كَمَيْلٍ في الإنسان ورغبة منه في التعامل مع الآخرين موجودة في أساس طباعه ، وكذلك الإخلاص في المعاملة والمحبّة . . . وغيرها من الصفات المطلوبة في الأصدقاء . إلاّ أن الشيء الذي لا تحتاجه أو لا يظهر بصورة من الصور في التعامل بين الناس فهو غير موجود أو كأنه غير موجود لأن وجوده وعدمه سواء . أما عن درجات هذه الصداقة ومدى قوتها وفعاليتها فإنني أرى الصداقة يا بني مرتبطة بالإيمان ، أو هي مظهر من مظاهر الإيمان ونتيجة من نتائجه ، والإيمان حالة عامة موجودة في الإنسان ، وهي فعل عقيدة بالله ، ولا تتطلب طرفاً غير الإنسان ، إذ لا يمكن اعتبار الله تعالى طرفاً فيه وإن كانت إيماناً به وحده . فالله هو الذي يؤمن به جميع الناس ولا يكون لواحد دون واحد ، وهو فوق مستوى البشر ، وهو المقصود لذاته ، والعلاقة بين الإنسان وربه علاقة خضوع واعتراف بالفضل وعلاقة عبودية واستجابة لأوامره. وهذا الإيمان هو طاعة الله تعالى والعمل بما فيه رضاه. من هنا صار الإيمان حدّ الصداقة بمعنى أن الصداقة التي تتماشى مع الإيمان هي الصداقة التي تدوم ، أما إذا تعارضت الصداقة والإيمان فإن الإيمان هو الذي يبقى في حين أن الصداقة قد تنتهي .

- وهل يمكننا أن نعتبر كل صداقة إيماناً أو أن كل إيمان صداقة ؟

● ليست كل صداقة إيماناً ولا كل إيمان صداقة . فقد تقوم صداقة بين اثنين غير مؤمنين ، كأن يكون هذان وثنيين ، أو بين واحد مؤمن وواحد غير مؤمن ، وفي هذه الحالة تكون الصداقة عند أحدهما على الأقل فعلاً اجتماعياً أو نفسياً ناتجاً عن تقارب في الطباع بينه وبين الآخر ، أو بدافع الحاجة والمصلحة ، أو هو خُلُقٌ اجتماعي ولو كان هذا المجتمع غير مؤمن أو فيه أناس غير مؤمنين . وقد تجد أناساً مؤمنين يجمعهم مكان واحد أو مصالح مشتركة أو حتى صلات قرابة . . . وبرغم هذا لا يكونون أصدقاء وذلك لفقدان الرباط النفسي الذي يجمع بين الأصدقاء ولعدم وجود توافق في الطباع بينهم . وإذا لم يكن كل إيمان صداقة ، ولم تكن كل صداقة إيماناً فإن الإيمان يقوّي الصداقة وينميها ويعمقها ، لأن الإيمان كما قلت لك يا بني عهد بين الإنسان وربّه على أن يحاسن الإنسان أخاه الإنسان ويخلص له ويعمل ما فيه خيره ولا يخدعه ولا يكذب عليه ولا يضره .

ـ قلت يا جد إن الصداقة قد تكون فعلاً اجتماعياً أو نفسياً ناتجاً عن تقارب في الطباع بين اثنين . . . وبهذا يمكن أن تقوم صداقة خارج نطاق الإيمان .

● بلى يا بني قد تكون الصداقة خُلُقاً اجتماعياً عند الإنسان الفرد وحتى عند المجتمعات غير المؤمنة ، ذلك أن الإنسان بطبعه وبفطرته اجتماعي ، وهو بفطرته ميّال للخير ويحب مساعدة الآخرين والتعاون معهم . والصداقة بهذا فطرة في الإنسان ، فلا مانع من أن تكون صداقة بين الناس في مجتمع غير مؤمن ، أو بين شخص مؤمن وشخص غير مؤمن . وإن كان الإيمان هو رقي الفكر البشري وخروجه من نطاق سيطرة المادة على الروح ، إلاّ أن الحاجات النفسية والاجتماعية قد لا تنتظر الوصول إلى هذا المستوى من الرقي الروحي والنفسي لتقيم على أساسه علاقات مع الآخرين .

ـ وهل أن جميع الناس المؤمنين وصلوا في مفهوم الإيمان إلى هذا المستوى من الرقي النفسي والفكري يا جد ؟

● إن الكثيرين من المؤمنين قد يقصرون عن بلوغ هذا المستوى من السمو الروحي والرقي النفسي والفكري في الإيمان ، فيقف الإيمان عند بعضهم عند حدود المنفعة الشخصية لا يتعداها أو عند مدى فهم الإنسان لواقع الحياة والخليقة وصلة الإنسان بخالقه ومعرفة هذه الصلات ، والفكرة التي عند الإنسان عن الدين والله والقيم الدينية . . . فالناس في عامتهم ميّالون إلى الدنيا وأمور الدنيا فهم عبيد لها كما قال الإمام الحسين عليه السلام : « الناس عبيد الدنيا ، والدين لَعَقٌ على ألسنتهم تدور به ألسنتهم ما درّت به معايشهم ، فإذا مُحِّصوا بالبلاء قلّ الديانون » وهذا من منبع الوحي الإلهي الذي يقول : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرضَ ونأى بجانبه ، وإذا مسّه الشر كان يؤوساً** ﴾[1] . ثم ﴿ **لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مَسَّهُ الشر فيؤوس قنوط** ﴾[2] ومثلها قوله تعالى : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسّه الشر فذو دعاء عريض** ﴾[3] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (٨٣) .
(٢) سورة فصلت : الآية : (٤٩) .
(٣) سورة فصلت ، الآية : (٥١) .

ـ ألا ترى معي يا جد أن الصداقة لا علاقة لها بالإيمان ولا ترتبط به بأي وجه من الوجوه ؟

● قلت لك يا بني إن الصداقة تلبي فطرة في الإنسان وهي ميله إلى الآخرين والعيش معهم بأمن وسلام وطمأنينة . وهذه الصداقة لا تكون إلاّ برقي الإنسان إلى مستوى من السمو الروحي والنفسي تصبح معه الصداقة ممكنة . ذلك أن الإنسان بطبعه أناني ، وهو بهذه الأنانية أقرب إلى التوحش منه إلى الحضارة ، وإن كان فيه ميل إلى هذه الحضارة . وهذه الفطرة في الإنسان قد ترتقي وتتحضر بفعل العيش في المجتمعات . وهذا الرقي وهذه الحضارة ينتج عن ترفع الإنسان عن مستوى الأهواء والغرائز إلى مستوى الفهم والفكر المجرّد ، ومن هنا فهو يقرب إلى الله ، وإلى فهم القوى الخارجة عن إدراك الإنسان الحسي وإدراك وجودها وتأثيرها فيه ، وكلّما ارتقى الإنسان في سُلّم المعارف والمدارك النفسية كلّما كان أقرب إلى الله وأكثر معرفة به ، وكلّما عرف الله حق المعرفة آمن به وازداد إيمانه وتوثقت صلته بربّه . ولهذا جعلنا الإيمان أهم من الصداقة وجعلناه المقياس لها ، وفضلناه عليها . ثم إن هناك أمراً مهماً يجب أن تفهمه يا بني وهو أن المفاهيم الدينية هي الأصل في المفهوم البشري ، إذ أن بداية الخليقة كانت قائمة على أساس تنظيم مجتمعي منطلق من الفكر الديني الذي كان بداية الهداية للإنسان في مسيرته الطويلة على الأرض . إذ أن آدم عندما أخرج من الجنة قد فرض الله تعالى عليه فرائض وحدّ له حدوداً وأمره بالعمل بمقتضاها وعدم تجاوزها ، وأولها الإيمان بالله تعالى وعبادته . فكان التنظيم المجتمعي في الأصل تنظيماً دينياً . هذا التنظيم حفظه بنو آدم ، وبعضهم استمر عليه نظاماً دينياً متكاملاً ومتجدداً حيناً بعد حين ، وبعضهم تلهى عنه ، ونسي مصدره ونسي حدوده . . . ولكن بقيت عنده مفاهيم دينية وبقايا تشريعات إلهية تحورت في أذهان الناس والمجتمعات ، وسارت في مناحٍ متعددة دون أن تفقد ارتباطها بالفكر الديني . مما يجعلنا نقول إن أساس الفكر في كل الكون هو فكر ديني . وما نجده من أفكار حتى عند الشعوب الوثنية أو غير المؤمنة هو في الأصل منطلق من منطلقات دينية مؤمنة . وما فعل الإنسان في هذه المجتمعات إلاّ تفسير أو تحليل وتوضيح وإعادة صياغة . . . لواقع واحد وعقيدة واحدة ونظرة واحدة للأمور ، وفكر واحد هو الفكر الديني ، وهذا الفكر الديني الذي يلاقي قبولاً في الإنسان لأنه ينطلق من الفطرة

الإنسانية ، وكما يختلف الناس في اللون واللغة والعادات . . . وتبقى بينهم جوامع مشتركة ، فإنهم يختلفون في الدين . وتبقى هذه الجوامع ومنها موضوع الرقي الاجتماعي الذي يتشابه فيه الناس في مجتمعين مؤمن أو غير مؤمن . فالصداقة من هذا الباب نوع من أنواع الرقي الاجتماعي ، وقد تأتي منفصلة عن الإيمان ، ولكن الإيمان يأتي أعلى درجة منها ، والمبدأ أن الأدنى في كل شيء قد يكون فيه شيء من الأعلى ، وقد لا يكون شيء من الأعلى في الأدنى ، بمعنى أن الأعلى قد يهيمن ويسيطر على الأدنى ويطبعه بطابعه ويؤثر فيه دون أن يكون في الأدنى قدرة التأثير في الأعلى والسيطرة عليه ، ولهذا صارت الصداقة تقوى بالإيمان في حين أن الإيمان لا يقوى بالصداقة ، وذلك لارتباط الصداقة بالناس وارتباط الإيمان بالله ، والله تعالى هو الأعلى والأعظم والإنسان هو الأدني والأضعف . ثم إن الإيمان حالة نفسية يكون عليها الإنسان دون أن يحمل اسماً معيناً أو ينتمي إلى تنظيم أو دين ، أو مذهب بذاته ، بل هو خشية الله تعالى ومحبته والإيمان بقضائه وقدره ، وبالبعث والقيامة ، وتوحيد الله تعالى والعمل بما فيه رضاه ، ومن هذا القبيل السعي إلى ما فيه خير الإنسان الفرد وخير الجماعة . وعلى هذا فإن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً[1] .

ـ وما موقع المال من الصداقة يا جد ؟

● قيل في المال يا بني إنه عصب الحياة . وهو كذلك في الواقع . . ولما كان الإنسان يعيش في عالم ماديّ فقد صارت المادة ـ المال ـ صلة الوصل بين الأشياء ، بها تستقيم الأمور ، ومن دونها قد يقع بعض الخلل ، وبواسطتها يمكن رتق هذا الخلل ووصل ما انقطع ، وستر ما افتضح ، وإخفاء كل عيب ، والتستر على كل عمل شائن . والصداقة بين الناس من جملة أمورهم التي يغذيها المال فينميها ، ويقويها . ولمّا كانت الصداقة فعل اتصال بين الناس ، فكل صلة لها جانب مادي ، وهذا الجانب المادي يختلف تأثيره في الأشخاص وقد يصير هو أساس العلاقة بين الناس ، وإذا فقد هذا الأساس فقدت معه الصداقة ! . . .

---

(١) سورة الكهف ، الآية : (٣٠) .

ـ عجيب ما أسمعه منك يا جد !! . .

● وفيم العجب يا بني ؟

ـ لا أستطيع أن أدرك مفهوم الصداقة عندك ، ففي حين تراها لقاءً روحياً بين الناس إذا بك تصوّر المال هنا عصب الحياة وترى الصداقة مرتبطة بالمال وفقدانه يؤدي إلى فقدانها .

● يا بني عندما تتحدث عن شيء فإن هذا يقتضي منك أن تأخذ بعين الاعتبار كل حالاته ، وكل ما يمكن أن يؤثر فيه . والصداقة ـ ككل شيء ـ لها حدان أعنى بداية ونهاية : ففي بدايتها هي الأضعف وفي نهايتها ـ ونهايتها أعلى درجاتها ـ هي الأقوى . وإذا أنت نظرت إلى الحدَّين في كل شيء قد ترى تناقضاً أو ما يشبه التناقض بين البداية والنهاية . ففي حين تكون الصداقة في نهايتها علاقة روحية بين الناس ، وفعل إيمان لا علاقة له بالمادة ، إذ بها تصير في أول وأدنى درجاتها علاقة ماديّة بحتة ، وقد لا يكون فيها شيء من الروحانيات ، وهذا ما سميناه صداقة المصالح والغايات ، وكل إنسان يمسك حبل الصداقة في أحد مواضعه ، ففي حين يمسك بعضهم بطرفه الأول يمسك الآخرون بالطرف الثاني ، ويمسك غيرهم بوسطه أو بين الوسط والبداية أو بين الوسط والنهاية . . . كل بحسب ما ينظر إلى الأشياء ، وبحسب حالته النفسية وتربيته ومزاجه وفهمه للأمور . وفي حديثي يا بني أخذت بعين الاعتبار كل هذه الحالات فقلت : قد يصير المال أساس العلاقة بين الناس . . . وقد تفيد هذه ـ كما تعرف ـ حصول حالات من هذا النوع ، دون أن تكون الحالات كلها على هذا النحو ، ودون أن تهمل الحالات الأخرى التي تكون فيها الصداقة روحانية في أعلى درجاتها . وهذا ما أفضله في الصداقة ولكن دون أن يكون في استخدام المال من أجل الصداقة أي عيب . فإذا كان المال وسيلة لتدعيم صلات المحبة وتقوية أواصر العلاقات بين الناس فلا مانع من ذلك ، لأن هذا المال سيكون وسيلة تخدم الإنسان في أغراضه المشروعة والسامية في آن معاً . وليس أسمى من الصداقة ، وبذل كل شيء في سبيلها مسموح به لأنه بذل للمادة في سبيل الخير .

* * *

- ٤ -

الانسان والمال

- لقد احترت في أمرك يا جد حتى لا أستطيع أن أفهمك ولا أدرك معنى تصرفاتك ، ففي حين أراك كريماً في منتهى الكرم ، وليس للمال سلطة عليك ، إذا بي أجدك إنساناً لا يتساهل بفلس واحد ، ولا يرد مالاً أتاه ، ويطالب بحقوقه كلها كاملة غير منقوصة ؟

● المال يا بني إحدى أهم غايات الحياة عند الإنسان . وهو من أهم لذائذ الحياة ، بل هو أهمها على الإطلاق بدليل أن الله تعالى جعله قبل الولد في الأهمية إذ قال : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾[1] . والواقع أن كثيرين من الناس يستعبدهم المال فيصبحون لا يَرَوْنَ في الدنيا سواه ، وفي سبيله يهون عندهم الولد والشرف والكرامة . . . وتضيع معه كل المفاهيم الخلقية ، كما قد يضيع معه العقل ، فيصبح المال بالنسبة للإنسان هو الأب والأم والأخ والأخت ، والولد والزوجة . . . وهو الجار والرفيق والصديق ، ويصير هو المحور والأمل والحياة والموت ، وقد يصير هو المعبود ولا معبود سواه . . . وشيء يستطيع أن يكون كل هذه الأشياء معاً وفي الوقت نفسه لهو شيء خطر جداً وخطورته تكمن في مدى سيطرته على الإنسان ، فيأخذ محل الجميع ، ويحدث فراغات في الحياة لا يمكن ملؤها ، وتبقى فجوات خطرة بسببه ، ولا يمكن رَدْمُها تسقط فيها المودة والمحبة والألفة والصداقة والرأفة والرحمة ، وحتى العبادة ، وتنحدر في بئر ليس له قرار . ولهذا يا بني فإنني لا أكره

(١) سورة الكهف ، الآية : (٤٦) .

شيئاً بمقدار كراهيتي للمال ، وإن كنت أحيانـاً أحبّه . أما الكراهية فسببها خوفي من أن أسقط في التجربة ، ولا أستطيع أن أقاوم أمام سلطان المال ، وتضعف مني الإرادة فأرتكب حماقات كتلك التي أنتقدها في الناس ولا أقرهم عليها . ولذا فإنك تراني لا أجمع مالاً . وإذا أنا حصلت على هذا المال فإنني أسـارع للتخلص منه ، ليس في غير موضع ، بل حيث يجب . وفي المكان المناسب ، راجياً أن أكسب بهذا المال رضا الله تعالى بدلاً من أن يكون هذا المال سببـاً من أسباب غضب الله عليّ ونقمته لا سمح الله .

أما عدم التساهل في المال ولو بفلسٍ واحد كما تقول، فليس مصدره بخل أو حب للمال أو ما أشبه ، ولكنه ينطلق عندي من مبدأ آخر هو مبدأ الحق . والناس في هذه الحياة يا بني لا يعرفون الحق ، ولا يؤدونه إلى أصحابه إذا هم عرفوه ، بـل إن الاستيلاء على حقوق الآخرين صار هوى في نفوسهم ، وهو غريزة فيهم ، ويفعلون ذلـك بدافـع من هذه الغـريزة ، واستصغـاراً للناس ، وتحقيـراً لشأنهم ، ويحتـالون بجميع الحيل ويتبعون جميع الأساليب في سبيل الوصول إلى ما يريـدون . فإذا هم حققوا غاياتهم قعدوا على أقفيتهم يضحكون ، وقد ينقلبون أرضاً من شـدة الضحك وشدة سرورهم أنهم « ضحكوا على إنسانٍ » فأخذوا ماله « وهو خير منه » أو « خير من لحيته » وما أشبه ذلك من التعابير التي صـارت لهم مبادىء . وإني كنت أرى بعيني تصرفات الناس مع أبي وجدّي من قبل وأنا طفل صغير : كان الواحد يـأتيهم شاكيـاً باكياً نائحاً . . . فيستثير شفقتهم ، ويظهر من المسكنة ما يدفعهم إلى عطائه والتصدق عليه أو التساهل معه في التعـامل . فـلا يلبث هذا « الفقيـر » أن ينقلب إلى أهله أو أصدقائه ضاحكاً ساخراً مشنّعاً مدّعياً البطولة يروي أخبار احتيـالاته وألاعيبـه التي لا تلبث أن تصل إلينا . . . أو ينكشف لنا بعد مُدَّة أنه ليس « فقيراً » كما ادعى بـل هو صاحب مال وفير ، ولكن حب أخذ مال الغير هو الذي دفعه إلى مثل هذه المواقف ، ومع الوقت فقد صارت عندي « نقمة » أو شبه نقمة على جدي وأبي ، وعلى نفسي أحياناً ، لأني بدأت طريقي على نهجهم ، ووجـدت نفسي « أضحوكـة » على شفاه هـذا الخلق الحقير ـ وأنـا أعرف أني لست كـذلك ـ ووجـدت نفسي موضـع ابتـزاز وطمـع . وشعرت في نفسي وَهنـاً وضعفاً في هـذه المواقف ، وهـو ضعف في غيـر محلّه ، فنقمت على نفسي أيضـاً ، ورفضت أن أكون هـذه « الأضحوكـة » ولا تلك

« اللعبة » ، وكدت أحقد على الفقراء ومن يدّعون الفقر . وصممت بعد كثير من التأمل والتفكير على موقف وهو أن أسعى إلى تحصيل حقي من أي إنسان كان ـ بما هو حق ـ فآخذه منه ، وأضع يدي عليه ، فإذا صرت حُرّ التصرف فيه بعد أن ملكته فإنني أفعل به ما أشاء ، ومتى شئت ، فأعيده لمن أخذته منه إن شئت ، أو أعطيه لغيره إن شئت ، أو أدّخره لوقت الحاجة ، أو أنفقه في أية مسألة أو في أي باب . وتأملت في الشريعة فوجدت ما أتخذه سبيلاً في حياتي بخصوص هذا المال: فلا أرد سائلاً ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾[1] ووجدت في الحديث الشريف : إن حوائج الناس من نِعَم الله عليكم فلا تملوا النِعَم فتحول نقماً . ووجدت : تحابّوا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب . فإذا كنت تراني أطالب بكل حقوقي يا بني فهذا هو المنطلق وليس حب المال ، ولا البعد عن الصَدَقة ، ولا هو البخل ، ولكنه الإباء يا بني : فإن نفسي تأبى أن أكون مخدوعاً وأن يغشّني الناس بداعي الحسنة والصدقة والكرم . . .

الكـرم :

ـ أفلا ترى هذا المنطق يتنافى مع الكرم يا جد ؟!

● لا يا بني ، فهذه المواقف شيء والكرم شيء آخر . هذه المواقف ـ كما ترى ـ لها علاقة بشعور الإنسان بالغبن ، وشعوره بأنه قد صار موضع استغلال من قبل الآخرين ، وقد يكون هؤلاء الآخرون لا يستحقون أن تتصدق عليهم ولا أن تعطيهم شيئاً من مالك . أما الكرم فهو أن تعطي من سألك ، وتسخو في العطاء إذا كنت على يقين بأن من تعطيه يستحق عطاءك ، وتبادر أنت إلى هذا العطاء من تلقاء نفسك فتعطي من سألك ومن لم يسألك . . . مع ما يتبع ذلك من عادات وتقاليد من حسن وفادة ، وكرم ضيافة ، وزيادة في الكيل ، وسماحة في التعامل . . .

ـ ولكني لا أرى الكرم إلاّ مظهراً من مظاهر الجاه ، ورغبة في إظهار العظمة والمجد والتفاخر على الآخرين واصطناع الصنائع .

● قد يكون الأمر كذلك بالنسبة لبعض الناس يا بني . ولكن بالنسبة للبعض الآخر فالكرم فعل إيمان بالله تعالى واستجابة لإرادته في الخليقة ومثل هؤلاء المؤمنين

---

(١) سورة الضحى ، الآية : (١٠) .

موجودون بين الناس ، وقد ذكر الله تعالى هذه الفئة من المؤمنين في القرآن الكريم عندما قال : ﴿ **ويطعمون الطعام على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً** ﴾[1] . فيأتي عطاء هؤلاء نوعاً من إيثار الآخرين على النفس وفي وقت الحاجة إليه ﴿ **على حُبِّه** ﴾ ثم إن هذا العطاء لا يكون لغاية أبداً غير رضى الله تعالى ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله** . . . ﴾ وإن هؤلاء ، وإن كانوا قلّة بين الناس فهم المؤمنون بالله الذين صغرت في أعينهم المنفعة الشخصية وما عاد للجسد عليهم سيطرة ، ولا تستعبدهم الغرائز ، وصار الشعور مع الآخرين وتقدير أوضاعهم قبل الاهتمام بالقضايا الشخصية وأهم منها .

- هذا النوع من الكرم نادر يا جد ، ولا يقاس عليه .

● صحيح يا بني أن هذا النوع من الكرم نادر ، ولكنه يقاس عليه . ذلك أنه جاء المثال في الكرم، وفي أعلى درجاته وأفضل حالاته . وهكذا يجب أن يكون الكرم . والإنسان الذي يستطيع أن يصل إلى مثل هذه النظرة في الكرم يكون قد حقق أعلى درجة من درجاته ، وعرف معنى الكرم الصحيح . وهؤلاء الكرماء الذين يأتي كرمهم على هذا النحو هم القدوة ، وإليهم يتطلع الآخرون في أعمالهم ويحاولون مجاراتهم في تصرفاتهم . والقدوة يجب أن يكون في أعلى درجات الكمال وذلك لسببين : أولهما أنه يكسب ثقة الآخرين إذا كان كذلك (في أعلى الدرجات) . وثانيهما أنه إذا كان المثال ناقصاً لم يستطع العامّة أن يكوّنوا فكرة صحيحة أو سليمة عنه فتأتي رؤيتهم ناقصة ، وأفكارهم عنه كذلك ، وسيكون تطبيقهم ناقصاً أيضاً .

- القاعدة الشرعية يا جد أن « الناس مسلّطون على أموالهم » و« الملك لمن بين يديه » . فالذي بيده مال لماذا يُطلب منه أن يعطيه إلى الناس .

العطاء والكرم يا بني قد يكون ناتجاً عن أمرين : إما عن حاجة فطرية في الإنسان . وهذا الإنسان « اجتماعي بالطبع » وقد خلق الله تعالى في نفسه (نفس الإنسان) فطرة محبّة الآخرين ومساعدتهم والإحسان إليهم . . . وصار الإنسان عندما يعطي فإنه يستجيب إلى

---

(١) سورة الإنسان ، الآيتان : (٨ و ٩) .

هذه الفطرة السليمة فيه والذي لا يعطي يكون ما زال واقعاً تحت سيطرة الشهوات والرغائب والأنانية. وهذه الفطرة هي التي درج الناس على تسميتها اليوم بالإنسانية. فالناس يتعاونون ضمن المجتمع الواحد، كما أنهم يتعاونون ضمن المجتمع الإنساني، فيساعد واحد إنساناً من غير بني قومه، ويساعد شعب شعباً آخر في أقصى الأرض . . . وبهذا تكون المساعدات من الدول ومن الشعوب بعضها لبعض في حالة السلم وفي النكبات وفي سبيل مواجهة الأخطار وبدوافع إنسانية.

أما الأمر الثاني الذي يدفع إلى مساعدة الناس بعضهم لبعض فقد يكون بدافع الإيمان بالله تعالى، وفي الإيمان أن «الخلق كلهم عيال الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله». وإذا كانت المنفعة ليست العطاء وحده، فإن العطاء - وهو من المنفعة - هو رغبة في الحصول على محبّة الله تعالى وإكرامه. وهذه المحبّة لا تبقى مجرد فكرة عند الإنسان، بل إنها كثيراً ما تتحول إلى فعل، وهذا الفعل يصير عادة راسخة في النفس دون أن يصير عادة آلية، بل يميل إلى أن يصير محبّة لله ورغبة في إرضائه، وتصبح هذه المحبّة وهذه الرغبة غاية غايات الإنسان، وتتمثل في العطاء الذي يرى فيه الإنسان المؤمن طريقاً إلى الله. ولما كانت الرغبة في رضا الله لا تحد، وكان رضا الله تعالى لا يُمَلُّ منه ولا يكتفي منه الإنسان بقدر محدد، فقد صار العطاء ينمو ويكبر حتى يصبح عطاءً لا حدود له ولا يمنع منه شيء، حتى قلة المال والفقر لا تحد من هذا العطاء، بل إن هذا الإنسان يعطي بنفس الطريقة في كل الظروف والحالات. وإلى مثل ذلك أشار الفرزدق عندما قال:

لا يُنقص العُسرُ بسطاً من أكفهم ... سيّان ذلك إن أثْرَوْا وإن عدموا

أما أن يكون الناس مُسَلّطين على أموالهم فطبيعي يا بني، لأن الإنسان لا يمكنه أن يتصرف بمال ليس له سلطه عليه. ثم إن أي حدّ من حريّة الإنسان في التصرف بما يمتلك هو في الواقع انتقاص من هذه الملكية، وإن كان الحد من الملكية جائزاً ومفيداً بل واجباً في بعض الحالات، وقد نعود إلى هذا الحديث. أما لماذا يطلب من الناس أن يعطوا شيئاً من أموالهم للآخرين فذلك يعود لأسباب عديدة منها: إن ملكية الإنسان لما بين يديه من الأموال ليست ملكية تامة، بل هي نوع من وكالة من الله تعالى للإنسان فالله تعالى وحده، مالك الملك، يؤتي الملك من

يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، بيده الخير وهو على كل شيءٍ قدير[1] . ولمّا كان الملك لله تعالى وحده ، وهو الذي يتصرف بما يملك تصرفاً تاماً مطلقاً لا يحده شيء ، فقد أوكل إلى الإنسان أن يستخدم الملك الذي بين يديه ، فيسهر عليه ويخدمه ويستثمره وينمّيه ، ويأخذ منه ما يحتاج إليه ويعيش في رفاهية وعزة وسعة دون أن يكون أنانياً جاحداً لنعمة الله عليه ، بل يجب عليه أن يعمل بإرادة موكّلة فينفق من هذا المال على من يحتاج إليه . فالله تعالى يذكر الإنسان بأنه لا يملك المال الذي بين يديه ، بل هو قيّم عليه ، وقد جعله الله مستخلفاً فيه بعد أن كان لسواه ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾[2] وجعل ـ جل شأنه ـ الإنفاق من المال الذي بين أيدي الناس ، وبخاصة ما عزّ عند صاحبه وعظم شأنه ، وتعلّق به صاحبه . . . مظهراً من مظاهر الإيمان ، ووسيلة لكسب رضا الله تعالى وتحقيق الخير حيث قال : ﴿ **ولن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبّون** ﴾[3] . وهو تعالى لا يريد من الناس مالاً أو رزقاً ، ولا يريد منهم أن يطعموه ، ﴿ **ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[4] ، بل يريدهم أن يعملوا بإرادته وهي تتمثل بأنه فضّل الناس بعضاً على بعض في الرزق ، ﴿ **والله فضّل بعضكم على بعض في الرزق ، فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء . . .** ﴾[5] وحتى لا يستأثر الأغنياء بمال الله وحدهم ﴿ **كي لا يكون دولة بين الأغنياء** ﴾[6] ، مع ما ينتج عن ذلك من تجمّع الأموال في أيدي أناس ليسوا بحاجة إليها ، ولا يعرفون كيف يتصرفون بها ، يفسدون بها في الأرض ويفسدهم هذا المال ، ويبذّرونه دون منفعة ، ويبقى الفقراء في حالة من الفقر والعوز والعُدم مما يجعلهم يعيشون حياة غير لائقة ، ومما قد يُنْقِصُ في إيمانهم ويبعدهم عن الحق والفضيلة . . . ويلحق هذا الواقع ضرراً كبيراً بالمجتمع لا حدّ له . . . فقد كانت إرادة الله تعالى أن شرع للفقراء حقاً في أموال الأغنياء : ﴿ **وفي**

(1) سورة آل عمران ، الآية : (٢٦) .
(2) سورة الحديد ، الآية : (٧) .
(3) سورة آل عمران ، الآية : (٩٢) .
(4) سورة الذاريات ، الآية : (٥٧) .
(5) سورة النحل ، الآية : (٧١) .
(6) سورة الحشر ، الآية : (٧) .

أمـوالهم حق للسـائـل والمحـروم ﴾[1] ، و﴿ **وفي أمـوالهم حق معلوم للسـائـل والمحروم** ﴾[2] وهذا الحق قدّره الله تعالى خمساً وزكاة وصـدقات ، وشجّـع الناس كثيراً على القيام بهذه الواجبات الدينية المفروضة ، وكافأ من يقوم بها مكافآت مغرية تدفع الإنسان إلى عمل الخير وتحبّبه به فجعل الحسنة بعشرة أمثالها[3]وجعل ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابـل في كل سنبلة مـائة حبّة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾[4] . كل ذلك في سبيل إقامة النظام الاجتماعي المثالي والمتكامل . وأول درجات المثالية تنظيم هـذا المجتمع بصـورة صحيحة وسليمة من الناحية الإقتصادية . ومجتمع ينقصه تنظيم اقتصادي سليم يعاني كثيراً من المشكلة ، وكثيرون فيه قد لا يعرفون الله ، لأن الفلسفة والعبادة وكل أمور الفكر تأتي بعد أن يشبع الإنسان ويشعر بالارتواء ، ولا يحس بوطأة الحـاجة تعصره وتضيّق خناقه وتقطع أنفاسه . هذا مع العلم أن الضيق والحاجة كثيراً ما تكون باباً إلى التأمل ، ولكنك لا تدري ما إذا كانت ستصل بالإنسان إلى الهداية .

وهـذا التنظيم الإقتصـادي تنظيم إلـزامي ، لا يملك الإنسان الفـرد أن يتحلل منه . وهو مفروض على الإنسان بحيث أن من لا يقوم بواجبه في هذا المجال فقد أعد الله تعالى له من العقاب ما تقشعرّ له الأبدان ، مرعب ومخيف ، وفيه من تصوير الهول الذي يصيب الإنسان يوم القيامة ما تنخلع له القلوب . ومثل ذلك ﴿ **ويل لكل هُمَزَةٍ لمزة . الذي جمع مالاً وعدده . يحسب أن ماله أخلده . كلا لينبذن في الحطمـة . ومـا أدراك ما الحـطمة . نـار الله الموقـدة . التي تـطلع على الأفئـدة . إنهـا عليهم مؤصدة . في عمد ممدّدة** ﴾[5] . والذين يبخلون بما عندهم من مال الله ﴿ **سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة** [6] . وكذلك ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة . ولا ينفقونها**

---

(١) سورة الذاريات ، الآية : (١٩) .
(٢) سورة المعارج ، الآيتان : (٢٤ و ٢٥) .
(٣) سورة الأنعام ، الآية) (١٦٠) .
(٤) سورة البقرة ، الآية : (٢٦١) .
(٥) سورة الهُمَزة .
(٦) سورة آل عمران ، الآية : (١٨٠) .

في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[1] .

تفاوت الأرزاق بين الناس :

ـ بما أن الله تعالى هو الذي يرزق الناس ، والملك ملكه ، والمال ماله والإنسان وكيل على هذا المال . . . فلماذا لم يساو بين الناس في هذا المال ؟ ولو حصلت هذه المساواة أما كان ذلك أقرب إلى العدالة ، ولا تحصل معه مفارقات بين الناس ؟!

● اختلاف الناس في الرزق يا بني هو جزء من مبدأ عام في الخليقة . فالله تعالى قد خلق الخلق كلهم من مصدر واحد وبنفس الطريقة ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾[2] . فكان تمييز أول في الخلق إذ جعل الناس شعوباً وقبائل وبالنتيجة فقد جعلهم ألواناً وأشكالاً وهيئات وألسنة مختلفة . . . دون أن تكون هذه الاختلافات عائقاً يعوقهم عن التعارف . بما يتبع هذا التعارف من تقارب وتعاون ومحبّة ومودّة وصداقة وتبادل المنافع والعمل معاً بما يؤمن خير المجتمعات كلها ، وخير الناس كلهم ، بصرف النظر عن كل الفروقات التي يمكن أن تقوم بينهم . ثم نظم الله تعالى هذه المجتمعات فرفع الناس بعضهم فوق بعض درجة ﴿ **ورفع بعضكم فوق بعضٍ درجات** ﴾[3] .

وهذه الرفعة درجة قد تكون في الأصل والنسب أو الجاه والملك أو المال أو العلم والفهم أو غير ذلك من القدرات والقوى والمواهب . . . فيعطي الله تعالى من عنده ما يشاء لمن يشاء في حُريّة مطلقة . وقد نفهم بعض دوافع هذا التفضيل أو لا نفهمها. وسواء فهمنا أم لم نفهم يبقى المهم أن كل ذلك يحصل بإرادة إلهية تقصد إلى غاية . وقد تكون من أهم هذه الغايات اختبار الإنسان أيشكر الله تعالى أم يكفر

---

(١) سورة التوبة ، الآيات : (٣٤ و ٣٥) .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : (١٣) .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : (١٦٥) والبقرة ، الآية : (٢٥٣) والزخرف : (٣٢) .

بنعمه[1] أو : أيصبر أم يقنط من رحمة الله[2] ، أو : هل يستجيب للأوامر الإلهية وينفذها أم يجحد بها . . . فهو الذي خلق الموت والحياة ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[3] . أو : ليذيق الناس بعضهم بأس بعض[4] . أو : ﴿ **ليبلوكم في ما آتاكم** ﴾[5] . . . و﴿ **ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا** ﴾[6] . . . وكل ذلك ضمن نطاق اختبار قدرة الإنسان على عبادة الله تعالى ومدى الإخلاص في هذه العبادة ، والإيمان بقدرة الله تعالى وقضائه وقدره وحسن تدبيره واختياره ، والقناعة بأن كل ما قدّره الله وأراده لنا هو الخير . وضمن هذا الإطار وبهذا المفهوم كان تفضيل الناس بعضهم على بعض في الرزق ، فجعل رزق الناس في السماء ﴿ **في السماء رزقكم وما توعدون** ﴾[7] وقسّم على الناس أرزاقهم . . . يعطي من يشاء ويأخذ ممن يشاء دون أن يكون للإنسان الحق في الاعتراض على الإرادة الإلهية . لأن الحد من العطاء للناس هو في مصلحة هؤلاء الناس . ذلك أن الإنسان تبطره النعمة . ومثل ذلك ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض** ﴾[8] .

على أن هذه الرفعة التي اختُصَّ بها بعض الناس ، و« الخفض » الذي أصاب أناساً آخرين ليسا نهائيين ، بمعنى أن الله تعالى قرَّر مبدأ المكافأة للعبد المؤمن الصابر الذي يعمل بما أمره الله تعالى ، وينفذ إرادته ويعمل ما فيه رضاه . وبهذا فهو يوفي الصابرين أجورهم[9] ، ويستجيب للداعين[10] ويغفر الذنوب ويتوب على من

(١) سورة النمل ، الآية : (٤٠) .
(٢) سورة فصلت ، الآية : (٤٩) ، والحجر : (٥٦) .
(٣) سورة الملك ، الآية : (٢) .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : (٦٥) .
(٥) سورة المائدة ، الآية : (٤٨) .
(٦) سورة الزخرف ، الآية : (٣٢) .
(٧) سورة الذاريات ، الآية : (٢٢) .
(٨) سورة الشورى ، الآية : (٢٧) .
(٩) سورة الزمر ، الآية : (١٠) .
(١٠) سورة البقرة ، الآية : (١٨٦) .

يشاء، ويجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء[1] ، ولا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى[2] ، وما ألتناهم من عملهم من شيء[3] ، ويهب الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء . . . وبالنتيجة فإن الله تعالى : ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب** ﴾[4] . وبهذا يمكن لمن كان فقيراً أن يصير غنياً، ومن كان غنياً قد يصير فقيراً ، وكل شيء مرهون بحفظ نعمة الله تعالى وشكره على نعمه ، والقيام بحق هذه النعمة خير قيام . وفي هذا تكون العدالة يا بني ، وهو أن يكون تفضيل الناس أو عطاؤهم قائماً على مبدأ الثواب والعقاب ، فلا يأخذ إنسان شيئاً لا يستحقه ، وإذا حصل إنسان على شيء لا يعرف كيف يحافظ عليه ينزع منه ، لأنه قد يكون هناك من هو أولى منه بهذه النعمة ، وأقدر في المحافظة عليها وشكر ربّه . وقد أمر الله تعالى الإنسان بالسعي في هذه الحياة الدنيا ، وهو سيحاسب عليه . فإذا هو سعى فعلاً وجدّ وكدّ وتعب فسينال المكافأة على ذلك . وليس سوى السعي ما يحقق خير الإنسان : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى . وأن سعيه سوف يُرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[5] . فيكون السعي هو مقياس المكافأة من الله .

ـ فكيف تفسّر يا جد استمرار النعمة في قوم لا يستحقونها ، وبقاء جماعة على الفقر وهم الأكثر عبادة لله ، والعمل بأوامره ونواهيه ؟

● إن إدراك الإرادة الإلهية يا بني على حقيقتها أمر صعب ، فهو أدرى بعباده وأخبر بهم ، وإن كنا نستطيع أن نفسّر ذلك ضمن المبدأ العام الذي نعرفه أو من خلال ما أشار إليه الله تعالى في آيات بيّنات تشرح مثل هذا الواقع ، والله تعالى بمقتضى علمه بمصلحة الإنسان وما فيه خير له قد يعطيه مالاً أو لا يعطيه . فقد يكون في العطاء مفسدة لإنسان ، ويكون عدم حصوله على مال وفير حفظاً لدينه وإيمانه ورحمة من الله تعالى له ، وقد يكون إنسان مؤمناً في ظاهره ـ والله أعلم بباطنه ـ ويكون في

---

(١) سورة النمل ، الآية : (٦٢) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : (١٩٥) .
(٣) سورة الطور ، الآية : (٢١) .
(٤) سورة الرعد ، الآية : (٣٩) .
(٥) سورة النجم ، الآيات : (٣٩ و ٤٠ و ٤١) .

باطنه أقل إيماناً مما نتصوّر وما أدخله إيمانه بعد في نطاق رحمة الله تعالى وما استحق المكافأة . . . وقد يكون إنسان في ظاهره غير مؤمن ، ولكنّه يعمل الخير في سرّه ، وفيه فائدة للخلق ومصلحة للعباد ، والله تعالى يرزقه لأنه قد يكون خيّراً في ذاته ونحن لا نعلم ذلك . والله أعلم منّا - فنستغرب رزقه لأننا نقدر أنه لا يستحق هذا الرزق . وتقدير الله تعالى هو الأصح . وقد يعطي الله إنساناً قد نراه نحن لا يستحق العطاء - وقد يكون كذلك في ذاته - إنما يكون واسطة لإيصال العطاء إلى أناس يستحقونه . . . وقد يكون كافراً ملحداً غير مؤمن لا يستحق مالاً ولا جاهاً ولا تكريماً . . . ولكن الله تعالى يعطيه من المال والرزق والخيرات الشيء الكثير ، وذلك من باب الاختبار لا غير ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون** ﴾[1] . كما أن الله تعالى قد يعاقب الذين لا يحفظون نعمته بأنواع مختلفة من العقاب كما فعل بقارون وفرعون وأمثالهما ، وقد يكون العقاب في هذه الدنيا - كما حصل لقارون - ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾[2] ، أو مؤجّلاً كما وعد الله تعالى أبا لهب : ﴿ **ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى ناراً ذات لهب** ﴾[3] ، وقد يحكم على بعضهم بالعقابين معاً فيعاقب الإنسان في الدنيا والآخرة ، فيحرم أمواله في هذه الدنيا فلا يستمتع بها ، وفي الآخرة يحاسب على هذه النعمة التي أعطيها ولم يحفظها ﴿ **ثم لتسألُنَّ يومئذٍ عن النعيم** ﴾[4] ، وفي القرآن الكريم صور عديدة عن أقوام كثيرين كانوا يرفلون في نعم الله تعالى ، فما حفظوا هذه النعم ، ﴿ **فصبَّ عليهم ربك سوط عذاب . إن ربك لبالمرصاد** ﴾[5] ، وفي الحديث عن قوم فرعون الذين أرسل الله إليهم نبيّه موسى عليه السلام ، فما استجابوا له ، فعاقبهم الله تعالى شرّ عقاب : ﴿ . . . **كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقامٍ كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾[6] .

---

(١) سورة الزخرف ، الآية : (٣٣) .

(٢) سورة القصص ، الآية : (٨١) .

(٣) سورة المسد ، الآيتان : (٢ و٣) .

(٤) سورة التكاثر ، الآية : (٨) .

(٥) سورة الفجر ، الآيتان : (١٣ و١٤) .

(٦) سورة الدخان ، الآيات : (٢٥ و٢٦ و٢٧) .

يضاف إلى ما قلته لك يا بني أن مكافأة الله تعالى للإنسان المؤمن ليست دائماً ماديَّة ، فقد تكون مكافأة هذا الإنسان سعادة في الحياة الدنيا متمثلة براحة البال ، والولد الصالح ، ومحبّة الناس ، والاستقرار في الحياة ، والعلم والحكمة ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾[1] ، ثم قد يكون صاحب المال على عكس ذلك لا يعرف السعادة أبداً لمصائب حلت به في نفسه أو في أولاده ، أو في ماله . . . وكثيراً ما يكون ماله سبب شقائه . وأنت يا بني لو خُيِّرت بين مال مع الشقاء وعلم وسعادة وراحة بال ومحبة الناس . . . فأيهما تفضل ؟

الفقر :

- إن من حالات الفقر يا جد ما لا يمكن أن يقبله الإنسان ذو الكرامة . ولا أدري كيف يقنع إنسان بالعُدْمِ يصيبه ويقبل به ، وتهون عليه نفسه وكرامته ، ويرضى بما لا تكاد ترضى به دابة الأرض . . . ثم لو أصاب هذا بعض الخير ألا يكون له في ذلك ما يصون كرامته ، ويحفظ ماء وجهه ، ويقرّبه إلى الإيمان ويبعده عن الكفر ؟ ! .

● إن النظرة إلى المال يا بني تختلف باختلاف الناظرين إليه من حيث العلم والفهم والإدراك والمستوى النفسي ، والنظرة إلى الأمور . . . ودرجة الإنسان في عالم الإيمان أو في عالم الفهم ، وبلوغه درجة الوصول إلى ملكوت السماوات . . . فمن الناس من يبلغ تعلقهم بالمادة والمال مبلغ تعلق البهيمة بالطعام والشراب . فلو أنك أمام أسد جائع لقي فريسة ، تحاول أن تأخذها منه ، فكيف تكون ردة فعله تجاهك ؟ ولنفترض أيضاً أنك أمام أسد شبعان أكل حتى أتخم ، ولا تزال إلى جانبه قطعة لحم ، جاءه من يأخذها منه ، فكيف يتصرف ؟ في هذه الحالة قد لا يكترث للحم ولا لما يجري حوله ، حتى صار إشباع غرائز الحيوانات أول الطريق إلى ترويضها . والإنسان المتعطش للمال لا يرويه إلاَّ المال ، والإنسان الذي شبع من المال لا يهتز أمام بُلْغَةٍ لأنها لا تثير فيه شيئاً ، وبخاصة بعد أن شبع ، وهكذا الموضوع بالنسبة للإيمان يا بني ، مع اختلاف الظرف والشَّبه ، فإن الإنسان الذي يسير شوطاً في درب الإيمان ترتوي نفسه من كل شيء من أشياء الدنيا ، أو هي بالأحرى تصد عن كل عارض من عوارض الدنيا ، وتنسلخ عن عالم المادة ، وتسمو

(١) سورة البقرة ، الآية : (٢٦٩) .

في عالم الروح ، فلا يعود يرويها إلّا ما كان روحانياً صرفاً . وبمقدار ما تسمو هذه الروح بمقدار ما تبعد عن المادة وتتجرد عنها في هذه الحياة ـ وقد يكون الأمر كذلك بالموت وبعد الموت ـ فإذا رأيت إنساناً أمامك زاهداً متعبداً فإنك ترى منه جسداً دون أن ترى الروح وتعرف مبلغ ما وصلت إليه من السمو والرفعة ، ودون أن تعرف حقيقة ما تفكر فيه وما يشبعها وما يرضيها . أنت ترى جسماً فقط ، ولكن هذا الجسم ما عاد كجسم أي إنسان عادي في متطلباته ونزوعاته كما أن الروح التي تتملكه وتسيطر عليه ليست في درجتها كالروح التي تسيطر على إنسان عادي . وهذا الجسد صار يكتفي بالقليل القليل الذي قد نراه نحن لا يروي غُلة ولا يشبع سَغَباً ، ولكنه بالنسبة لصاحبه كثير وكافٍ . أما عن مصدر هذا القليل فإن صاحب هذا الجسد لا يسأل عن ذلك ، ولا يهمه ، وما عادت عنده المفاهيم التي عندنا : فإذا كان المال بين يديك فإنه في الحقيقة ليس مالك ، بل هو مال الله تعالى ، وكل ما في الدنيا لله . وإذا طلب منك شيئاً فصددته فإن الصد لا يؤذيه ولا يزعجه لأنه أيقن بحقارة الإنسان العادي وانجذابه إلى المادة وتعلقه بها . . . وهذا كله يستثير شفقته لا سخطه ولا حقده ، وإذا آذاه إنسان فقد لا يأبه للأذيّة ، وإذا كلمه إنسان بغير ما هو مقتنع به فكأنه لا يسمعه . . . وقد تكون هذه حالة بعض الزهّاد والمتصوّفين وعُبّاد الله ، والصالحين منهم . . . وهؤلاء لا يصح فيهم ما تقوله يا بني . أما إنسان عادي فقد يصح فيه ما قلت . على أننا لا نعرف حقيقة حال الإنسان الفقير ، فقد يكون ما أصابه من نقص في ماله اختباراً من الله تعالى له . أو عقاباً على خطيئة ، أو خلاصاً من الشرور أراده له الله . . . وهو لو أصاب مالاً فما يُدرى ما تكون حاله . على أن الله تعالى جعل الحصول على المال وبلوغ مأرب مرتبطاً بسعي الإنسان في الحياة ـ كما قلت لك ـ وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى . . . فأمره تعالى بالسعي ، ووعده بالمكافأة على هذا السعي . ومن هنا فالناس مَدْعُوُون جميعاً للسعي وراء تحصيل المال ، وتأمين حاجاتهم بواسطة ما يجنونه من هذا المال ، وتأمين مداخيل توفر حياة سعيدة كريمة لهم ولعيالهم . وصار السعي في سبيل تحصيل المال لهذه الغاية من العبادة ، وفي الحديث الشريف كثير مما يحض على هذا الأمر . والفقر كفر وخطر يا بني : وخطره على نفسية الإنسان وإيمانه وحياته وعائلته . ومن هنا قول علي (ع) : لو برز إليَّ الفقر رجلاً لقتلته ، وعلى الإنسان أن يعمل جاهداً من أجل الخلاص منه ، بل من أجل عدم الوقوع فيه . وإذا

هو اجتهد في الخلاص من الفقر ، وعدم الوقوع فيه ولم يوفّق في سعيه ، فقد يكون هذا الفقر قد دخل ضمن نطاق الإرادة الإلهية التي يجب أن يتصرف الإنسان معها بأن يكون عابداً لله صابراً على بلواه مؤمناً مؤدّياً لواجباته حتى يستحق أن ينال حقه من مال الله الذي وهبه لسواه ، وجعل له نصيباً وحقاً فيه . والله تعالى بهذا « الحق » وهذا « النصيب » الذي فرضه في مال الأغنياء للفقراء ما يؤمن حاجات هؤلاء الفقراء فلا يبقى فقير ولا محتاج على وجه الأرض ، وذلك ضمن نظام اقتصادي متكامل لا مكان للفقر فيه . وإذا كنا نرى اليوم الأمر على غير هذا النحو فذلك يعود إلى بخل الأغنياء بأموالهم على الفقراء ، وعدم التصديق بالإرادة الإلهية والتنفيذ لها ، وأكل نصيب الفقراء الذي في أموالهم . وقد هدد الله تعالى هؤلاء المخالفين لإرادته بأقسى العقوبات إذ جعلهم ﴿ **يطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾[1] و﴿ **الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾[2] .

* * *

الغنى والفقر :

- ويبقى من العجيب عندي يا جد هذا التمايز الكبير في الحياة بين الأغنياء والفقراء ، بحيث نجد أناساً في غنى لا حد له ويكاد يبلغ درجة الخيال ، فلا تكاد تصدق ما تسمعه عندما يتحدث الناس عن ثروة إنسان غني ، وفي مقابل ذلك تجد مجتمعات فقيرة في حالة من البؤس الذي تستغرب أن تراه أو تسمع عنه ، وكلما زاد الغنى والثروة في مجتمع ما كلما اشتدت الفوارق بين الناس وكثر الفقراء وبرزت مظاهر الفقر . . . فكأن لا شريعة ولا دين ولا مبادىء . . .

● من صفات الإنسان يا بني أنه كافر بنعمة الله ﴿ **قتل الإنسان ما أكفره** ﴾[3]

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (١٨٠) .
(٢) سورة التوبة ، الآيتان : (٣٤ و ٣٥) .
(٣) سورة عبس ، الآية : (١٧) .

جاحد لهذه النعمة ، غير مؤمن بالله حق الإيمان ، ينظر إلى الأمور من وجهة نظره الخاصة ومن خلال ذاته وأنانيته . . . وينسى ربّه وفضله ونعمه عليه وينسى أن الرزق كله لله والملك له وأن الخلق كلهم عيال عليه وأنه ﴿ **ما من دابة في الأرض إلاَّ على الله رزقها** ﴾[1] . . . ويمعن في الكفر والبعد عن الله والاعتماد على نفسه ، ظناً منه أنه قادر على أن يخلق لنفسه « شريعة » مدنية تنظم أموره وتحقق له السعادة ، وبهذا الوهم عاش ، واستطاع أن يخلق هذه الشريعة ولكنها ما كانت قادرة على أن تحل محل شريعة السماء ، ولا استطاعت أن تحقق العدالة ، ووقع الإنسان في مغالطات كثيرة ومفاهيم خاطئة ، وسمّى الأشياء بغير أسمائها ، ونادى بقيم ومباديء جاءت فارغة من محتواها من مثل مفهومه للعدالة والحرية . . . وإذا نحن نظرنا إلى المجتمعات الإنسانية اليوم وجدناها « مدنية » تحللت عن الأديان والمفاهيم الدينية ، وأقامت لأنفسها قوانين وشرائع وضعية من صنع الإنسان ، ونسيت بعض المجتمعات حقوقها وواجباتها تجاه الفقراء ، وحاول بعضها الآخر تنظيم أوضاعهم من خلال تنظيم أوضاع مجتمعاتهم ، فأحسنوا مرات ، وأصاب الخلل تنظيماتهم مرات أخرى . على أن هذه التنظيمات الوضعية أو سواها قد تكون قادرة على ضبط الأوضاع الإقتصادية للمجتمع وقد لا تكون ـ وكثيراً ما لا تكون ـ فيَعيثُ أصحاب الأموال فساداً في الأرض ، لأن « المال مادة الشهوات » ولأن خراب المجتمعات منوط بأغنيائها ، لبعدهم عن الله واستهتارهم بمبادئه وقوانينه وعدم تطبيقهم لها . وهذا يفسره قوله تعالى : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** ﴾[2] . وسبب هذا الواقع أن مصادر المال غير صحيحة ، والأموال التي يجمعونها غير طاهرة وغير مطهّرة . وفي قول علي (ع) : « ما جاع فقير إلاَّ بما مُتِّع به غني » ، وقوله : « ما جمع مال إلاَّ من شحّ أو حرام » ، في هذين القولين إشارة إلى مصادر المال ، واعتبار أن النظام الإسلامي الإقتصادي لا يسمح بتكديس الثروات ﴿ **كي لا يكون دولة بين الأغنياء** ﴾[3] ، بل يريد أن يكون المال وسيلة

---

(1) سورة هود ، الآية : (٦) .

(2) سورة الإسراء ، الآية : (١٦) .

(3) سورة الحشر ، الآية : (٧) .

لتحقيق إرادة الله في المجتمع ، فلا يجوع ناس ويتخم آخرون . ولهذا إذا رأينا ثروة كبيرة لإنسان أيقنا معها أن مصادر أمواله كانت من : شح أو من : حرام . ومن كانت أمواله كذلك فقد استحق غضب الله تعالى . وقد نهى الله عن التعامل مع هؤلاء ، وعن الإعجاب بهم وموالاتهم والرغبة في التقرب منهم والتودد إليهم ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم . إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾[1] . وهذا الواقع ما زال قائماً ، ويبقى قائماً لأنه يلبي حاجة في نفس الإنسان وهي الرغبة في الحصول على المال والسعي إليه وجمعه بأية وسيلة ممكنة ، والتهرب من دفع الحقوق والتصرف بهذه الحقوق بطريقة غير صحيحة . ومهما حاولت السلطات القائمة ضبط الأمور وتحديد مصادر الأموال وتحديد الحقوق التي للدولة فيها بمقتضى القوانين أو بمقتضى الشريعة ، فإن الناس يجتهدون في إيجاد الوسائل والأساليب للهروب من دفع المتوجب عليهم ، مع كونهم في غنى عنه لأن ما عندهم أكبر بكثير وما يطلب منه قليل . وذلك لأن الإنسان كما وصفه الله تعالى : ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾[2] ، وأنه ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة ، والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب** ﴾[3] . وإذا كان المال عزيزاً على نفس الإنسان بهذا المقدار فإن الله تعالى يعطي هذا الإنسان ما يشاء من المال ليختبره ، وبخاصة إذا كان كافراً ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون** ﴾[4] و﴿ **لا يحسبنّ الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم . إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً** ﴾[5] . وأنا أرى يا بني أنه ما من شيء يمكن أن يعالج هذا الواقع النفسي في الإنسان إلاّ الإيمان . هذا الإيمان الذي يجعل الإنسان يقوم بواجبه تجاه أخيه الإنسان بدافع من المحبّة التي أمر الله تعالى بها وتعاون الناس فيما بينهم « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه**

---

(١) سورة التوبة ، الآية : (٥٥) .

(٢) سورة العاديات ، الآية : (٨) .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : (١٤) .

(٤) سورة الزخرف ، الآية : (٣٣) .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : (١٧٨) .

لنفسه » و« **الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله** » وهذه المحبة للإنسان مقترنة بمحبة الله تعالى والعمل على ما فيه رضاه . والإنسان المؤمن إيماناً حقيقياً هو الذي يقوم بواجباته المفروضة عليه كاملة غير منقوصة ، ويشعر في قرارة نفسه بالرضى والطمأنينة ، كما يشعر برقابة دائمة عليه تدفعه إلى عمل الخير والالتزام به . وفي مجتمع مؤمن صحّ إيمانه لا ترى مثل هذه الفوارق الإجتماعية والطبقية والمالية ، ومن أخلّ بالإيمان عوقب بمقتضى الشريعة . وإذا كان الله تعالى رؤوفاً رحيماً فهو في الوقت نفسه شديد العقاب ، وإذا كانت الشريعة سمحاء فهي في الوقت نفسه صارمة ، ولا بد للحدود من أن تُحد على المنافقين الكافرين والفاسقين الفاجرين .

* * *

التعاون الإجتماعي :

- نرى اليوم مؤسسات مدنية منها ما له طابع خاص - في دولة معينة أو في مجتمع خاص - ومنها ما له طابع عام . . تحاول أن تشمل برعايتها العالم كله ، وتحاول أن تقدم مساعدات للمعوزين وتساعد وتواسي وتخفف عن الناس من ضمن مؤسسة الأمم المتحدة ومن ضمن مؤسسات دولية أخرى . . . أفلا ترى في ذلك تجربة نافعة لخير البشرية ؟ وما رأيك فيها يا جد ؟

● في الأصل يا بني كل عمل خيّر مشكور ، وقد يؤتي ثماره وينفع الناس ويحقق السعادة للمجتمعات . ولكن الذي يحصل يا بني أن كل عمل من هذا النوع ، وكل تنظيم إنساني يبقى محدود المنفعة وذلك لأسباب عديدة منها مصادر المال في هذه المؤسسات العالمية ، وهي مصادر غير ثابتة بل هي نوع من صدقات أو مساعدات يجود بها الناس أو الدول . وإذا اختلفت مواقفهم وقناعاتهم لسبب ما فقد يقطعونها ويتوقف كل شيء ، ونبع يفور ويغور لا خير فيه ، لأن نبعاً لا يروي الناس بصورة دائمة قد يكون مصدر عذاب لهم . ولو كان الإنسان يقدم ماله بحد محدود ، وبصفة دائمة ، وبإيمان عميق ومحبّة ، وشعور بالمسؤولية وشعور بالقيام بالواجب أفضل من صدقات منقطعة وتأتي بدافع الشفقة والرحمة أو بدافع تحقيق المكاسب المادية والمعنوية . ولنفترض أن هذه الأموال تدفع على النحو الذي ذكرنا فإن القيّمين

عليها قد لا يوصلونها إلى مستحقيها . وهذه حال المؤسسات اليوم . فقلّما تجد تقديماتها عامّة شاملة ، وقلّما تجدها تلبي الحاجة ، وكثيراً ما يستحوذ عليها الأغنياء والمسؤولون فلا تصل إلى أصحابها فتجعلها تنجرف عن غايتها الإنسانية . ثم ألا ترى كثيراً من الأمور والمفاهيم تستبد بالمسؤولين عن هذه المؤسسات . وبهذا الواقع فإنهم يرفضون كل ما يخالف قناعاتهم الشخصية وأهواءهم . وكما كانت المواقف السياسية للأمم المتحدة تخدم أغراض الأقوياء ولا تستطيع أن تتفلت من سيطرتها ، ويستفيد منها فاجرون منافقون أعداء الإنسانية كإسرائيل مثلاً ، فإن المواقف الإنسانية تسير أحياناً كثيرة في مثل هذا المسار ، فلا تتحقق الغاية المعلنة لهذه المؤسسات ، ويبقى خيرها مقتصراً على جماعة دون جماعة ، ولا يعالج المشكلات الدولية والإنسانية معالجة صحيحة ، بدليل أن مشكلات الفقر مثلاً باقية تستعبد العالم الثالث كلّه تقريباً ، وبقي عطاء المؤسسات الدولية مظاهرات إعلامية لا يحل مشكلة شعب ما ، وهو كدواء مخدّر أو مهدّيء يساعد المريض على تحمّل الآلام ويخفف منها دون أن يعالجها . وبرأينا أنه لا تستقيم الأمور إلاَّ متى آمن الناس أن الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، وسعوا لتطبيق هذا الإيمان بصدق .

أما إذا نظرنا إلى مصدر المال الذي تستخدمه هذه المؤسسات في تقديماتها لرأيناها في أحيان كثيرة غير طاهرة وإنما تأتي من مصادر محرّمة بمقتضى الشريعة ، كأن تكون من ربا مثلاً أو من ظلم أو من حرام . . . وهذا موضوع على مقدار كبير من الأهمية . فإن الله تعالى عندما خلق الإنسان خلقه طاهراً حراً وأراده أن يبقى حُراً وطاهراً في نفسه وفي أهله ونسبه وعائلته وأولاده وطعامه وشرابه ومصادر رزقه ، وعيّن له الحلال والحرام ، وحدَّد له مصادر الرزق الحلال وأمره أن يبتعد عن كل شيء مشبوه ، أو فيه شرك أو مخالفة للشريعة . وأمرنا أن نصدر في كل أعمالنا عن إيمان بالله وحده وأنه مالك الملك ، ومصدر كل خير والناس عباده ، ولا يملك أحد منهم شيئاً إلاَّ بإرادته وقد أوجب علينا ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾[1] وكثر في الشريعة قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّ لكم ﴾ . . . و﴿ حُرِّم عليكم ﴾ . . . وعلى هذا فقد

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (١٢١) .

صارت بعض مصادر هذا المال موضع تساؤل . وصار واجباً علينا التريّث في أمرها ، ومعرفة مصادرها إن أمكن والتثبت أن ما يصلنا من هذه الأموال يأتي من مصادر صحيحة .

- وهل ترى في الإمكان التثبت من هذا الأمر ومعرفة مصادر هذه الأموال التي جمعت من دول العالم كلّه ، وكيف كان الحصول عليها ؟ وهل ينتظر الناس - والجائعون منهم بصورة خاصة - أن يعرفوا مصدر الطعام مثلاً أو أن يسألوا عن مصدره وهم في أمس الحاجة إليه ويكادون أن يموتوا جوعاً ؟

● هذا واقع صحيح يا بني إنما أنت تسأل عن أمور في منتهى الدقة والأهمية ، وأنا أدرك ما تقول ولكن : هل تريدني أن أقرّ الواقع على ما فيه من خبث ومخالفات للأصول ، وأغض الطرف عن مخالفات وحقائق يعرفها ويكتشفها كل متأمّل ؟ ولو أني قلت لك غير ما قلته لكنتُ مساهماً في طمس الحقيقة والواقع ، وأعتبر كلامي غشاً ، وأعتبره تقصيراً في القيام بالواجب في قول الحق ، وهداية الناس إليه ، وأنا أحمل مسؤولية ذلك . وإنك ترى هنا يا بني مقدار المأزق الذي يقع فيه الإنسان المؤمن إذا أراد أن يكون مؤمناً بحق ويخلص إيمانه بالله تعالى ويحاول أن يكون صادقاً مع نفسه ، منطلقاً من الحق ، عاملاً به ، ولا يريد أن يحمل إثماً ، حتى يكاد الناس يرونه شاذاً في كل شيء و « يصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر » بمقتضى الحديث الشريف ، ويعيش غربة في الحياة والفكر وبين الناس . . . وهو أمام أحد أمرين : إما أن يقبل هذه الغربة ويعيشها راضياً قانعاً مع ما فيها من قساوة ومرارة ، وإما أن يجاري الحياة والناس ويغضب الله تعالى ولألف ألف مرة حياة الوحدة والوحشة والغربة والفقر والعوز ، والموت بعدها في طمأنينة وراحة بال . . . على أن يغضب الله تعالى عليَّ لمخالفتي لأوامره ونواهيه . وبرأيي أن المؤمنين يستطيعون أن يؤسسوا لهم مجتمعهم الذي يبنونه على قواعد سليمة ، وأن ينشئوا لهم مؤسساتهم الإجتماعية الخاصة بهم والتي تستطيع أن تحل كل مشكلاتهم . ولكن الخروج عن الإيمان هو الذي يوقع في الزلل ، وأخشى أن تصير حالنا إلى ما صارت عليه حال الذين سبقونا ، وقد تحدث عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى : **﴿ ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة**

والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾[1] . وبرأيي أننا لسنا أحسن من سوانا . فهل ترانا ـ كمجتمع ـ نقيم الشريعة ونعمل بها ونرعاها حق الرعاية ؟! وإن كنت لأرجو ذلك فإنني لأخشى أيضاً أن نكون ممن ﴿ **ساء ما يعملون** ﴾ فيحق علينا العقاب والنقمة . وأعوذ بالله من غضب الله ! .

ـ أفتريد سجناً أكبر من هذا السجن وأقسى وأشد يا جداه ، يحيط بالإنسان ويقيّده فيعيش أسير الهواجس والأوهام والشكوك ويعيش غريباً بين الناس وفي مجتمعه وبين أهله . . . ثم يموت حزيناً متألماً ، فلا خيراً كسب ، ولا أصلح مجتمعاً ، ولا شعر بلذة الحياة ، وعاش الفقر والحرمان والمذلة ؟!

● هو السجن يا بني ، ولكنه سجن من صنع الإنسان أوثق به نفسه وكبّل عقله قبل أن يكبّل يديه ورجليه ، وعاش أسير أوهامه ، شاعراً بضعفه أمام الباطل الذي يشكل واقع الحياة ، وهو يعرف أنه باطل ، وضيّع الحق وهو يعرف أنه الحق ، ووقف عاجزاً عن نصرته ، ومال إلى الخنوع والذل مستجيباً لنداء رغباته وملذات نفسه ، خاضعاً لسيطرة المادة والأهواء، يحتجّ لذلك بحجج واهية. وهذا السجن يا بني في الحقيقة بيت عنكبوت ، بل هو أشد وهناً من ذلك ، ولكن الإنسان إذا استسلم لرغباته وميوله كثيراً ما يصير أضعف من أن يخلص من بيت العنكبوت هذا على ما فيه من وهن ، وتأسره العنكبوت وتحنطه وتبتلعه خاملاً خانعاً ، وينتهي ، وتقوى العناكب ، وتتشابك بيوتها فلا تعود تعرف لها أولاً من آخر ، وتقوى خيطانها فتصطاد الأسود ، وتصير الدنيا ـ مع العناكب ـ أشبه ما يكون بمغارة سكانها عناكب وبرغش ونمل وصراصير وعقارب وجرذان وحيّات . . . ويصبح مستحيلاً للإنسان أن يعيش فيها إلاّ أن يصير واحداً من هذه الهوام أو أن يألفها وهي لا تألفه ، وقد يموت بلسعة برغش .

وكلاهما مسجون يا بني : من يتمسك بعاداته السليمة وتقاليده القديمة وشرائعه سجين ومن يتفلّت من عاداته وتقاليده وشريعته. . . سجين أيضاً، ولكن الأول أفضل من الثاني ذلك أن الأول حُرّ الفكر، وحر العقيدة، ويعرف درب الخير ويسير فيه، ومن كان

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : (٦٥ و ٦٦) .

أسير الحريّة ويسير في الدرب الصحيح فليس أسيراً . ولكن الأسير والسجين من استعبدته شهواته وميوله ورغائبه فحاد عن جادة الصواب والحق والخير . ويجب أن تعرف يا بني أن الحياة التي أعيشها ليست حياة هواجس وأوهام وشكوك ذلك أنني على يقين مما أقول ، وأعرف ما أريد وأنا على صواب بإذن الله . أما أن أكون غريباً فهذا صحيح . فهل رأيت نبياً أو مؤمناً صالحاً أو رجلاً من رجال الله إلاَّ عاش حياة الغربة بين الناس ، وبين أهله بصورة خاصة . ألم تسمع الحديث الشريف الذي يقول : « **لا كرامة لنبي في قومه** » . أما الحزن والألم فلا ، بل إن المؤمن بالله يعيش في راحة نفسية لا حد لها ونوع من طمأنينة يثبّته الله تعالى عليها . ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون** ﴾[2] . أما حياة الفقر والحرمان فهذه ثوب عُبَّاد الله الأتقياء ، ولا تَخْشَيَنَّ يا بني فأنا في قرارة نفسي أعيش في سعادة ولذة وطمأنينة لا تبلغها أنت ولا سواك ، وإن كنت أتمنى لك أن تبلغها . وغداً . . . غداً سنرى من تكون له عاقبة الدار ، ومن سيفوز بالمقام الأرفع عند الله ، ولا تنسَ يا بني قوله تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد** ﴾[3] و﴿ **وبشِّر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلواتٌ من ربِّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[4] .

وسبيل الخلاص يا بني أن تعرف ماذا تفعل فلا تظلم أحداً شيئاً . وفي موضوع المال : أن لا تأخذ ما ليس لك ، وأن لا تأخذ مالاً مما دخل للشيطان فيه نصيب ، بل خذ من مال الله ، واسع للكسب الحلال ، ولا يدفعنّك جوعك إلى الوقوع في الخطيئة ، ولا تمنعنك نفسك من الاعتصام بحبل الله والاعتماد عليه وحده ليفتح بصيرتك ، ويبيّن لك سبيل الخير فلا تضل ، ويقدرك على احتمال مشقات الحياة

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٦٩) .

(٢) سورة فصلت ، الآيتان : (٣٠ و ٣١) .

(٣) سورة الحديد ، الآية : (٢٠) .

(٤) سورة البقرة ، الآيات : (١٥٥ ـ ١٥٦ ـ ١٥٧) .

الدنيا وإزعاجاتها وهمومها وبؤسها ، وعليك أن تحمل المشقة وإن كان غيرك لا يحتملها . . . فتبقى معافىً سليماً في نفسك وفي بدنك وفي حالك وطعامك وشرابك ، فتلقى الله طاهراً من كل عيب .

* * *

مصادر الرزق ووسائله :

ـ بما أن الله تعالى قدّر للناس أرزاقهم وما من إنسان إلاَّ يرزقه الله تعالى من عنده . . . فلو أن الله تعالى أعطى الناس أرزاقهم كلها ودفعة واحدة في وقت مبكر من حياة الإنسان لحلّت مشكلة كل شخص ولعاش سعيداً ، ولاستطاع أن يؤمن حياته وحياة عائلته كلها بهذا المال الذي خصص له .

● يجب أن يبقى في ذهننا يا بني أن الله تعالى هو الخالق لهذا الكون بكل ما
وهو أدرى بما خلق . والله تعالى لا يمكن أن يأتي عملاً
تعالى خير مطلق ولا يصدر عنه إلاَّ الخير . وبمقتضى
معرفته بما خلق فهو اعرف أيضاً كيف يوقّع الأعمال والأفعال في أوقاتها بحيث تؤتي فائدة كاملة . وقد يكون الخير الذي ينزله الله تعالى على إنسان مقصوداً به خير ومنفعة هذا الإنسان بذاته . وقد يكون هذا الإنسان واسطة للخير الذي يصيب الآخرين كأن يكون أباً مثلاً ويكون المال للأولاد لا للأب ، والمراد به خيرهم وسعادتهم ، ووجود الأب قبل الأولاد ، وهو موجود أيضاً بعد وجودهم ، ويستمر وجوده أعواماً كثيرة ولا مال لديه ، ثم يصير صاحب مال ، والواقع أن المال ليس ماله ولا هو له . ولكن كثيرين من الناس لا يفهمون ذلك ، ثم إن الإنسان نفسه قد يعطيه الله تعالى مالاً في سن معيّنة ، وقد يكون المقصود خيره هو شخصياً على أن مصلحته ـ التي يعرفها الله تعالى وحده ـ هي في حصوله على المال في هذا الوقت وليس قبله ولا بعده . وهنا يحصل تصادم بين الرغبة في الحصول على المال ، وبين المنفعة المنوطة بالإرادة الإلهية ، ولما كان الإنسان لا يعرف السر فهو يستعجل حصول النعمة ويستبطئها ، ولا يطيق صبراً عليها . و﴿ **وكان الإنسان عجولاً** ﴾[1] و﴿ **خلق الإنسان من عجل سأريكم**

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : (١١) .

آياتي فلا تستعجلون ﴾[١] . وهـذه العجلة في الإنسان وحبُّ الخيـر فيه ممـا يجعله ينسى الإرادة الإلهية ، وقد يتصرف بما يخالفها ، وقد تخرجه عجلته هذه وحب الخير الذي فيه ﴿ **وإنه لحب الخير لشديد** ﴾[٢] عن جادة الصواب ، وتورده موارد التهلكة . ويجب أن تذكر دائماً قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[٣] وقوله تعـالى : ﴿ **فقدرنا فنعم القادرون** ﴾[٤] . . . وقد يكون الإنسان مـوضوع العـطاء مقدّراً عليـه رزقه[٥] ، وقد يكون هذا الرزق قد أعطي له جميعـاً وهو مـا زال ينتظر ، وقـد يكون تقدير رزقه عليه أن لا يُعطاه دفعة واحدة بل على دفعات ومع الزمن ، وهو لن يستطيع الحصول عليه إلاّ في أوقاته ، وتقدير رزقه عليه على هذا النحو أو ذاك هو بدون شك لمصلحته .

كل ذلك يقتضي من الإنسان أن يؤمن بالله تعالى إيماناً مطلقاً لا حدّ له ، ويوقن أن الله تعـالى هو الأعلم بمصلحتنـا ، والأحفظ لها فنـطيعه ونعبـده ونشكره ونسبّـح بحمده ، ونؤمن بإرادته ونطمئن إلى مشيئته ، فتكون لنا سعادة الدارين . وهو تعالى يريدنا مؤمنين به ، عابدين له ، وإن كان إيماننا وعبادتنا وطاعتنا . . . لا يقدم أو يؤخر في شيء ، فإنه تعالى ﴿ **حبّب إليكم الإيمان وزيّنـه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفـر والفسـوق والعصيان** ﴾[٦] ، وإذا كفـر الإنسان بكـل نعم الله تعالى عليـه فإن ذلـك لا يضير الله في شيء ﴿ **إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾[٧] .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : (٣٧) .
(٢) سورة العاديات ، الآية : (٨) .
(٣) سورة القمر ، الآية : (٤٩) .
(٤) سورة المرسلات ، الآية : (٢٣) .
(٥) سورة الطلاق ، الآية : (٧) .
(٦) سورة الحجرات ، الآية : (٧) .
(٧) سورة الزمر ، الآية : (٧) .

- ٥ -

الإنسان والشريعة

وحدة الشريعة الإلهية :

- إنك تحدثني دائماً عن الشريعة يا جد ، وتجعلها فوق كل القوانين والنُظُم . . . وأتصورك في حديثك عن هذه الشريعة تكاد لا تأخذ إلَّا من مصدر أوحد هو الشريعة الإسلامية . أليست هناك شرائع أخرى ؟ وما هي أهميتها عندك ؟

● في الأصل يا بني هناك شريعة واحدة هي شريعة الله تعالى ، ابتدأت منذ زمن آدم عليه السلام ، فكان آدم أول المؤتمنين على هذه الشريعة ، ثم استمرت هذه الشريعة في الخليقة يحملها الأنبياء واحداً بعد واحد ، وهي في الأصل واحدة ﴿ **ما يقال لك إلَّا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾[1] ، و﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾[2] . ولكن تعاقب الرسل يحمل ضمناً فكرة عن تعاقب الأزمان وتبدل الأحوال والشعوب والظروف الحياتية ، مما كان يقتضي أمرين : أولهما : حل مشاكل كل شعب بمقتضى الحاجة ، وهذه المشكلات وهذه الحاجات قد لا تكون واحدة . وقد تكون بعض الشعوب وبعض الأزمنة مختصة بمشكلات لا تعرفها شعوب أخرى ، مما اقتضى قوانين خاصّة لم تقتضِ مثلها حاجات الشعوب الأخرى . فكان وجه من وجوه الشريعة أو جزء منها . والثاني : الصدور في كل القوانين التي تحل هذه المشكلات الحياتية الآتية من مصدر واحد ونبع أساسي هو مصدر الشريعة الأساسية

(١) سورة فصلت ، الآية : (٤٣) .

(٢) سورة الجاثية ، الآية : (١٨) .

الإلهية الواحدة ، ووحدتها ناجمة عن وحدة الخالق ووحدة البشرية بمعنى أنها تعود كلها لأب واحد وأم واحدة هما آدم وحواء مما اقتضى مساواة وعدالة بين الناس جميعاً ، وعن وحدة المشاكل الإنسانية لأن مصدرها النفس الإنسانية وهي واحدة في طباعها وتكوينها ومزاياها . . . فالشريعة إذن واحدة يا بني هي شريعة الله تعالى ، ووجود أوجه لهذه الشريعة أو تجزئتها بمقتضى الزمن فإنه لا يخرق هذا الواقع ولا يبدله ، بل كان من باب الرأفة بالعباد ومراعاة ظروفهم وخصوصيات حياتهم دون أن يخالف الأصل والأساس . وهذا ما يثبته الله تعالى في قوله : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى** . . . ﴾[١] فهي شريعة واحدة ، ودين واحد بمقتضى نص الآية الكريمة ولو اختلفت الأجيال وتبدل الأنبياء وتعاقبت العصور .

وهنا يجب أن تعرف يا بني أن الله تعالى ليست عنده إلَّا شريعة واحدة وإلَّا دين واحد هو الإسلام : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[٢] بمعنى أن الإسلام هو دين الله ، وكل التسميات الباقية للأديان الأخرى أجزاء من الدين الواحد ، ومن الشريعة الواحدة التي هي الشريعة الإسلامية . وبهذا قال آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى . . . أنهم من المسلمين[٣] . والمُسلم بمقتضى الشريعة الإسلامية ﴿ **من أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾[٤] ، والإسلام هنا بمعنى الاستسلام للمشيئة الإلهية والرضى والقبول بها دونما اعتراض أو إنكار أو جحود والتوكل على الله . وهذا التعريف ليس مختصاً بالمسلم من أتباع محمد ﷺ ، بل كل مؤمن برسالة الله تعالى وشريعته وبكتبه ورُسُله[٥] . فصار الحديث عن الشريعة الإسلامية حديثاً عن شريعة

---

(١) سورة الشورى ، الآية : (١٣) .
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان : (١٩ و ٨٥) .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : (١٢٦) ويونس ، الآيات : (٧٢ و ٨٤ و ٩٠) والنمل ، الآيات : (٣١ و ٣٨ و ٩١) والقصص ، الآية : (٥٣) .
(٤) سورة البقرة ، الآية : (١١٢) وسورة النساء ، الآية : (١٢٥) .
(٥) سورة البقرة ، الآية : (٢٨٥) وسورة النساء ، الآيات : (١٣٦ و ١٥٠ و ١٥٢) .

الله وإرادته المطلقة غير المحدودة بزمان ولا مكان ، وليست خاصة بشعب دون شعب ولا بأمّة دون أمّة .

- إذا كان الأمر كما تقول فلماذا أراك لا تتذكر سوى ما جاء في القرآن الكريم ، وكأنك لا تعرف شيئاً من الكتب السماوية الأخرى ؟

● يعود الأمر يا بني إلى أنه ليس بين أيدينا من الكتب السماوية إلّا القرآن الكريم . وهو وحده جامع وكافٍ ووافٍ ، وقد جعله الله تعالى كذلك ، فقال : ﴿ **ومصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه** ﴾[1] . فتكون هذه « الهيمنة » إرادة إلهية في السيطرة والتفضيل على كل ما عندنا وما هو معروف في زمننا من الكتب السماوية ، دون أن يكون بين هذه الكتب السماوية من فوارق أو خلافات . ولكن الأمر يقتضي توضيح ما يلي : إن الله تعالى أنزل كتباً سماوية على رُسُله وأنبيائه وكان أكبرها وأعظمها - بعد القرآن - إثنان هما التوراة والإنجيل ، ولو كان نزولهما سابقاً على نزول القرآن ، ولكن بني إسرائيل أولاً لم يستطيعوا أن يحملوا الرسالة التي حمّلهم إياها الله تعالى فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً[2] ، وكانوا يحرّفون الكلم عن مواضعه[3] ، وبدّلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار[4] ولم ينفذوا ما جاء فيها من تعاليم ، وضيعوها[5] . . . واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله[6] وكان مَثَلُهُم - بعد أن حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها ﴿ **كمثل الحمار يحمل أسفاراً** ﴾[7] ، فكان أن عاقبهم الله تعالى بأن رفع التوراة عنهم بعد أن ثبت فشلهم في حمل الرسالة التي أرادهم الله تعالى أن يحملوها[8] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : (٤٨) .
(٢) سورة البقرة ، الآيات : (٤٠ و ٧٩) .
(٣) سورة البقرة ، الآية : (٧٥) .
(٤) سورة إبراهيم ، الآية : (٢٨) .
(٥) سورة آل عمران ، الآية : (٩٣) وسورة المائدة ، الآيتان : (٦٦ و ٦٨) .
(٦) سورة التوبة ، الآية : (٣١) .
(٧) سورة الجمعة ، الآية : (٥) .
(٨) سورة سورة آل عمران ، الآية : (٩٣) .

أما القرآن الكريم فإن الله تعالى أنزله على رسوله ، وتعهّد بحفظه وصونه : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[1] وهو ﴿ **كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[2] . وقد جعله الله تعالى فوق كل كتاب وفي مقام من القدسية ليس لسواه ﴿ **لا يمسه إلّا المطهرون** ﴾[3] وجعله ﴿ **شفاء لما في الصدور** ﴾[4] كما جعله عظيم القدر والأهمية وممثلاً لقدرة الله تعالى ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾[5] . وبهذا صارت الشريعة الإسلامية ـ ومصدرها القرآن الكريم ـ شريعة الله تعالى وحدها لما في المصدر من ثبات ، ولما أصاب المصادر الأخرى والكتب السماوية الباقية من تحريف وتبديل أفقدها العظمة الإلهية وجعل الشك يراود الناس فيها بعدما كان من شأن أتباعها وتلاعبهم بها .

* * *

الشرائع الوضعية :

ـ في العالم اليوم يا جد فصل بين الشريعة والدولة وسعي لإقامة مجتمعات علمانية يتعامل الناس فيها على أساس لا ديني وإنما انطلاقاً من مباديء إنسانية تساوي بين الناس جميعاً من أي جنس كانوا ، وبين أبناء الوطن الواحد إلى أي دين انتموا ، وتنظم أوضاعهم شرائع وضعية من صنع الإنسان ، وتحاول هذه الشرائع أن تحل محل الشرائع الدينية أو الشريعة الإلهية . ويبدو أن هذا الاتجاه قد نجح بدليل انتشاره في الأرض وأخذ الناس به وتطبيقهم له . فما الذي تراه في هذا الموضوع ؟

● في الأصل أنا لا أعارض أية شريعة أو أي قانون رائده العدالة الإجتماعية ،

---

(١) سورة الحجر ، الآية : (٩) .
(٢) سورة فصلت ، الآية : (٤٢) .
(٣) سورة الواقعة ، الآية : (٧٩) .
(٤) سورة يونس ، الآية : (٥٧) .
(٥) سورة الحشر ، الآية : (٢١) .

ويكون مع الحق وضد الباطل . وإذا كان الإنسان قادراً على أن يحقق هذا الحلم فلا بأس بذلك ، بل يكون إنجازاً رائعاً يدل على تطور الإنسان وتحضّره وتمدّنه وتقدّمه خطوة في سبيل تحقيق المجتمع الأمثل الذي كان ولا يزال وسيبقى حلم الإنسانية إلى يوم القيامة . وهذا برأيي هو المقياس الصحيح للحضارة والمدنية : الإنصاف وإحقاق الحق ، وليس أي إنجاز ماديّ مهما عظم شأنه ومهما كانت نتائجه حتى لو اخترق الإنسان الفضاء وحطّ في الكواكب ، واكتشف مجاهل الكون . . . وإن كنت لا أؤمن بأن شريعةالإنسان يمكن أن تحقق العدالة على الأرض . ذلك أن الإنسان يا بني سجين ميوله وأهوائه ورغباته ونزواته . . . كما قلت لك ، وسجين مطامعه وشهواته ، ومن خلالها يتصرّف . وإذا نظرت اليوم إلى الدول التي يسمونها كبرى والتي تقود العالم وهي رمز الحضارة والمدنية والتطور ، إذا نظرت إلى قوانينها تجد أن لها مفهوماً خاصاً للشريعة وهو أن شريعتهم هي شريعة الأقوياء لا شريعة الإنسان ، شريعة الأسد والنمر والذئب والثعلب . . . لا شريعة الحمامة ولا شريعة الغزال ولا النعجة ولا الدجاجة ولا الحسون . . . يدّعون العدالة وهم الجُناة ، يدّعون السلام وهم المجرمون ، يدّعون الحريّة وهم الذين اغتصبوا وما زالوا يغتصبون حرية الشعوب ، يدّعون الحضارة وهم همج ورعاع ورعاة بقر وعُبّاد خمرة ونساء ، ويدّعون الحق وهم سارقون لخيرات الشعوب ينصرون المجرمين على المسالمين ، ويهجّرون الناس من بلادهم وديارهم ، ويدّعون الحضارة وهم قتلة سفّاحون ما إن تهدأ حرب في بلد حتى يثيروها في بلد آخر ، ويدّعون السعي للسلام والوقوف في وجه الحروب وهم الذين يبيعون السلاح للمتحاربين ويعتبرونها تجارة ، وكل تجارة عندهم مشروعة . . . ولو أردت أن أعدد يا بني مخازي هذه الدول الكبرى وهذه « الحضارات » لما استطعت أن أنتهي ، لأن بحر مخازيهم قد صار محيطات ، ولأن بحور الأرض ومحيطاتها قد امتلأت بمخازيهم حتى طغت هذه المخازي على وجه هذه المحيطات والبحار ، وأينما اتجهت رأت عينك المقابح والمخازي التي تشمئز منها نفسك . . . ولكنك تسكت عنها ، أو أنت مضطر أن تسكت عنها ، أو تتجاهلها . . . لأنهم علّموك أنها الحضارة وأنها « شرعة حقوق الإنسان » وأنها منظمة الأمم المتحدة » أو « منظمة الدول الصناعية » أو . . . وينسون شعباً يقتل كل يوم في

فلسطين وفي لبنان ، و « لا يدركون » ـ خسئوا وكذبوا ـ أن إسرائيل دولة معتدية . ولا يعرفون ـ كذبوا ـ أن ثواراً في كل مكان يطالبون بالحرية والعدالة ، وهم يحرقون محاصيلهم الزراعية الفائضة للمحافظة على مستوى معيّن للأسعار ، ويخضعون لبرامج الفضاء وحرب النجوم وللدفاع وصناعة الأسلحة . . . ميزانيات تكفي واحدة منها أن لا تدع جائعاً على وجه الأرض . . .

هذه عدالة الإنسان يا بني ، وهذه شريعة الإنسان وقوانينه ومبادئه . وهذه هي الشرائع الوضعية التي يتحدثون عنها . هؤلاء أناس يا بني استطاعوا أن يخرجوا من « السجن » الذي يتراءى لك سجن العقيدة والشريعة والعقل والعدالة والضمير والأخلاق . . . وتحللوا من قيود هذا « السجن » ليقعوا في قيود سجنهم الحقيقي : سجن الشهوات والغرائز والغضب والكفر والنفاق والدجل والاحتيال والظلم والكراهية والكيد للآخرين والمال واللذة . . . فمن الحر ومن السجين يا بني ؟!!!

وقد رأيت ـ ولا تزال ترى ـ أن كل الشرائع الوضعية حبر على ورق ، وكلام دون فعل : من أين تريدني أن أبدأ : من الأمم المتحدة ؟ سؤال واحد يا بني : هل استطاعت الأمم المتحدة أن تطبق شريعتها فتقيم مجتمع العدالة في العالم وتنصف المظلوم من ظالمه ؟ لا ، والدليل على ذلك مأساة الشعب الفلسطيني التي تجاوزت أعوامها الأربعين وهي قضية في منتهى العدالة . شعب مظلوم ، وجلّادون ظالمون. والأقوى والأقدر والذي يفترض فيه أن يكون حكماً صار طرفاً إلى جانب الظالم. وهل استطاعت الأمم المتحدة أن تتخذ قراراً يدين ظالماً؟ نادراً ما حصل ذلك؟ وهل استطاعت الأمم المتحدة أن تنفذ قراراً اتخذته ضد ظالم؟ طبعاً لا. ودليله ما تفعله إسرائيل في لبنان. ولو أحصيت قرارات الأمم المتحدة في موضوع فلسطين ولبنان منذ السنة ١٩٤٨ وحتى اليوم لوجدت قرارات كثيرة لم ينفذ واحد منها . ولو راجعت مشاريع القرارات التي عطّلها الأقوياء ووقفوا فيها ضد الشعوب المستضعفة ومع الظالمين لوجدت أن الأقوى والذي ينادي بحقوق الإنسان ، وتمثال الحريّة فيه هو الأشهر وهو الرمز . . . هذا الأقوى هو الشريك في الجريمة إن لم يكن مرتكبها . وبقية دول « العالم الحر » ـ ما أجمل التسمية وما أقبح الأفعال ـ شريكة للأقوى

والأكبر و « الجبار » والعظيم ﴿ **وخاب كل جبّار عنيد** ﴾[1] وهي ليست أفضل منه حالاً ، بل هي أستاذه . وعلى أيديها تخرّج ، فبئس الأستاذ وبئس التلميذ ، وبئس العالم الذي لا يفهم معنى العدالة ولا يعرف الحق .

أما المساواة بين أبناء الوطن الواحد بصرف النظر عن الدين أو الجنس فحبذا لو كانت نافذة يا بني ، وإذا كان الإنسان يستطيع أن ينظر إلى أخيه الإنسان نظرة إنسانية صرفة لكان هذا إنجازاً عظيماً يتمشى مع ما جاءت به الشريعة ، ويحاول اللحاق بها حيث جاء على لسان الرسول الأعظم عليه أفضل الصلاة والسلام : « **كلكم لآدم ، وآدم من تراب** » . وقوله : « **الناس سواسية كأسنان المشط** » ، وقوله : « **الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله** » . . . ولكن ألا ترى أن بعض الحروب التي تقوم في العالم ، وفي دول تعتبر نفسها متحضّرة ، تقوم على أساس ديني ؟ ماذا عن الحرب في إيرلندة مثلاً ؟ وهي حرب تقوم اليوم . هذا غير الحروب الدينية التي قامت في الدول « المتحضرة » ، وكان سببها الخلافات الدينية بين أفراد الشعب الواحد . . . ثم كيف ترى حالة التمييز العنصري القائمة في الولايات المتحدة الأمريكية ؟ وهل تراها انتهت ؟ ولو قُدِّر للمتطرفين البيض أن يحكموا فماذا كانوا يفعلون بالسود ؟ ثم ألا تسمع ما يجري اليوم في أمريكا في هذا المجال ؟ وفي جنوب أفريقية ماذا يفعل البيض بالسود ؟ . . .

أما رأينا يا بني في قيام مجتمعات علمانية في الوقت الحاضر فنحن مع جانب واحد منه : النظر إلى الإنسان كإنسان لا من خلال العقيدة ، وتغليب الحق والعدالة على أي شيء آخر دون المساس بحريّة العقيدة ومحاولة منع الناس من ممارسة شعائرهم الدينية . أما أن نفهم العلمانية على أنها ترك للدين وابتعاد عنه ، وإباحة المحرّمات ، وعدم الارتداع عن الفجور والموبقات وارتكاب الآثام . . . فإننا لا نقرّه أبداً ، بل إننا نصرّ على أن تبقى هذه الأخلاق وهذه المفاهيم والإيديولوجيات في كل مجتمع ، علّها تروّض الإنسان فيصير إنساناً فعلاً ، لأن الخروج عن هذه المفاهيم معناه إطلاق الوحش من قفصه أو سجنه فيعبث في الأرض فساداً سِكراً وزنى وربآ

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية : (١٥) .

وسرقة وقتلاً . . . ويصير المجتمع غابة للوحوش تفتك ببعضها بعضاً . وإن كنا في الأساس نفضل المجتمع المتديّن بشروط : أن يكون الدين وسيلة تربية وتوعية وتثقيف وتهذيب ، ورسالة أخوّة ومحبّة . ذلك أن الدين يوحّدنا في عبادة الله ـ أو هكذا يجب أن يكون الأمر في الأصل ـ ويجعلنا نتنافس في حب الله تعالى وكسب رضاه ، ونعم المنافسة هذه . والمستفيد منها خلق الله تعالى على الأرض ، ونتيجتها صفاء ومودة وإخاء ومحبة وتقى وورع . . .

ونعود إلى انتشار الشرائع الوضعية اليوم في العالم ، فهناك حقيقة يجب أن تعرفها يا بني وهي أنه ما من شريعة وضعية تستطيع أن تخلص من تأثير شريعة السماء . ذلك أن شريعة السماء هي البداية وهي المنطلق ، وهي التي حددت علاقات الناس بعضهم ببعض منذ بداية الخليقة ، منذ آدم عليه السلام ، فأقرّت هذه الشريعة مباديء ما استطاع البشر عبر العصور أن يحيدوا عنها وإن استطاعوا أن يحرفوها بمقتضى أهوائهم ورغباتهم ، وما صارت إليه عاداتهم وتقاليدهم ولو كان فيه مخالفة للشريعة السماوية . واليوم إذا نظرت في « شرائع » شعوب الأرض وجدت فيها نصوصاً عديدة تتفق مع النصوص الشرعية السماوية . فهل يمكن اعتبار ذلك على سبيل الصدفة أو هو تأثير واقتباس الشرائع الوضعية عن الشريعة السماوية ؟ ولو راجعت الأبحاث التي وضعت حول القوانين الفرنسية التي وضعها نابليون بونابرت أثناء فترة توليه الحكم في فرنسا لعرفت مقدار تأثر القوانين الوضعية بالشريعة السماوية .

والأمر الثاني الذي يجب أن تلتفت إليه يا بني أن الشريعة هي صورة لصاحبها ، فشريعة السماء صورة لمالك السموات والأرض في عدله وحكمته وعلمه وخبرته بطبائع الناس ومشاكلهم وأحوالهم . . . فهي إذن تراعي كل هذه الأمور وتريد أن تربي الإنسان أفضل تربية وتنمي فيه العادات الحسنة ، وتقوي الفضائل . . . وتروّض الغرائز وتخلق المجتمع الأمثل عن طريق تربية الإنسان وتهذيبه وجعله فرداً صالحاً في هذا المجتمع الصالح . أما شرائع الأرض ـ الشرائع الوضعية ـ فكثيراً ما جاءت صورة عن الإنسان المتعلق بالأرض ، ووجهه إليها ، ولا يعرف السماء ولا يدرك ما ومن فيها ، ينكب على نفسه فيشغله طمع وغضب وحب السلطة والقهر والغلبة وطعام

وشراب ومال وجنس ولذة . . . مما جعل هذه الشرائع الوضعية تكرّس هذا الواقع أحياناً كثيرة ، فما همّها طهارة الإنسان في نفسه ونسبه ولا همها استقرار العائلة وتماسكها ، ولا أدركت عمق أهميتها في تكوين المجتمع ، ورأت المرأة سلعة ومتاعاً للذة . . . فكان أن شرّعت الزنى وأقرّته واعترفت بأولاد الزنى وما خجلت من أفعالها وصارت المرأة والرجل يفاخر الواحد منهما بأفعاله الشنيعة ومغامراته ، وقبيح أفعاله . . . ووصل الأمر في كثير من الدول أن سنّت قوانين تشرّع اللواط والسحاق ، وتقرّهما وتعلنهما دون خجل ولا حياء . . . كما قتلت النفس المحرّمة فسمحت بالإجهاض لستر أفعال الناس الشاذة . . . مع العلم أن أكبر مشكلات الغرب اليوم تتمثل في شيئن : أولاد الزنا والإيدز . وأما أولاد الزنى فصارت ظاهرة عامّة إلى درجة تستطيع معها أن تشك ـ دون حرج ـ في كل مولود في الغرب تقريباً ، وفي بعض البلدان بصورة خاصة ، أما الإيدز فهو عقاب طبيعي إلهي ، وإن كان الغير قد لا يراه كذلك لما جنته يد الإنسان ، ولإغراق الإنسان في تشريع ـ إعطاء الشرعية للفعل القبيح ـ الغرائز الحيوانية والخضوع لسيطرتها. والتباهي بذلك، وشرّعت التشريعات الأخرى التي أقل ما يقال فيها أن تخلو من أي حس إنساني أو شعور أو ضمير . فإذا أخذت التشريعات المالية الوضعية ونظرت فيها لوجدتها تخدم رؤوس الأموال وأصحابها وتحقق ما قاله السيد المسيح عليه السلام في تصويره لواقع كان قائماً في زمنه : من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه . وفي هذا منتهى الظلم والتعسف في الحكم والتشريع . ولو أنك حاولت أن تحصي البيوتات التي هدمها الربا ، والعائلات التي دمّرها تشريع الربا ، هذا إذا استطعت أن تحصيها ، لوجدت هذه التشريعات غولاً يفترس الإنسانية ، والناس والشعوب طعام له ، ولا شفقة ولا رحمة عند أصحاب رؤوس الأموال ، والبشر كأنهم ليسوا بشراً أمام هذا الوحش . . . وكل ذلك يسمونه حضارة . . .

* * *

تطبيق الشريعة :

ــ لنفترض أن شريعة السماء فرضت على مجتمعات الأرض ، فما الذي يضمن حسن تطبيقها ؟

● جاءت الشريعة في الأصل يا بني لخير الإنسان ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من**

الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾[1] . فقد أمر الله تعالى الأنبياء أن يتبعوا شريعته وأمر الناس أن يتبعوا ما جاء به الأنبياء ﴿ **ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾**[2] ، فمفروض في الناس أن يتبعوا هذه الشريعة ويطبقوها في حياتهم وفي كل أمورهم وتصرفاتهم ، وقد جعل الله تعالى نفسه شهيداً على هؤلاء الناس ، وجعل عليهم شهداء من الملائكة ومن أنفسهم[3] . . . فإذا هم ساروا في هذا الدرب درب الخير والحق والفضيلة تستقيم الأمور ولا تكون هناك مشكلة . أما المشكلة فهي في أن لا يطبق الناس هذه الشريعة أو أن لا يفهموها . أما تطبيقها فواجب بمقتضى الشريعة نفسها ، ومن يخالفها في أي بند من بنودها فقد وردت فيها نصوص على عقوبات تطاله يقوم بها حاكم عادل . وهذا الحاكم ليس من الضروري أن يكون واحداً فقط بل هو طبقة الحاكمين سواء أكانوا قضاة فعليين معينين بمراسيم أو قوانين . . . وبطرق قانونية أو بطرق واقعية كأن يكون القضاء والحاكمية بيد رجل الدين أو الشيخ . . . وقد أمر الله تعالى طائفة من الناس أن تتفقه في أمور الدين ، وتكون منارات هداية للعامّة ﴿ **فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾**[4] يهدون قومهم إلى ما فيه خيرهم ، وما أمرهم به الله تعالى من إحقاق الحق والإنصاف والعدالة دون أن يكون لهم امتياز على غيرهم سوى التقوى ، ومكافأتهم أجر عند الله وهو أجر من يعمل ما فيه صالح الجماعة ، ولكن تبقى المشكلة قائمة في إحدى حالتين : الأولى أن يعم الجهل الناس فلا يكون بينهم فقهاء ولا علماء يستطيعون أن يحافظوا على شريعة الله ويطبقوها ويأمروا الناس بما فيه صالحهم. والثانية أن يفسد هؤلاء العلماء ـ ونعوذ بالله من ذلك ـ كأن ينحرف هؤلاء عن جادة الصواب بطريقة أو بأخرى ، فتجد بعضهم مثلاً يحلّون اللواط فيعقدون عقود زواج بين رجلين وفي الكنيسة ، ويحاولون « فلسفة » الشريعة الدينية بمفاهيم من عندهم ما أنزل الله بها من سلطان ، وكثيراً ما تكون صدى

---

(١) سورة الجاثية ، الآية : (١٨) .

(٢) سورة الحشر ، الآية : (٧) .

(٣) سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع .

(٤) سورة التوبة ، الآية : (١٢٢) .

للفساد الذي يعمّ البلاد والعباد ، كما حدث في بعض دول أوروبا مما يمكن مراجعة أخباره في الصحف اليومية التي تحمل إلينا كل يوم طرائف ، بل مخازي العالم المتحضّر . وفي سبيل حل هذه المشكلة نرى أن الشريعة الإسلامية قد أوجدت لها حلاً وإن اختلفت أساليبه وطرقه : ففي حين يرى بعضهم أن تطبيق الشريعة منوط بحاكم عادل معصوم عن الخطأ ، وعصمته إلهية ولا تخلو الأرض على الأجيال من هذا الحاكم . . . يرى البعض الآخر أن أساليب الشريعة في تطبيقها والطرق المعتمدة للوصول إلى الحقيقة تجعل الناس يسيرون دائماً في طريق الصواب فلا يضلوا ، ترعاهم العناية الإلهية وتعينهم في إدراك الحقيقة ومعرفة الصواب ، كما في الأحاديث المعروفة : « يد الله مع الجماعة » ، و« ما اجتمعت أمتي على باطل» . فكان في الإجماع ـ إجماع علماء المسلمين على قضية ما يقرّ بها من الصواب ويبعدها عن الخطأ . . . وقبل هذا وذاك فإن انتشار الروح الدينية بين الناس ، والعمل بهذه الروح يكفل أن تكون هذه الروح بما فيها من نزعة خيّرة ، وبعد عن الشر وخوف الله . . . ما يقرّ بها من الصواب ويبعدها عن الانحرافات ، ويجعل المجتمع كله بكامل أعضائه ـ قياديين وعامّة تعمل بروح واحدة رائدها الحقيقة ورضا الله ، وإمكانية حصول الفساد في مجتمعات من هذا النوع ، وتسيطر عليها مثل هذه الأجواء ، أقل من إمكانية حصوله في مجتمعات فقدت من قلوب الناس وعقولهم القيم والمفاهيم وخوف الله تعالى ومحبّة الناس . وإذا كنت أمام نظامين أحدهما فيه ضمانة للعدالة تنبع من ذاته، ويحييها في قلب أتباعه ومريديه والعاملين به . . . ونظام ليست فيه أية ضمانة نفسية أو روحية ، ولا يؤمن بها وتصبح المصلحة الشخصية سيِّدة عنده ، والإنسان بلا قيود والله تعالى غائب عنه ـ في عقيدتهم أو هكذا يريدونه ـ فأيهما أفضل ؟ .

* * * *

- ٦ -

الدين والفلسفة والعلم

الفلسفة :

ـــ يبدو أن هناك مشكلة يا جد بين العلمانية والدين أو بين العلمانيين ورجال الدين ، وهي مشكلة لا تكاد تنتهي فما رأيك لو كان حاكم المجتمع فيلسوفاً ؟

● ليست المشكلة بين العلمانية والدين يا بني ، ولا هي مشكلة شخصية بين العلمانيين ورجال الدين ، وإنما هي مشكلة الشريعة الإلهية والخارجين عليها ، مشكلة انتظام الإنسان تحت لواء الشريعة في سبيل تهذيب هذا الإنسان وتوجيهه نحو الخير ، وخلق المجتمع الفاضل ، ورغبة هذا الإنسان في التفلّت من القيم والأخلاق الحميدة والقوانين الإلهية وتغليب النزوات والشرور التي فيه ، والانطلاق مع الغرائز واللذائذ والشهوات . هي مشكلة الصراع بين الروح والجسد ، بين الخير والشر . . . هذه المشكلة الدائمة التي لا تنتهي إلا بانتهاء هذه الحياة الدنيا للبدء بالحياة الآخرة . وأظن الأمر مبتوتاً فيه يا بني ، والنتيجة واضحة قبل انتهاء مسيرة هذه الحياة الدنيا ، إذ أن الذي يثبت على الشريعة الإلهية ، وينتظم تحت لوائها ، ويستطيع أن يتكيف حسب مقتضياتها ويروض نفسه على فهمها والعمل بمقتضاها . . . هو الذي يفوز . وأظن حياة الناس ومنذ بدء الخليقة كجماعة في سباق لبلوغ غاية معينة ، والناس مجتمعون في مكان واحد ، ويبدأ السباق لبلوغ الغاية ، وليس إلا درب واحد يوصل المتسابقين إلى غايتهم ، وهذا الدرب مرسومة معالمة ، محددة جوانبه ، سهلة طريقه ، لا أشواك ولا صخور ولا عراقيل ، ومصابيح الهداية في كل مكان ، وعلى كل تلة وعند كل منعطف وزاوية وعند كل منحدر والأشجار والأنهار والثمار . . . في

كل مكان ، والمياه عن جانبيه ، بحيث أن السالك فيه لا يجد نصباً ولا تعباً في الحصول على ما يريد إلا بمقدار ما يبلغ به حاجته ، والرحلة ممتعة ، والرفاق طيبون ، وصلات محبة وود ووفاق بين الأرض والسماء ، وعناية ورعاية وتسهيل . . . فجماعة يسيرون في هذا الدرب منتظمين عاقلين مدركين البداية ، عارفين النهاية ، مؤمنين بالنتيجة ويعرفون المحاذير ، يستمعون إلى صوت العقل والضمير ، وقد تخلوا عن الأنانية والشهوات وحب الذات ، وساروا شاكرين حامدين مستغفرين . . . وجماعة أضلها الشيطان ، وشككت في النهاية ، فانحرفت من البداية ، وركبت ضلالها وأصمّت آذانها عن صوت العقل ، وفتحت قلبها للشيطان ، وظنت الانفلات في الغابات ، وركوب المضلات قد يوصلها إلى الآمال الكاذبة ، وفكرت بأن تحصل على أكثر مما قسم لها نصيباً ، وأن تستأثر بما أعطي لغيرها حصصاً محفوظة . . . فهامت على وجهها : تسرق وتنهب وتبتزّ وتسلب . . . تأكل فلا تشبع ، وتجمع فلا تكتفي ، وتشك فلا تعرف اليقين ، وتفتل وتستحل كل شيء وتنتهك الحرمات ، و . . . تضيع . وتسير في درب الخزي والخيبة ، وهو على موازاة درب الهداية والنور ، ولا ترعوي ، ولا تعود إلى رشدها ، وتظن الخلاص في أن تدبّر أمورها على هواها ، وبأساليبها ، فتسير في هذا الدرب الجديد ، وكلما سارت في هذا الدرب خطوات أمتعتها « لذة » الكفر ، وحجبت عقلها نشوة السكر ، وأدمنت على المفاسد فشرّعت لها ما يجعلها قوانين تلك المسيرة . والدرب موصول إلى النهاية ، والناس فيه سائرون ، يسقط بعضهم ويقوم غيرهم فيكملون المسيرة ، وتنفتح في كل درب أبواب ويتنقل ناس بين هذا الدرب وذاك ، وتستمر المسيرة . . . إلى ما شاء الله ، إما إلى جنات عدنٍ فيها نعيم مقيم ، وإما إلى نار حامية كلما احترقت جلود أصحابها بدّلهم الله تعالى جلوداً غيرها ، ليذوقوا وبال أمرهم . . . ولعنه الله على الكافرين .

ولا أرى العلمنة إلا محاولة لإضفاء الشرعية على أوضاع غير شرعية ، وهي ، وإن نجحت في بعض المجالات ، إلا أنها لا يمكن أن تنجح في كل شيء ، وذلك لصدورها عن إنسان فيه نقص في أساس تكوينه وبنيته النفسية والجسدية والعقلية ، فكيف يمكن للناقص أن يعطي كاملاً ؟ فالشيء لا يعطي إلا شيئاً مثله أو من جنسه .

أما أن يكون حاكم المجتمع فيلسوفاً فما الذي تفهمه بالفلسفة يا بني ؟ وهل ترى الفيلسوف إنساناً كاملاً مكتملاً حتى تجعله حاكماً للمجتمع ؟ وما الذي يضمن لك

نجاحه في هـذه المهمة ؟! وهـو برأيـي أعجـز من أن يكون قـادراً على القيام بهـذه المهمة بما هو إنسان عادي ، يخضع للقوانين التي يخضع لها أي إنسان عادي ، وفيه نقص الإنسان العادي النفسي والجسدي والعقلي ، وإن كان الحاكم الفيلسوف خيراً من الحاكم الجاهل ذلك لما عنده من العلم الذي يرفعه فوق مستوى الناس العاديين درجات .

ـــ وما هو هذا النقص الذي نتحدث عنه يا جد ؟

● الإنسان مخلوق يا بني ، وكل مخلوق محدود بحـدود المحيط الذي يخلق فيه . والكمال لله وحده ، وهو الخالق القادر الـذي يستطيـع أن يجعل إنسـاناً مـا من مخلوقاته يخترق جدار المحدود فيصير عنده صفات وميزات أخرى قـد لا توجـد في سواه في بني جنسه . أما في الأصل فلو رجعت إلى مـا توصـل إليه العلم الحـديث اليوم ، لوجدت أن الإنسان يرى أشياء بعينـه ، وأشياء لا يـراها . كـالألوان مـا فوق البنفسجية أو ما تحت البنفسجية ، كما أنه تشتبه عليه الأشياء إذا اختلفت وضعيتها بين ثبات أو حركة، فيرى في الحركة أشياء لا يراها في الجمود ولا هي موجودة في الأشياء، كأن ترى النقطة دائرة مثلاً ، أو كأن يصعب عليه معرفة التفاصيل في أشياء متحـركة أمامك ، وأن سرعة الأشياء التي تراها كثيراً ما تحدد نطاق الرؤية عندك ، فإذا ازدادت حركة الأشياء المتحركة أمامك صعب بل استحال عليك أن تراها أحياناً ، فإذا خفت سرعتها عادت مرئية بالنسبة إليك . وكذلك سمعك يا بني ، فإن الأذن تسمع أصواتاً ولا تسمع غيرها ، حتى أن السمع ـ كالبصر ـ محدود بحدود دنيا وعليا للصـوت فإذا تجاوز الصوت هذه الحدود استحال سماعه بالآذان العاديّة . ومثل ذلك حال الإنسان مع الخفاش الذي يطلق أصواتاً قوية لا يسمعها الإنسان . . . وهذه المحدودية الحسيّة في الإنسان نقص فيه يحد من إمكاناته الجسدية ويضيّق نطاقها ، ويحدّ بالتـالي من قدراته ومعارفه المتأتية عن طريق الحواس . هـذا بصرف النـظر عن الغايـة التي من أجلها خلق الله تعالى الإنسان على هذا النحو ، وأن هذا الحد من قدرة الحواس عنده قد يكون في صالحه ، ومن باب الرأفـة الإلهية بـه والرحمـة له . في حين أن بعض الحيوانات مثلاً قد زودت بطاقات تفوق طاقات الإنسان ، وقـد تنفرد بهـا عنه . أمـا النقص العقلي في الإنسان فهو وإن كان يختلف في طبيعته عن النقص الجسدي لجهة

أنه يمكن التخلص من هذا النقص ، وزيادة القدرات العقلية الإنسانية بالعلم مثلاً ، إلا أنه موجود بدليل أن الإنسان الجاهل محدود الفكر بحيث أن كثيراً من المفاهيم الذهنية والقدرات العقلية قد تنقصه ، حتى أن الإنسان ـ مع وجود العقل فيه ـ وفي أولى درجاته الدنيا في الخليقة يقترب جداً من الحيوان الذي تسيّره قواه الجسدية لضعف القوى العقلية فيه . وعلى هذا فإن هذا العقل الإنساني الذي يشبه وعاء فيه قابلية التمدد ، باستطاعتك أن تملأه علماً فيتسع ويتسع . . . ولكنه يبقى هو الآخر محدوداً بحدود الجسد والمادة ، فقد ينفجر أو يختل توازنه إذا زاد استيعابه عن مقدار طاقته . ولمّا كان العلم بحراً زاخراً لا حدود له ولا يمكن قياسه بشيء ، فمهما بلغ امتلاء عقل الإنسان بالعلم فإنه يقف عاجزاً عن أن يحيط بالعلم كله ويعرف كل شيء . وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام عندما ادعى علم كل شيء ، فأراد الله تعالى أن يعرّفه مقدار علمه ، فأرسل إليه الخضر عليه السلام . . . وقصّته معه مشهورة[1] . في هذه القصّة ما يثبت قصور الإنسان عن إدراك كل شيء ، وهو أعجز من ذلك بكثير ، ويبقى الإنسان ـ وليس له من العلم إلا ما علّمه إياه الله تعالى . وأما النقص النفسي فسببه أن الإنسان الذي تُحَدُّ حواسه ، ويُحَدُّ عقله فلا يكون علمه كاملاً ، كثيراً ما يقع فريسة الهواجس والخيالات والأوهام ، فيظن الأشياء غيرها ، ويتصوّر الأمور على غير حقيقتها في سعيه وراء الحقيقة ، ويبقى بحاجة إلى قوة من خارج تشمله بعنايتها ورعايتها ، وتفيض عليه من نورها فيهتدي . وهذا مثل نبي الله تعالى إبراهيم عليه السلام وقد صوّره القرآن الكريم في سعيه إلى درك الحقيقة يفتش عن الإله فيظنه في بداية الأمر كوكباً ، ثم يظنه القمر ، ثم الشمس ، ثم ـ وبعد أن يخيب أمله ينتهي إلى حقيقة : ﴿**لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين**﴾[2] .
ولمّا كانت هذه حالة الإنسان في محدوديته ونقصه النفسي والجسدي والعقلي فمهما اجتهد ، ومهما حصّل من العلم فإنه لا يبلغ الكمال ، وإن كان قادراً أن يسير شوطاً مهماً في معرفة بعض الحقائق ، دون أن يكون قادراً على أن يحيط بالحقيقة المطلقة كلها .

---

(١) سورة الكهف ، الآيات : (من ٥٩ إلى ٨٢) .
(٢) سورة الأنعام ، الآية : (٧٧) .

ـــ والفيلسوف . . . ؟!

● والفيلسوف كذلك إنسان يا بني ، وهو محدود كغيره من الناس . وإذا أنت حاولت أن تفهم معنى الفلسفة من خلال فهم الناس لها ، ومن خلال مفهومها العام ، وجدت أن الناس إذا عرضت عليهم رأياً خاصاً يصعب عليهم فهمه أو ينكرونه عليك ولا يوافقونك فيه يقولون لك : لا تتفلسف . فقد جمعت الفلسفة في نظرهم الجدّة والغرابة فصارت الفلسفة كلاماً مبهماً قد لا يفهمه العامّة ، وصار الفيلسوف إنساناً غريباً عنهم بسبب هذه الآراء الخاصة « غير المفهومة » ، وفي نظر العلماء الفيلسوف إنسان يعتمد على العقل في أبحاثه ويسعى إلى التجدد في كل المجالات ، ومنها مجال العقيدة ، وهو إنسان معروف بالشرف الخلقي الذي يستخدمه لصالح الإنسانية . . . إلا أن الناس يرون في الفيلسوف إنساناً ملحداً Tout philosophe est cousin d'un athée[1] . ومصادر علم الفلاسفة اثنان : آراء موروثة منها ديني شاع في الخليقة منذ بدايتها ومنذ آدم واختلط بالمفاهيم الاجتماعية والعادات والتقاليد الإنسانية ، وآراء شخصية تعتمد العقل لتنظر في هذه العقائد الموروثة وتحدد منها موقفاً . وعلى هذا فبعض الآراء التي يعتمدها الفلاسفة ليست آراءهم الشخصية ، وبعضها الآخر ، وما هو شخصي محدود بحدود العقل ، وهي قد تصيب وقد تخطيء ، إذن لا عاصم للفيلسوف من الخطأ ، وإنسان يخطيء لا يمكن أن يكون حاكماً لأن على الحاكم أن يقود الناس إلى الصواب .

* * * *

العلم :

ـــ فما قيمة العلم إذن إن كنت لا تثق به يا جد ؟

● من قال لك أنني لا أثق بالعلم يا بني ؟! والعلم صلة ما بين الإنسان والله ، ودرب الإنسان إلى الحقيقة والكمال . وهو من صفات الله تعالى ، وهو من الصفات الضرورية اللازمة في عملية الخلق ، فحتى يكون الخلق عملية متكاملة يوضع فيها

---

(١) - Petit Robert. P. 1423 (Philosophe)

كل شيء في مكانه الصحيح فلا تتضارب الأمور ولا تتنازع القوى ، ويسير كل شيء في الكون إلى نهاية سليمة محمودة لا بد من العلم . وإذا كان علم الله تعالى غير علم البشر ، فإن علم الإنسان هو الطريق إلى معرفة الله ، ومعرفة الإرادة الإلهية في الخليقة ، وهو طريق الخلاص من الظلمات إلى النور . وعلى هذا فقد كان أعزّ ما يدعو به الإنسان ربّه ﴿ **وقل رب زدني علما** ﴾[1] ، وبالعلم يرتقي الإنسان فيصبح أقرب إلى عالم السماء وإلى الحقيقة ، ومن صار عالماً تميّز بالعلم على سواه وصار ضمن طبقة مميّزة مختارة من طبقات الخليقة لا تستوي مع الطبقات الأخرى ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[2] ، و ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[3] . وصار من يؤتيه الله علماً فقد حصل على خير كثير ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾[4] ، كما فضل الله العلماء وجعلهم الأقرب إليه ، والأعرف بإرادته وهم الذين يخشون ربّهم لمعرفتهم بحقيقة علمه وقدرته وعظمته ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[5] . . . فثقتي بالعلم لا تحد يا بني ، إنما المهم طبيعة هذا العلم ومصدره : فالعلم الإلهي غير العلم الإنساني ، والعلم الذي يصدر عن الكمال يأتي كاملاً ، والعلم الذي يصدر عن الناقص يأتي ناقصاً ، والعلم الذي مصدره الإنسان يأتي ناقصاً والحديث عن الحاكم ، فالحاكم يجب أن يكون مثالاً للكمال حتى تأتي أعماله كاملة فإذا كانت أعماله ناقصة قد يضل به الناس بدلاً من أن يهتدوا . ومن هنا موقف الشك في كفاءة الإنسان وكماله ، وليس في العلم . وقد قلت لك يا بني إن العلم هو سبيل الإنسان لأن يرقى درجات كثيرة في طريق الكمال ، وبدون العلم لا يمكن أن يعرف الإنسان هذا الرقي .

ـــ وما نوع هذا العلم الذي تتحدث عنه يا جد ؟

---

(١) سورة طه : الآية : (١١٤) .

(٢) سورة الزمر ، الآية : (٩) .

(٣) سورة المجادلة ، الآية : (١١) .

(٤) سورة البقرة ، الآية : (٢٦٩) .

(٥) سورة فاطر ، الآية : (٢٨) .

● لقد تحدثت الشريعة يا بني عن العلم بصورة عامة دون أن تستثني منه شيئاً . وإذا نحن عدنا إلى الحديث الشريف وجدنا : العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان . وبرأينا أن هذا التعريف أيضاً شمل العلم بجزئيه الأساسيين : فعلم الأديان هو علم ما اصطلح الناس على تسميته الماورائيات métaphysique من الأمور الغيبية التي لا تقع تحت سلطان الحواس وإنما يدركها الإنسان بعقله ، وتبحث في أمور الخلق والله تعالى والمخلوقات من الملائكة والجن والإنسان والموت والحياة والجنة والنار والثواب والعقاب . . . وهذه كلها أمور تتناولها الأديان وتبحث فيها في سبيل توضيح علاقة المخلوقات بالخالق ، ومصير المخلوقات والغاية من الخلق . . . في سبيل أن يعرف الإنسان علاقته بخالقه ، ويعرف علاقته بالمخلوقات التي تشاركه الحياة على هذه الأرض ، وما هو أرفع منه أو أدنى مرتبة . . . والنوع الثاني من العلم علم الأبدان : وبرأينا أن هذا العلم يشمل كل ما يسميه العلماء والفلاسفة علم الطبيعة physique ، وذلك أن الأبدان من المادة ، ومن الطبيعة ، وكل علم في الطبيعة غايته اكتشاف أسرار هذه الطبيعة التي تحيط بالإنسان وذلك لغايتين : أولهما معرفة الخالق من خلال معرفة هذا الكون ، وثانيهما معرفة ما من شأنه أن يخدم الإنسان في حياته وينظمها ويسهّلها . . . وبهذا كانت علوم الفيزياء والكيمياء والهندسة والجبر وعلم الفلك والطب . . . وكلها علوم تخدم الإنسان كجسد ومادة على الأرض وتحسّن حياته وترفع من مستواه المادي .

ـــ يشهد العالم اليوم تطوراً علمياً هائلاً ، يطلّع الإنسان فيه على أشياء جديدة ما كان يعرف عنها شيئاً من قبل ، ويحقق في كل يوم انتصارات علمية تشهد بها الأجيال ، وفي هذا ما يثبت قدرة الإنسان ، بل ما يثبت قدرة العقل الإنساني وجدارته ، ويجعل الإنسان يثق به ، وهذه النهضة العلمية تضاد العلوم الدينية والعلوم الماورائية وحتى تلغيها ، ولا يشعر الإنسان أنه بحاجة إليها . فكيف تنظر أنت إلى الأمر يا جد ؟

● إنك لا تستطيع أن تقدر يا بني مقدار سروري بهذه الاكتشافات العلمية الجديدة ، وبخاصة منها ما حققه الإنسان في عالم الفضاء . ذلك أن عالم الفضاء عالم رحب جداً ، واكتشافاته تترك صدىً عظيماً في كل العالم وبين الناس ، وصداها

أعظم من الصدى الذي يتركه اكتشاف الإنسان لدواء يقضي على مرض مميت مثلاً . ذلك أن صوت الطبل أعظم (أكبر) من صوت الناي لعظم الطبل وضخامته ودقّة الناي ولطافته . هذه الاكتشافات يا بني تستجيب لقوله تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق** ﴾[1] . فهذه إذن من آيات الله تعالى في الآفاق . هذه الآيات دليل عظمة الخالق الذي ﴿ **أوحى في كل سماء أمرها** ﴾[2] ، وقدّر الأمور وهو نعم القادر ﴿ **فقدرنا فنعم القادرون** ﴾[3] . وينظر الإنسان إلى هذه الخلائق الإلهية فلا يرى منها إلا ظواهرها ويعمى عن حقيقتها لقصر في قواه ومداركه ، وكلّما ازدادت هذه القوى وهذه المدارك أصبح الإنسان قادراً على دَرْك المزيد من الحقائق . وكلّما جاءنا نبأ جديد اليوم عن اكتشافات عظيمة ، يثلج هذا النبأ صدري ، وكأنه برهان جديد بين يدي على عظمة الخالق وقدرته . فأنا أكثر سروراً بهذه الاكتشافات من أصحابها ، مع شعوري بحزن عميق يكاد لا يقل عن سروري بهذه الاكتشافات ، وسبب ذلك الحزن أني أرى الإنسان في مسيرته الحياتية يطفىء سراج العلم كلما أضاء له ليرى نور الإله ، أو هو يقتلع كل مَعْلَمٍ من معالم الطريق يصادفه في طريقه ، وبدلاً من أن ينتفع به في مسيرته ، أو يتركه للأجيال التي تتبعه فتهتدي به ، إذا به يقتلع هذه المعالم واحداً بعد واحد ويضيع الفرصة ، ويستخدم كل الاكتشافات في أغراض غير صحيحة ، فيستعملها في لهو ، أو بما لا طائل تحته أو ليقتل خصماً ، أو ليشيد بناءً أو قصراً فخماً . . . وهكذا تضيع الطريق ، ويكثر الضالون ، ولا نعرف نور الإله ، ولا نكتشف الحقيقة .

* * * *

المبتغى والوسيلة :

ــ وما هي الحقيقة التي تبغيها يا جد ؟

● الحقيقة التي أبغيها يا بني هي القرب من ذات الله تعالى ، ومعرفته ، وهي

---

(1) سورة فصلت : الآية : (٥٣) .

(2) سورة فصلت ، الآية : (١٢) .

(3) سورة المرسلات ، الآية : (٢٣) .

غاية الغايات وقدس الأقداس . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[1] . والعبادة هنا ليست الصلاة والصيام . . . وحدهما ، بل هي كل فعل يساهم في الوصول ، وصول المجتمع كله والحياة ، إلى درجة الكمال والمثالية . وهذا لا يكون إلا بالقرب من الله تعالى . وكل عمل لخير الإنسان الفرد وخير المجتمع يدخل في نطاق هذه العبادة . ويتمثل لي الإنسان في موقفه أمام الله تعالى كشيئين متباعدين ، في نقطة البداية يقف الإنسان، وهي أدنى النقاط وأكثرها ماديّة ولصوقاً بالأرض والتراب . . . ونور الله تعالى عند الطرف الثاني وهو النهاية . . وبين البداية والنهاية طريق موصول ، وعلى الإنسان أن يسلك هذا الطريق وهو مثقل بأحماله من دنياه من طعام وشراب وهموم وذنوب . . . فإذا قعد به الأمر حيث هو في الأدنى ، فإنه لن يشعر بثقل الحمل ، وإن هو ثارت فيه نزعة المعرفة وحب الوصول وجد نفسه مثقلاً بأحماله ، وحاول السير بها إلى حيث يقصد، ولكن عبثاً يفعل. . . ووجد أن أفضل السبل للوصول أن يلقي بهذه الأثقال والأحمال التي ترهق كاهله وينوء بحملها ، فراح يتخلص منها بالتدريج . وكلما تخلص من حَمْل شعر نفسه أخف وزناً ، وأرشق حركة ، وأقوى على المسير ، وأكثر أملاً في الوصول. . . وهو بهذا كلما ابتعد عن نقطة البداية صار أكثر بعداً عن المادة وأقرب إلى النور ، حتى إذا كاد يصل ، نسي أو كاد ينسى أنه مادة أو أن فيه مادة تجذبه إلى أدنى ، وكاد يصير ملاكاً يرفرف بأجنحته في سماء الحرية والغبطة والسعادة ، وخلص من سجن الحياة الذي كان يكبله ، وانطلق يُسَبِّحُ بحمد ربه ويمجّده . . . وصار في عالم الطهر والنقاء ، عالم الجنة والخلود ، عالم الكمال والحق والخير والمعرفة . هذه هي الحقيقة التي أبغيها يا بني ، وهذا هو الأمل المنشود .

ــ وما الوسيلة للوصول يا جد ؟

● الوسيلة سهلة جداً يا بني ، فالطريق مرسومة ، والمعالم واضحة وكل ما هو مطلوب من الإنسان عمله أن يستجيب لداعي العقل والضمير ويعمل بأوامر الله تعالى

---

(١) سورة الذاريات ، الآيتان : (٥٦ و٥٧) .

ونواهيه ، فيبتعد عن الشر ، ويعمل كل ما فيه الخير له وللبشرية جمعاء ، ويعبد الله تعالى ويقدّسه ، ويستلهمه في كل موقف وعند كل عمل ، ويطبق شريعة الله بصدق وأمانة ، ويطرد إبليس وقبيله من قلبه ومن نفسه وعقله وخياله فلا يعود له عليه سلطان ، وبهذا وعد الله تعالى الإنسان : وعده بالحماية والرعاية وأيأس إبليس من القدرة على المس بعباد الله الصالحين : ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾[1] و﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنّما سلطانه على الذين يتولونه وهم به مشركون** ﴾[2] . وقد أعطى الله تعالى الإنسان أسلحة يحارب بها الشيطان ، وأول هذه الأسلحة القرآن الكريم الذي جعله الله تعالى الحصن الحصين الذي لا يؤخذ ، وجعل قراءة القرآن السد المنيع الذي يحمي من الشيطان وجنود الشيطان ، وجعل اسمه الأعظم أهم سلاح يُشهر في وجه الظلم والطغيان والشر . . . وجعل ذاته ـ جل وعلا ـ خير ملجأ في كل وقت ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾[3] . و﴿**إذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً . وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا . وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نفورا**﴾[4]. ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه . . .** ﴾[5] وحدّد الشريعة في كتابه العزيز الذي ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[6] ، وفيه ـ في كتاب الله ـ كل خير وكل أمر وكل عبادة وكل قانون للتعامل بين الناس بعضهم مع بعض ، وبين الإنسان وخالقه وفيه نور وهداية للذين آمنوا[7] ، وما من شيء يصلح أمر الإنسان

---

(١) سورة الحجر ، الآية : (٤٢) .
(٢) سورة النحل ، الآيتان : (٩٩ و ١٠٠) .
(٣) سورة الأعراف ، الآية : (٢٠٠) .
(٤) سورة الإسراء ، الآيات : (٤٥ و ٤٦) .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : (١٨٠) .
(٦) سورة فصلت ، الآية : (٤٢) .
(٧) سورة الأعراف ، الآية : (١٥٧) .

وتستقيم به دنياه وآخرته إلا ورد ذكره فيه ﴿ **ما فرطنا في الكتاب من شيء** ﴾[1] . وقد خاطب الله تعالى رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام بقوله : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾[2] ، وأمرنا تعالى بقراءة القرآن الكريم ودراسته والتأمل في آياته واستخلاص العبر منه ، حتى صار هذا الأمر واجباً يحاسب عليه الإنسان إذا خالفه ﴿ **يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾[3] ﴿ **فاقرأوا ما تيسر من القرآن. . .** ﴾[4] .

فالوسيلة معروفة يا بني ، والطريق واضحة ، وليس على العاقل إلا أن يخطو الخطوات الأولى ، وسيجد نفسه في الطريق الآمن الموصل إلى الله . والله تعالى لن يخذله ، وهو الذي حبب الإيمان للناس وقرّبهم إليه فلا يضل إلا كافر معاند ﴿ **وحبب إليكم الإيمان وزينه في نفوسكم ، وكرّه إليكم الكفر** ﴾[5] . وهذا الطريق مرسوم يا بني منذ كانت الخليقة ومنذ كان الإنسان ، وسيبقى وحده الطريق إلى الله ، بشّر به آدم وتبعه الأنبياء واحداً بعد واحد ، وكان في الوسط منارات عظمى تمثلت بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله تعالى عليهم جميعاً . وعند حبيب الله محمد ﷺ ﴿ **تمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم** ﴾[6] .

ـ هذا الدرب الذي تتحدث عنه يا جد هو الذي يبدو أصعب الدروب وأشقّها، وسالكوه هم القلّة ، وأكثر الناس يسيرون في غير هذا الدرب ، وهم بخير وأمان ، ومن سار في دربك عاش غريباً عن هذه الدنيا فرداً مستوحشاً . . . فما العمل يا جد ، وهل يمكن للإنسان أن يخالف مسيرة الحياة ؟

● يا بني لن أقول لك إن درب الحقيقة سهل بل هو صعب بمقدار وهذه

---

(١) سورة الأنعام ، الآية : (٣٨) .
(٢) سورة الجاثية ، الآية : (١٨) .
(٣) سورة الفرقان ، الآية : (٣٠) .
(٤) سورة المزمل ، الآية : (٢٠) وسورة النمل ، الآية : (٩٢) .
(٥) سورة الحجرات ، الآية : (٧) .
(٦) سورة الأنعام ، الآية : (١١٥) .

الصعوبة تتأتى عن وجوب محاربة الإنسان الذي يسلك هذا الدرب لأهوائه وشهواته ، ومحاربة الشهوات صعبة ولا يقدر عليها إلا من أوتي جَلَداً وقوة احتمال وإرادة خيّرة ، وسلوك هذا الدرب هو بناء للشخصية الإنسانية على الطريقة التي أرادها الله تعالى . وككل عملية بناء فهذه عملية صعبة والهدم أسهل منها بكثير . وسلوك درب الشهوات هدم للشخصية الإنسانية المستقيمة وهدم للمجتمع ، وهو طبعاً أسهل بكثير . ولكن الصعوبة تكمن يا بني في أول الخطوات التي يخطوها الإنسان ، فإذا ما بدأ الإنسان خطواته الأولى سرعان ما يألفها ويعتاد عليها ، وتتوطن نفسه على حبّها حتى يصير حبّها والتمسك بها هو السهل ، والخروج عنها هو الصعب. كالإنسان الذي يعتاد عادة سيئة كأن يدمن على المخدرات أو التدخين أو الخمرة . . . فيجد صعوبة في تركها ، كذلك من يعتاد الصلاة والصيام والعبادة وعمل الخير . . . تنطبع نفسه بها فلا يستطيع تركها ، بل يراها عملاً عظيماً لا يجد مناصاً من القيام به ، وهكذا يصير الإيمان راسخاً في النفس . وقد عبّر الله تعالى عن هذه الحقيقة بقوله تعالى في شأن الصلاة : ﴿ **وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[1] . ويصبح الإنسان يحس بنوع من صفاء الذهن وراحة النفس ، ورضى الضمير . . . عندما يقوم بواجباته ما ينسيه أية مشقة إن وجدت ، أما عن المشقة فهذا وهم يا بني يدّعيه الناس الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، فإنسان غير مؤمن لا يصلي لادعاء المشقة في الصلاة وهي تتطلب وقتاً لا يكاد يذكر ، يقوم بتمارين رياضية قد تستغرق ساعات وقد تكون منهكة ومضنية . فالأمر ليست فيه مشقة ، وإنما فيه وهم لا غير ، وسماع لكلام الشيطان وخلود للكفر واستئناس به ، وسد للمسامع عن كلام الله .

أما عن قلّة السالكين لهذا الطريق فهو واقع معروف يا بني . وقد أنبأنا الله تعالى بذلك في كتابه العزيز عندما تحدث عن المؤمنين السالكين لطريق الخير والصواب فجعلهم ﴿ **ثلّة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾[2] . وهؤلاء القلّة هم النخبة ، وهم السالكون لطريق الخير ، والذين يصلون فيه إلى نهايته . ولو كان لك أن تختار أن تكون من هذه النخبة ، ومن الذين تنكشف أمامهم حجب الحقيقة ويبلغون درجة

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٤٥) .

(٢) سورة الواقعة ، الآية : (١٣) .

الكمال فيكافئهم الله تعالى أحسن الثواب ، وتكون من السابقين المكرّمين عند الله . . . أو أن تكون ذئباً خاملاً حلت عليه اللعنة وباء بغضب الله ، واستحوذ عليه الشيطان . . . ويرمى يوم القيامة في النار . فأيهما تختار طريق القلّة أو الكثرة ؟ إذن لم يعد الموضوع موضوع قلة ولا كثرة بل موضوع حق وباطل ، وخير وشر ، والاختيار بينهما بصرف النظر عن أتباع كل منهما وأنصاره وعدد هؤلاء الأتباع والأنصار . وأن يكون السالكون لطريق الشر في خير وأمان فهذا وهم يا بني فلو أنك عاينت قوماً كافرين مشركين ملحدين لوجدتهم يعيشون في قلق ما بعده قلق، وفي خوف كبير وعدم استقرار نفسي . وهذا وحده كافٍ لينغّص عليهم عيشهم . وهذا القلق سببه شعور خفي وتساؤل : هل أن ما نفعله صحيح أو خطأ ؟ هذا الهاجس هو النقمة والعذاب . ثم إن حساب الربح والخسارة في هذا الأمر ليس عملاً معجّلاً بل هو مؤجل حتى نرى الخاتمة خاتمة الأمور . وقد تكون نقمة الله تعالى معجّلة ومظهرها إفقار بعد غنى ، أو بلاء مع الغنى ، أو إكثار من المال ليزداد صاحبه إثماً . . . ثم تكون الكارثة . . . وإذا كنت ترى خيراً ظاهراً باطنه شر ونقمة وسوء . . . وعذاباً ظاهراً باطنه رحمة ورضى لله وقرب منه . . . فأيهما تفضل؟ أما الغربة يا بني فلا، ليست هناك غربة . فهل ترى غريباً من يكون الله معه يحرسه أينما ذهب ، ويؤنسه في أي مكان حل ، والملائكة تحفظه بإذن الله ، وأصابته طمأنينة النفس وراحة البال ؟ أم أن الغربة هي شعور العداوة لكل من حولك وما حولك ، وشعورك بأن الجميع يريد بك شراً ، وأن خاتمتك إلى هلاك ووبال ؟ والصالحون يا بني ﴿ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر[2] ، ﴿ **وهم من فزع يومئذٍ آمنون** ﴾[3] . أولئك ﴿ **تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا** ﴾[4] وليس مطلوباً من أحد يا بني أن يخالف مسيرة الحياة ، بل المطلوب هو العكس . المطلوب هو أن ينسجم الإنسان مع مسيرة الحياة ، وهذه المسيرة الطبيعية هي التي تخضع

---

(١) سورة البقرة ، الآية : (٣٨) .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : (١٠٣) .
(٣) سورة النحل ، الآية : (٨٩) .
(٤) سورة فصلت ، الآية : (٣٠) .

للإرادة الإلهية وتسير بمقتضاها ، فتتكامل العناصر ، وتأتلف الأشياء ، وتستقيم الأمور كلها حسب القوانين التي أرادها الله تعالى . . . إنما المهم يا بني أن نعرف الإرادة الإلهية ونعرف القوانين التي وضعها الله تعالى لتسير بمقتضاها الأمور . والمشكلة القائمة في أن كل إنسان يدعي أنه على حق ، وأنه يعرف القوانين ويعمل بها ، ولكن هؤلاء الناس يخلطون بين شريعة الله تعالى وشريعة الشيطان ، أما شريعة الله تعالى فهي تقوى وصلاح وعبادة وعمل بما فيه خير الفرد والجماعة وإقرار بالألوهية والوحدانية والنبوات والقيامة والحساب والخير والشر والقضاء والقدر والتسليم المطلق للمشيئة الإلهية . . . وشريعة الشيطان خمرة وربا وزنى وقتل وسرقة ونهب وظلم وطغيان وغرائز وشهوات ودناءات ومال . . . والشريعة الأولى ـ شريعة الله ـ من سار في دربها وطبقها كان الإنسان الأمثل ووصل إلى أعلى درجات السمو وكان قريباً من الله ومصيره جنان واسعة ونعيم لا ينتهي ، ومن سار بمقتضى شريعة الشيطان كان مصيره إلى دمار وخراب وخزي في الدنيا والآخرة وجهنم وبئس المصير . وإذا كان عليك أن تختار فاختر ما شئت ، وتحمل مسؤولية نفسك و ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[1] وإذا كان لي أن أختار لك فسأختار شريعة الله ، تعمل بمقتضاها وتطبقها في حياتك ، وتجتهد في تطبيقها فلا تضل ، وإما يغوينّك الشيطان فسارع إلى استغفار ربك فستجده غفوراً رحيماً ، وخذ على نفسك عهداً أن لا تعود لمثلها ، وسوف يحفظك ربك ويحميك ، وسوف تكون من رجال الله الصالحين ، وستكون لك سعادة الدنيا والآخرة ، وسيكون الله معك يحميك ويرعاك ويحرسك يا بني ، ولن يكون للشيطان عليك سبيل . وإذا اقتضاك الأمر أن تخالف مسيرة المجتمع فلا تخشينّ يا بني ، فإذا عدت إلى التاريخ تستلهمه مسيرة الأنبياء والحركات الإصلاحية التي جاءوا بها لوجدت أن مسيرة الحق قد تبدأ بواحد في أكثر الأحيان ، يقف في وجه مجتمع بكامله ، فيكون غريباً ، ويسخر منه قومه ويهزأون به ويحقّرونه ويضطهدونه ، ولكنه يثبت لأنه على حق ، ودائماً تكون النتيجة أن ينتصر الواحد على المجتمع بكامله ، ويغيّر مسيرة هذا المجتمع ، وينتصر القلة على الكثرة ، وتصير القلة هي الكثرة ؛ وإذا كنت ستحتج أنك لست نبياً ولن تستطيع أن تفعل فعل الأنبياء فأقول لك

---

(١) سورة المدثر ، الآية : (٣٨) وسورة الطور ، الآية : (٢١) .

ما قال الله تعالى للمؤمنين : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾**[1] .

وليكن عندك يقينٍ كافٍ يا بني بأنك إذا كنت وحدك على حق ، وكان المجتمع كله على باطل ، فلا يضرنّك ذلك شيئاً . وأنت على حق بإذن الله وستبقى على الحق طالما أن كتاب الله بين يديك ، وهو الهداية وهو الشريعة ، وهو الكلمة والعلم والقدرة والدستور والقوانين وهو الحق والخير والفضيلة . . . أفلا يعجبك يا بني أن تكون على الحق ؟! أم أنك تريد أن تكون شوكة في يد إبليس وفي وجه العدالة ؟ .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : (٢٠٠) .

- ٧ -

الإنسان والسياسة

- أرى الحديث عن الشرائع يقودنا للحديث عن السياسة والسياسيين . ونحن اليوم - في عالمنا الحاضر - أمام واقع لا يمكن أن نتجاهله . وهو أن علوماً عديدة قد نمت وتطورت وصارت ذات قيمة في ذاتها ولا يمكن تجاهلها أو تناسيها ومنها علم السياسة ، وهو علم يستطيع الإنسان أن يعرف بواسطته مبادىء في التعامل مع الأفراد ، ومع الدول ، وصارت للسياسة أصول ومبادىء تدرّس في الجامعات ، وصارت كل دولة تجتهد في السياسة حتى تصل إلى ما تريد وتحقق غاياتها ، وصار الأقوى هو الأقدر على تحقيق غاياته ومآربه في سياسة ودبلوماسية . . . ويكون الإنسان بذلك قد حدد لنفسه « شريعة » حديثة تلائم العصر وتلبي حاجاته .

● كلام عام كثير بريقه ، قليل نفعه . . . ولعلكم أهل هذا الزمن ما عدتم قادرين على تمييز الحق من الباطل وذلك بسبب هذا البريق الأخاذ الذي خطف أبصاركم وترككم عمياً في غياهب الظلمات ، فصرتم لا تميزون بين بريق فيه نور الإله يضيء ظلمات الدنيا كما يضيء ظلمات النفس ، وبين بريق تبعثه نار حامية أعدت لعذابكم . وكلكم سادرون ، لاهون لاعبون ، قليل انتباهكم في غفلتكم ، كثير استسلامكم للأحلام والأوهام ، أسكرتكم نشوة عابرة أفقدتكم العقل وسلبتكم الحريّة ، فعشتم على نسائم تأتي من هنا وهناك ، تحمل معها رائحة نتن مفاهيمكم وحضارتكم وأنتم ترون في ذلك النتن مسكاً وعنبراً .

في السياسة :

أما عن السياسة فهي - كما جاء في الأصول - رعاية الناس بما يكفل

مصالحهم ، ويخدمهم ويحقق لهم الخير والسعادة . هذه النظرة إلى السياسة تجعل منها خدمة للمجتمع وللفرد على حد سواء ، وحمّلتها معنى السهر على مصالح الناس ، والعمل بإخلاص وضمير ومحبة ، وخوف من الله وصدق في المعاملة . . . لتأمين الخير للمسوس . والسياسة بهذا المعنى عمل شريف ، لما يمكن أن يحققه من خير وإحقاق للحق وإزهاق للباطل ، وينال الإنسان الذي يسوس الناس على هذا النحو أجراً من الله تعالى إن هو عمل بهذه الروح ، ويحمده الناس على فعله . . . مما يجعل السياسة وسيلة من وسائل إقامة المجتمع الفاضل ، وإقامة العدالة وإحقاق الحق بين الناس .

وتحمل السياسة معنى الملاطفة والمحاسنة ، والرقة ، والتودد ، وابتداع الأساليب الحسنة والطرق المفيدة للوصول إلى الغايات الشريفة . هذا في الأصل . أما إذا نحن نظرنا إلى مفهوم السياسة اليوم ، فإننا نجده يختلف عن المفهوم الحقيقي للسياسة ، وصار مفهوماً قائماً على أساس تحقيق الغاية والمصلحة الشخصية للفرد أو الجماعة دون النظر إلى ما يمكن أن ينتج عن هذا العقل من ضرر للآخرين ، وإخلال بمصالحهم ، وتضييع لحقوقهم . . . وصار من معاني السياسة المكر والدهاء والخديعة ، وحسن التخلص ، واللياقة ، واللباقة . . . والسعي لإقناع الآخرين بوجهة نظرك الخاصة ، التي تؤمن مصالحك ، بصرف النظر عن موضوع حقوق الآخرين ومصالحهم . . . وكثيراً ما يدعّم الناس سياساتهم بالقوة ، فتصبح الدول الأقوى (عُدَّة وعدداً) هي الأقوى سياسة ، وإذا هي لم تستطع أن تصل إلى غاياتها بالسياسة ، فكثيراً ما تكون القوة وسيلة لدعم السياسة وتثبيتها وترسيخها وإعطائها غطاءً من الشرعية والقانونية . وانتشرت بين الناس مفاهيم الغاب ، وصارت « الغاية تبرر الوسيلة » وصار كل شيء مباحاً لك لتحقيق غاياتك ، وصارت الشرعية للقوّة وليس للحق . . . وهذا شأن كل سياساتكم اليوم .

أما ما قلته ـ يا بني ـ عن تحوّل السياسة اليوم من مفاهيم عامّة إلى نظريات ومبادىء وقوانين وأعراف . . . تدرّس في الجامعات ، ويأخذها الناس نبراساً في أعمالهم ومسالكهم . . . فليس في ذلك أية عبرة ، بل إننا نرى واقع هذه السياسة اليوم نوعاً من تكريس لمبادىء الظلم والعسف ، وسعياً دائباً لإقرار قوانين الغش والقهر والغلبة . . . بأساليب وطرق مدروسة . . . وكل هذه الدراسات والمفاهيم

والمباديء التي تخدم الباطل هي باطلة ، لأن الشر والسوء لا يكون في نقطة واحدة جامعة ومجتمعة ، بل هو طريق يسلكها الإنسان وتكون كلها شريرة من أول الخطوات في هذه السبيل وحتى النهاية ، ويجب الانتباه إلى أمر عام وهو أن هناك فرقاً كبيراً بين الواقع النظري والواقع التطبيقي في كل شيء ، فقد تكون النظريات مثالية ، ويأتي التطبيق غير ذلك . فإذا كانت الدراسات مثالية في بعض جوانبها ، إلاَّ أنها تكرس الأخطاء أحياناً كثيرة وتتخذ منها قواعد وأمثلة تحتذى ، والأساس أن كل ما بُني على باطل فهو باطل ، وأن ما فسد أساسه فهو فاسد ، وكل سياسة لا تقوم على الحق ولا تصونه فهي باطلة ، وكل جماعة لا تعتمد الحق في تصرفاتها وتعمل بمبادئه فهي ظالمة ، وإن كانت أقوى قوة في العالم ، والأقدر على تحقيق ما تريد .

- ولكن . . . كثيراً ما نرى اليوم سياسات لكثير من الدول تنهج هذا النهج الذي تتحدث عنه يا جد ، فيسود فيها الحق ، وتعرف أنظمة على مقدار كبير من الديموقراطية التي تحفظ حقوق الأفراد وتصونها ، وتسعى إلى إقامة العدل في المجتمعات وبين الشعوب . . .

● يجب أن تعلم يا بني أن مفهوم الحق واحد لا يتغيّر ولا يتبدّل من إنسان إلى إنسان ، ومن شعب إلى شعب أو من فئة إلى فئة ، وأن ما يعامل به إنسان شعبه على أنه حق يجب أن تعامل به كل شعوب الأرض على أنه حق أيضاً . هذا المبدأ في الحق هو الذي يجب أن يتبع في السياسة . ولكن الأمور لا تجري في الحقيقة على هذا النحو . فقد نرى بلداناً على مقدار كبير من الديموقراطية التي تطبقها في سياستها الداخلية تثير العجب في نفسك لما فيها من قوانين متطورة ، ترتكز على مباديء ثابتة ، وتعامل الناس جميعاً بمقتضى هذه المباديء ، كموضوع المساواة بين الأفراد ، إذ لا يعامل إنسان بالنظر إلى وضيفته أو مركزه - خارج نطاق هذه الوظيفة وهذا المركز - بل ينظر إليه كإنسان مساوٍ لأي إنسان آخر ، فلا يقدم نفسه عليه ، ولا يقدمه الناس على أنفسهم ولا على الآخرين ، وهو نفسه يأبى أن يعامل على غير هذا الأساس . . . وإذا أخطأ يحاكم وقد يعاقب على خطئه إذا كان يستحق العقاب ، ويجرد من وظيفته ولا يحميه منصب ولا جاه . . . بل يعامل بما يستحق حتى صار هذا يذكرني بالمنطق الإسلامي عندما قال خليفة المسلمين : من رأى منكم فيّ منكراً

فليغيره بحد السيف . وبقول ذلك الأعرابي لخليفة المسلمين : لا سمع ولا طاعة لك يا عمر . . . وكل ذلك ينبع من المفهوم الإسلامي الذي يسجله الحديث الشريف : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، والناس سواسية كأسنان المشط . . . ولكن هذه المجتمعات قد تصاب بشيء من الانفصام في الشخصية فلا تستمر على نفس النهج وبنفس الطريقة في التعامل مع الآخرين والشعوب الأخرى إذا أردنا التحديد ، فتسمح هذه الشعوب لنفسها بسرقة الشعوب الأخرى ، واضطهادها واحتلال بلادها ، وقتل المناضلين فيها ، وتصادر حريتها وتمنع رجالها من التعبير حتى عن آرائهم وأفكارهم . . . وتجيز لنفسها كل تصرف تمنع غيرها منه . . . كل ذلك باسم السياسة ، وقد صارت هذه السياسة تراثاً وأسلوب تفكير عند هذه الشعوب ، وصارت هذه الشعوب تتحدث عن المباديء والديموقراطية والحضارة والقيم والأخلاق . . . ولو نحن نظرنا في هذا الواقع لوجدناه واقع الغاب ومنطق الأسد مع الثور ، والذئب مع الخروف والثعلب مع الديك .

- صحيح أن هناك أخطاء يرتكبها الناس والحكومات ، وأنهم قد يقعون في مغالطات فاضحة . ولكن يجب أن نميز بين الفكر والتطبيق ، وبين الدولة والفرد ، وبين الشعب صاحب الحضارة وبعض الخارجين على هذه الحضارة . . . فلا نحمل الشعب والجماعات أخطاء الأفراد .

● ما تقوله صحيح من حيث المبدأ يا بني ، ولكنك إذا دخلت في التفاصيل وجدت أن الفرد الذي أخطأ هو ابن الجماعة التي ينتمي إليها ، وأن مفاهيم الفرد صارت مفاهيم الجماعة ، وأن الفرد قد تشرّب مفاهيم هذه الجماعة وكثيراً ما ينطق ويعمل بها وبوحي منها . لذلك صرنا نعرف أن في سياسات الدول خطوطاً لا يتجاوزها الأفراد ، وأن الجميع متوافقون على هذه الخطوط وهذه المباديء ، وأن كل من احتل منصباً معيناً يجب عليه أن يتقيّد « بسياسة عليا » للدولة لا يحيد عنها . لذلك فقد يصل إلى الحكم حزب المعارضة في دولة من دول الغرب ، فلا يزيد عمله عن تبديل بعض القضايا البسيطة في سياسة الدولة ، وتبقى الخطوط الكبرى لا تمس ، حتى لو كانت الأحزاب على طرفي نقيض كأن يكون أحدها راديكالياً ويكون الثاني اشتراكياً مثلاً . . .

ـ ألا ترى هذا الأمر ضرورياً في قيام الدول واستمرارها وبقائها وثبات شخصيتها . . . ؟

● هذا الذي تذكره من الاستمرار والبقاء والثبات . . . وغيرها من المفردات تصير كلاماً باطلاً لا قيمة له ، ولا يجوز الأخذ به والعمل بمقتضاه إذا كان الأساس الذي تقوم عليه الدول باطلاً وأن ما يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في هذه الحالة هو الحق ، وليس أي شيء سوى الحق ، والعدالة ، وليس أي شيء سوى العدالة والعدالة الإنسانية عامّة لا العدالة التي تصيب مجتمعاً بذاته ولا تخرج منه إلى سواه . لأن العدالة التي تكون من هذا النوع فترعى مجتمعاً واحداً محدوداً تصير نوعاً من عصبية وامتيازات خاصة . . . وتناقض بذلك مبدأ العدالة الإنسانية . فإذا كان المقياس الحق بصورة عامة ، والعدالة الإنسانية ، صارت المجتمعات في مأمن من الزلل ، وعمَّ السلام العالم كله . وما تخبط العالم اليوم في الظلمات والعمايات ، ولا ضاع في المتاهات. . . إلاَّ بسبب عنصرية عرقية أو سياسية إقليمية، أو منافع شخصية ، أو أطماع وتسلط وجبروت . . . وكله باطل بمفهوم العدالة الإنسانية والديموقراطية والحرية . . . وغيرها من مبادئكم الرنانة الفارغة التي تتحدثون عنها اليوم .

رجال السياسة :

ـ فما رأيك برجال السياسة عندنا يا جد ؟

● رجال السياسة . . . وأعوذ بالله من كل متكبرٍ لا يؤمن بيوم الحساب . . . وأول ما يتبادر إلى ذهني في هذا المجال ما قاله أبو العلاء المعري :

مُلَّ المقام فكم أعاشر أمّة ... أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

فقد كان أهل السياسة في زمن الشاعر يأمرون بما لا يحفظ مصلحة الرعية ، ولا يحقق لها أي مكسب ، وهم يظلمون شعوبهم ، ويكيدون لها ولا يحافظون على مصالحها . . . ولهذا مل الشاعر المقام في مجتمع هذه طباع رجال السياسة والأمراء فيه . . . فكيف لو كان يعيش اليوم في مجتمع رجال السياسة فيه عبيد الدرهم

والدينار ، لا خلاق لهم ولا ذمام ، يُباعون ويُشْتَرَوْن ، أغبياء ظالمون غاشمون . . . قيدهم في يد سواهم ، يفعلون ما يؤمرون ، ويعاني الشعب منهم قبل أن يعاني من سواهم ، بل هم صانعو شقائه ، الفرحون بهذا الشقاء ، والذين يغسلون أيديهم بدماء الشعب مئات المرات كل يوم ، يتاجرون بالرغيف والماء وحتى الهواء ـ لو استطاعوا ـ وصارت السياسة عندهم افتناناً في الغش والخديعة واستغلال الناس ، وبراعة بالصيد في الماء العكر ، واقتناصاً للفرص وما عاد في سياستهم عمل خير ، ولا فعل محبة ، ولا شفقة ولا رحمة ولا تقوى لله أو خوف منه .

ـ هذا كلام عام لا يفيد في شيء ، وهو أقرب إلى النقمة العامّة التي لا نجد معها تفسيراً لموقفك من رجال السياسة ، ولا تحديداً للمآخذ التي لك عليهم .

● لقد سمعت يا بني ـ على ما أظن ـ بالقول الذي يرى أن الإنسان ابن بيئته ومجتمعه . وهذا الكلام صحيح بصورة عامّة وإن كانت هناك شواذات لهذا القول . وإذا حلّ الفساد في أمّة فقليلاً ما يمكن حصره في موضوع محدد أو منطقة معينة ، بل هو يستشري وينتقل من مكان إلى مكان ، ومن موضوع إلى موضوع ، ومن جماعة إلى جماعة ـ كالوباء تماماً ـ فلا يلبث أن يعم المجتمع كله . ومثال ذلك ما ورد في قول رسول الله ﷺ : « **إذا حلَّ البلاء عمَّ** » . وهذا الفساد هو فتنة تفتن الناس في عقولهم وأنفسهم وأرزاقهم وأموالهم . . . وكثيراً ما تأخذ هذه الفتنة معها كل شيء وفي قوله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّة** ﴾[1] ما يؤكد أن الفساد في الفرد قد يكون صورة عن فساد الجماعة ، وأن فساد الجماعة دليل على فساد الفرد حتى يثبت العكس . ومن هنا القول المأثور : كيفما تكونوا يولّ عليكم ، وهو أصدق تعبير عن هذه الحالة من تصوير علاقة الفرد بالجماعة ، والرئيس بالمرؤوسين ، وإعطاء المرؤوسين صورة عن الجماعة . فهذه النقمة العارمة التي سمعتها مني ولم ترها خاصة بالسياسيين هي في الحقيقة نقمة على مجتمع فاسد وجهه سياسيّوه ، وهؤلاء ليسوا خيراً من عامّة الناس في هذا المجتمع . وهؤلاء السياسيّون هم من هذا الشعب ، ولكنهم أتقنوا اللعبة أكثر من سواهم ، وصاروا يعرفون كيف يستفيدون من كل الأوضاع والمناسبات ، فيسرقون وينهبون . . . وتكون

(١) سورة الأنفال ، الآية : (٢٥) .

لهم الأموال الطائلة والقصور والبنايات الفخمة والسيارات ، والدور والأملاك داخل البلاد وخارجها ، والأسهم في الشركات . . . وقد كانوا ـ منذ قليل ـ شحّاذاً نَوَراً لا يكادون يجدون ما يأكلون . ولهذا سئل فلان وفلان : من أين لك هذا ، وطبق هذا المبدأ ـ القول على كثيرين ، وإن كان السائلون أحياناً كثيرة لصوصاً ، أو هم يصيرون كذلك إذا صاروا في مركز السلطة والمسؤولية . أما أن يقطع رجل يد ابنته إن هي امتدت إلى مال عام تأخذه ، أو أن يعمل رئيس الدولة في أرض لواحد من الرعية ويأخذ منه أجرة يعيش بها مع عائلته ، أو أن يقعد أمير المؤمنين ليخصف نعلاً ينتعله ـ على مرأى من الناس جميعاً . . . فهذه كلها أساطير نجد لذة وشغفاً في الاستماع إليها وقراءتها دون أن تكون أكثر من حلم من أحلام العدالة والمثالية تراود أذهان المقهورين والمعذبين ، وترسم ابتسامة على شفاه الأغنياء في إشفاق وإنكار وقلة اكتراث . . . وقد تصل إلى درجة الاتهام أحياناً . أما الخليفة الأجير للرعية ، و « كبير القوم خادمهم » وفكرة عطف « الأب » على أبنائه ورعايتهم وحمايتهم ، وعدم نوم الخليفة إذا كان في أرض المسلمين جائع أو مظلوم ، وأن يحمل الخليفة كيس الدقيق على ظهره ويقدم بنفسه للمحتاجين والمعوزين . . . فكلام حلو لذيذ ، ولعلّ حكامنا ما سمعوا به ، بل إن بهم من الصمم المدروس ، أو المخصوص بحيث صاروا لا يسمعون ما فيه عدالة وإحقاق للحق ، وقيام بالواجب ، في حين يسمعون همس إبليس ، ووسوسة الشياطين ، ووشوشة السماسرة ونداء الأطماع وصياح الأهواء . . . وقد لا يسمعون غيرها .

ـ كيف تريد أن يكون رجل السياسة إذن يا جد ؟

● المبدأ الذي يجب أن لا تنساه يا بني هو أن الله تعالى خلق هذا الخلق ونظم حياته أحسن تنظيم بما بسطه له من شريعة السماء ، وجاء الأنبياء فنشروا هذه الشريعة وعملوا بمقتضاها في محاولات لإقامة المجتمع الفاضل الذي يؤمن سعادة الإنسان الفرد وسعادة الجماعة . وقد نجح هؤلاء الأنبياء في تثبيت صورة المجتمع الفاضل وتبيان الطريقة المثلى التي تساس بها الشعوب . نقول ذلك لا على أساس أن الأنبياء استطاعوا القضاء على الشر ، وأقنعوا أو أجبروا الناس جميعاً أن يعملوا تحت لوائهم وينظموا إلى مسيرتهم ، فقد مات كثيرون منهم مقتولين ،

وخسروا معارك وجولات وحروباً مع الظلم والطغيان والشرك . . . ولكن يكفي للنبي أن يكون استطاع في فترة من الفترات أن يجمع حوله جماعة من المؤمنين برسالة السماء ، يخلصون لها ، ويعملون بوحي منها ، يطيعونه ويثبتون طريقته في الناس . . . يكفي هذا ليقال إنهم نجحوا في مهماتهم وتبليغ رسالاتهم .

وبعد الأنبياء يأتي دورنا ـ نحن بني البشر ـ إذ يفترض فينا أن يكون منا جماعات أو أفراد ، يحملون الرسالة ، ويحفظون الأمانة ، ويقومون بالواجب المفروض عليهم شرعاً في السعي لإقامة المجتمع الفاضل بتطبيق رسالة السماء ، هذا المجتمع الذي يسوده سلطان الحق والعدل ، ويغيب عنه شبح الخوف والذل والمهانة للناس ، والاستغلال والظلم والطغيان ، ينذر فيه الإنسان المؤمن نفسه لخدمة الناس ، وغايته من ذلك رضى الله تعالى قبل أن تكون غايته رضى الناس ، عارفاً موقناً أن هذا الرضى يُنال بالعمل على سعادة الآخرين ، لذلك وجب أن يكون التوجّه الأساسي في كل عمل : باسم الله ، وبالله ، وعلى سُنَّة رسول الله ، ساعياً لقضاء حاجات الناس وشعاره كما ورد في الحديث الشريف : « **إن حوائج الناس من نعم الله عليكم ، فلا تملوا النِعَمَ فتحول نِقماً** » . ولا يكون شعاره جمع مال ولا جاه ولا سلطان ، بل يكون كل عمل يقدم عليه ابتغاء الحصول على رضى الله تعالى لا غير ، ورضى الله هذا إن حصل عليه الإنسان كان بالتالي مفتاحاً لكل الغايات والمطالب وبه تتحقق كل الرغبات ، ولا ينغلق دونه باب .

ـ ومن أين تأتي برجال عندهم مثل هذه المباديء والمفاهيم في مجتمعنا اليوم ؟

● يا بني ، أنت تنظر للأمور بعين الخوف والرهبة لأنك تنظر إليها بصورة معكوسة ، فترى الأشياء في نهاياتها وكمالاتها وصورها المثالية ، فيهولك الأمر لبعد الطريق وطول المشقة ، وقد تحسب بينك وبين نفسك كم يكلف الوصول إلى هذه الغايات فتعظم الأمور في عينيك وتنكفيء مفلساً شاعراً بالخيبة . . . ولو أنك اعتبرت النهاية حُلُماً جميلاً نتمنى لو يتحقق وسرت في دربه تعمل على تحقيقه خطوة فخطوة ، دون خوف ، ولا شعور بالرهبة ، بل برغبة وأمل كبيرين ، فتنطلق من

بدايات بسيطة لتصل إلى الغايات العظيمة ، وككل عمل ومنهج في الوصول إلى الغايات وتحقيق الآمال والمشاريع الضخمة . . . فإنك تصل حتماً . وأن تبدأ في العمل السياسي بنوايا صادقة ورغبة في عمل الخير والإفادة ، وسعي للحصول على الرضى والبركة وبنية أكيدة لإحقاق الحق ورفع الظلم ورد الشر عن الناس . . . وإذا سرت في هذا الطريق ، فإنك لن تلبث أن تجد نفسك ـ بعد حين ـ وقد أقمت صرحاً عظيماً دونه اهرامات مصر ، أو جبال همالايا أو ناطحات سحاب نيويورك بل سيكون بناؤك منارة هداية تبقى تشع مدى الدهر لا تتلف ولا تضعف ولا تنهار .

أما مجتمعنا اليوم يا بني فغارق في بحار الظلام ، ونحن نعيش في حالة ضبابيّة لا تكاد نميّز فيها ليلاً من نهار ، ولا تعرف شمساً من قمر ، وغرقنا جميعاً في اللجة لا ندري أين تقذفنا الأمواج ، ولا انفتاح على عالم الحقيقة والخير إلّا نوافذ صغيرة ، أو هي ثقوب في جدران هذا الظلام تنفتح على نور الحقيقة منطلقة من بعض نفوس ما زالت تختزن بعض الخير ، يشع منها نوراً يبعث فينا شيئاً من دفء الإيمان وحرارة الحياة . . . في مجتمع غضب الله عليه ، هو ينتظر الكارثة أن تحل في خوف ووجل ، ومعظم أهله سادرون لاهون ، يلعبون صباح مساء ، وليل نهار . . . ولا يشبعون لعباً ولهواً ، ويظنون أنهم على الحق ، والحق منهم بعيد وعلى هذا فأنا شخصياً لا أنتظر خلاصاً لهذا المجتمع الإنساني ، يأتي من عالم الأرض ، لأني أؤمن أن عالم الأرض صار كله إلى فساد ، بل أنتظر الخلاص أن يأتي من السماء ، يحمله نبي أو وصي أو بعض رجال الله ، يفتح الله على أيديهم مغاليق باب السماء ، فتحل الرحمة ، ويكون الخلاص . . . ولكني قبل كل ذلك أنتظر الكارثة وقد تكون رعداً وصواعق يصيب ربك بها من يشاء ، أو ريحاً عاتية في أيام نحسات ، أو مطراً من سجيل أو سيلاً كسيل العرم . . . أو غير ذلك من آيات الله ، يطهر الله تعالى بها الأرض ولا يبقي عليها إلّا الصالحين . وإذا كنت أرى أن الناس متساوون في استحقاق العقاب اليوم ، فإنني أرى أيضاً أن أولى الناس بالعقاب الرؤساء ، ذلك أن فساد الرعية كثيراً ما يكون بسبب فساد الرئيس الذي أحلّ قومه دار البوار . فالخلاص الخلاص يا بني ، وأطع الله واعمل الخير وأحق الحق . . . تنج بنفسك ، وفِرَّ من الله باللجوء إليه ، وهو نعم المعين والهادي والموفق .

في المسؤولية :

ـ في حديثك عن رجال السياسة أراك تتحدث يا جد عن المسؤولية فتجعلها على عاتق هؤلاء ، أو أنت تحملهم القسم الأكبر منها في موضوع فساد المجتمع ، في حين نرى أنهم لا يتحملون ، ولا يمكن أن يتحملوا وزر المجتمع كله ، بل كثيراً ما يكون هؤلاء عناصر خير في المجتمع يعملون على إصلاحه وما فيه خيره وسعادته ؟ وليس إخفاقهم في الوصول عن تقصير ، بل لأن المشكلة صارت أكبر منهم ! .

● هناك مسؤولية عامّة يا بني جُعلت على الإنسان بمقتضى كونه إنساناً يتمتع بمدارك يأتي في أولها العقل . وهذا العقل هو عصب المسؤولية ، فإذا فقد هذا العقل سقطت المسؤولية عمن ضاع عقله . وبهذا يتساوى الناس في هذا الموضوع ، وكلهم مسؤولون بنفس المقدار . ولكن لمّا كان الناس درجات في العقل والفهم والإدراك والعلم والحكم والقيادة والرياسة . . . فإن هذه المسؤولية تزيد كلما ارتفعت مرتبة الإنسان في الحياة ، فتكون مسؤولية الراعي أكبر من مسؤولية الرعية ، وكذلك مسؤولية الأب عن أولاده والرجل عن زوجته ، والأستاذ عن تلاميذه ، وصاحب العمل عن العمال الذين يعملون بإمرته . . . وحدود هذه المسؤولية أن كلّ فرد في المجتمع ، مهما كانت صفته ، مسؤول عن إحقاق الحق ، وعن الأخلاق والفضيلة وعمل الخير . . . وانتشار روح الخير والفضيلة ومبادىء السلام والكمال في المجتمع ، بما يرضي الله تعالى ويحقق إرادته في الخليقة . وتصبح المسؤولية عبارة عن مطالبة الإنسان في حال التقصير أو الإهمال ، وكذلك في حال الإقدام على عمل يخالف المبادىء السماوية في الخليقة . وإذا كانت هذه المسؤولية تطال الرؤوس في المجتمع ، فإنه لا يمكن أن يعفى منها المرؤوسون مهما كانت أوضاعهم ـ كل بمقدار ما يتمتع به من الأهلية والقدرات التي تحدد المسؤولية وتفرضها على الإنسان . وفي الحديث الشريف : « **كلكم راعٍ ، وكل راع مسؤول عن رعيته** » توضيح لمعنى هذه المسؤولية وتعميمها بحيث لا يعفى منها أحد .

وقد تحددت المسؤولية بموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي جعله الإسلام ركناً من أركان الدين ، وهذا الركن هدفه المحافظة على المجتمع سليماً معافى ، تسوده العدالة ، وينال كل إنسان في هذا المجتمع نصيبه من الخير ، أو من

العقاب ، بمقدار ما يستحق ، وبمقتضى ما يقدم عليه من أعمال . وصار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمراً مندوباً في الإسلام ، بل هو واجب إن قصّر الإنسان فيه يتحمل مسؤولية المقصّر بواجبه ، الممتنع عن إحقاق الحق ، وتكون منزلته بمنزلة المفسد في المجتمع . فالمطلوب من الإنسان إذن أن يتخذ مواقف إيجابيّة من الموضوعات المطروحة والقضايا الحاصلة في المجتمع ، بمعنى أن يكون له موقف يؤيد الخير ويشجع عليه ، ويشجب الشر ويقف في وجهه ويتبرأ منه . وفي القول : « **من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان** » في هذا القول دعوة إلى الوقوف في وجه المنكر ، ودرجاته ثلاث : وقفة **أولى** ، يستخدم فيها القوة ـ اليد ـ لتغيير هذا المنكر ، **وثانية** يستخدم فيها اللسان فيدعو إلى ترك المنكر ، وهذا في حالة عدم القدرة وفقدان الوسيلة لتحقيق المرتبة الأولى من مراتب المسؤولية وهي استخدام القوة لمنع المنكر ، أما **الثالثة** ، فهي ـ في حال عدم القدرة على الوقفة الأولى أو الثانية ـ إنكار بالقلب وهو موقف إيجابي ، بالرغم من أنه قد يتبادر إلى الذهن في أول الأمر أنه موقف سلبي ، وإيجابيته بالنسبة للإنسان صاحب الموقف وهو نوع من براءة من عمل الشر تؤدي إلى حياة الضمير ، والوقوف إلى جانب الحق ولو بالقلب ، مما يجعل الإنسان ينبت على هذا الحق ، ويحفظه ويسهر عليه ، ويقرّ به لأصحابه ، فلا يسكت على ظلم ، ولا يبرره ولا يبريء صاحبه ، بل يبقى الظلم ظلماً في نظره . وهذا الموقف من الظلم والمسؤولية شبيه بموقف من يعتبر الظلم درجات : فالظلم قيام باغتصاب الحق من أصحابه وإلحاق الأذى بالناس ، فمن قام بهذا العمل فهو ظالم ، ومن شاهد الظلم يمارس في حق جماعة فسكت عنه ولم يعمل شيئاً لنصرة الحق فهو ظالم ، ومن سمع بأخبار الظلم فلم يتخذ منها موقفاً شاجباً منكراً . . . فهو شريك في هذا الظلم . وبهذا فقد صارت المسؤولية في أساس الخليقة ، وكل إنسان عاقل هو مسؤول ، والمسؤولية وسيلة للوصول إلى إحقاق الحق وإبعاد الظلم ، وإقامة المجتمع الفاضل .

المسؤولية والعدالة :

ـ ولكن توسيع نطاق المسؤولية على هذا النحو وبهذا المقدار فيه ظلم

للناس ، وتحميل لهم فوق طاقتهم ، وسؤالهم عن أمور ما كان لهم فيها يد ، ولا سعوا في سبيلها . . .

● لا يا بني ، بل في هذه المسؤولية منتهى العدالة ، ذلك أن غاية الخليقة ـ كما قلت لك ـ إقامة المجتمع الفاضل ، وكل منا مسؤول عن تحقيق هذه الغاية الإلهية من الخليقة . وهذه الغاية خير في ذاتها لأنها ترعى مصلحة الإنسان وتحقق سعادته في الحياة ، وتقيم مجتمع الخير والفضيلة . . . ولما كانت الغاية خيراً في ذاتها ، وخيراً للفرد وللمجتمع ، فمن الطبيعي ، بل من العدالة أن تكون مسؤولية يتحملها كل فرد في المجتمع ، يستفيد منها الفرد ويستفيد المجتمع . وعمل يحقق لك السعادة ويؤمن لك الخير يصبح من واجبك أن تحافظ عليه وترعاه ، وأي تهاون في هذا المجال يصبح خيانة للمجتمع ، ويترك مجالاً للشر أن يستشري وأن يأخذ طريقه إلى المجتمع . والله تعالى خير ، ولا يمكن أن ينتج عنه إلاَّ الخير ، وفعل الخلق بذاته عمل خير ، وطبيعي أن تكون هناك قواعد ترعى هذا الخير وتحافظ عليه . والمسؤولية من هذه القواعد ، وهي أمر ضروري وواجب .

ـ لعلّ هذا موقف شخصي في موضوع المسؤولية ، وهو يحمّل الفرد ما لا طاقة له عليه ، ولا يستطيع القيام به ، ويحكم عليه بعد ذلك بالتقصير ، وقد يترتب على هذا التقصير عقاب لا يستحقه الإنسان .

● هذا الكلام يا بني يدل على شعور شبيه بما يشعر به إنسان يقف على أطلال مدينة مهدمة ، فلا يرى إلاَّ ركاماً ، ويتخيَّل العبء الكبير المترتب على إعادة البناء فتضعف همته عن مواجهة هذا العبء الكبير ، فلا يلبث أن يعبر عن هذا الضعف بتعابير مختلفة تنم كلها عن استعظام المسؤولية وضخامتها . . . أما لو كان المتهدم حائطاً واحداً في بيت ، أو بيتاً في مدينة ، لكان الشعور مختلفاً ، ولكانت القدرة على مواجهته ، والعزيمة في هذه المواجهة أعظم وأشد ، فأنت يا بني في مجتمع ما بقي فيه من بناء الفضيلة إلاَّ ركام ورماد وحجارة وحطام . . . ترى الفساد فيه مستشرياً فتظنه حقيقة ، وتحاول الدفاع عنه وإقراره لعدم قدرتك على مواجهة الحقيقة . ولو أنك نظرت إلى الأمور بغير هذا المنظار لأمكنك الحكم بصورة أصح . وإذا أردت أن تعرف الحقيقة فليس لك بد من إعادة النظر في كل شيء ، وتقييم كل شيء على

أساس الحق والغاية من الخلق ، وعندها سترى أن فعل الخلق خير في ذاتـه ، وأن هذا الخير لا بد من المحافظة عليه وحمايته ورعايته . . . ونحن البشر حماة هذا الحق والخير ، وهي مسؤولية أنيطت بنا لخيرنا . وإذا كُنا قصرنا في تحقيق الغاية المنشودة أو فشلنا في تحقيقها فليس معنى ذلك أن فشلنا أعطانا حقاً في ما نسلكه من السبل وما نسيـر فيه من الـدروب . وإذا كان يصعب عليـك أن تـرى النـاس جميعـاً مخـطئين ضالين ، فلا يهولنك الأمر يا بني ، وقد وعدنا الله تعالى أن السائرين في طريق الخير قلّة ، وهـم : ﴿ ثُلّة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾[1] ، فكن من هذه القلة تنج يا بني ، ولا يصعب عليـك أن يكون روّاد جهنم كثيـرين ، فهي تتسع لنـزلائهـا ـ ومـا أكثرهـم ـ و : قتل الإنسان ما أكفره[2] !!

---

(١) سورة الواقعة ، الآية : (١٣) .

(٢) سورة عبس ، الآية : (١٧) .

- ٨ -

المشكلة ... والحل

ـ المشكلة يا جد صراع قائم بين الحقيقة والخيال ، بين المثال والواقع . أما الحقيقة والمثال فهي ما تراه أنت ، وأما الواقع فهو ما ترى الناس فيه . والواقع الذي يعم الناس جميعاً يصير هو الحقيقة ، ولا حقيقة خارج نطاق هذا الواقع . وانطلاقاً من هذا الواقع يبقى الإنسان سجين الحياة بكل ما فيها ولا يستطيع أن يحطم هذا السجن ويخرج منه : فهو سجين نفسه : غرائزه وميوله ورغباته ونزواته وشهواته ، وسجين عائلته : أمه وأبيه وأخوته وأخواته وأعمامه وخالاته وكل أقاربه ، وسجين عواطفه وسجين عاداته وتقاليده ومعتقداته ، وسجين طباعه الخاصة وميوله ، وسجين اسمه وسمعته وكرامته وعمله ، وسجين علمه ومعارفه . . . وسجين كل شيء . وإذا أراد أن يتصرف بأي تصرف مهما كان ، تجده محدوداً بكل هذه الحدود ، أو ببعضها ، تؤثر في تصرفاته وأعماله ، بحيث لا تجد إنساناً حُراً أبداً ، وبحيث صارت الحريّة وهماً لا وجود له ولا حقيقة . وصار كلامك عندي ـ وإن كنت مقتنعاً أنه هو الحقيقة ـ صار يشبه الوهم الذي لا يتحقق . . . وصار كلامك هذا وقولك الذي سمعته منك من جملة القيود التي تكبلني وتحدّ من حريتي ، فلا أستطيع أن أتصرف كما يجب أن أتصرف ، ولا أستطيع أن أفعل ما يحلو لي ، ولا أقدر أن أفعل ما أشاء . . .

● لا يا بني ، لا يجوز لك في الأصل أن تفكر تفكيراً من هذا النوع . وهذا التفكير يمكن أن يصدر عن إنسان أقل علماً ومعرفة وخبرة منك . وعلمك ومعرفتك يجب برأيي أن تحررك من هذه الهواجس لأن القيد الوحيد في نظري هو الجهل ، والوسيلة الوحيدة للحرية هي العلم . فبالعلم وحده نسلك درب الحرية ونصير

أحراراً ، والعلم وحده هـو النور ، وهـو الذي يـريك الله ويـريك الخيـر والحقيقة ، ويسلك بك درب الكمال ويوصلك إليه . وبالعلم تصير مثالياً ، وتصبح قريباً من ذات الله . وإذا كان الإنسان مقيّداً بالقيود التي ذكرت ، فإن هذه القيود كلها لا يحررنا منها سوى العلم ، فعليك بالعلم وحده وسيلة من وسائل التحرر هذا العلم الذي تريد به وجه الله في شقيه علم الدنيا ـ علم الطبيعة ـ وعلم الآخرة ـ علم ما وراء الطبيعة ـ ، وكل منها يخدم الآخر ليكون العلم واحداً ، وبالعلم تعرف الله ، ومن عرف الله كان حُراً ، وكلما ابتعدنا عن الله كنا عبيداً ، فكن لله عبداً يا بني تكن حُراً في حياتك ، فعبادة النور هي أن تعيش في النور ولا ترضى به بديلاً ، فيدخل النور إلى قلبك وتصير جزءاً منه وفيه . وإياك أن ترى في الواقع الذي يعيش الناس في ظله حقيقة ، فكثيراً ما يكون واقع هؤلاء النـاس انحرافـاً اعتادوا عليـه ، وشراً وقعـوا فيه ومـا استطاعـوا أن يخرجوا منه . والحق هو الحق ، والحقيقة مصدرها الله وحده لا الإنسان ، ولو اجتمع أهل الأرض جميعاً على أمر فإنه لا يصير حقيقة إلّا إذا كان موافقاً للشريعة ، شريعة الله .

ـ لا أدري يا جـد أينا السجين : أنا أم أنت ؟

● كـلانا سجين يـا بني ، وأنا وأنت سجينـان في سجن الجهل ، أمـا سجني فيتسع كلما أدركت علمـاً جديـداً ، وعرفت شيئـاً كنت أجهل ، فـأرى الحياة أرحب لأنني أقترب من ذات الله التي لا تحد. وقد قطعت شوطاً في هـذا المجال، وصـارت في نفسي طمأنينة وثقة أن أحطم القيد في يوم ما عندما أصبح أقـرب إلى الله ، وأما الفـرق بيني وبينك فسجنـك كسجني ، ولكن يزاد عليـه هواجس وأحـلام ومخـاوف وأوهام . . . فحاول أولاً أن تستيقظ من أحلامك يا بني ، وأن تتخلص من أوهامك ، وداوم على طلب العلم ، وجني المعارف ، وهذه طريقك إلى الحرية .

المحتوى

الموضوع	الصفحة